إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

العولمة والإسلام

الدكتور
عدنان بن علي رضا بن محمد النحوي

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النحوي ، عدنان علي رضا

العولمة والإسلام

عدنان علي رضا محمد النحوي - الرياض ١٤٢٧هـ

٢٢٧ص ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : X ٦-٩٧٧٩-٩٩٦٠

١- الإسلام والعولمة أ - العنوان :

ديوي : ٢١٤,٣٢٧ ١٤٢٧/٦١٧٨

رقم الإيداع : ١٤٢٧/٦١٧٨

ردمك : X ٦-٩٧٧٩-٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

دار النحوي للنشر والتوزيع
هاتف : ٤٩٢٤٣٣٩ - فاكس : ٤٩٣٤٨٤٢
موقع الانترنت : www.alnahwi.com
البريد الإلكتروني : info@alnahwi.com
ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

موقــع

" لقــاء المؤمنــين "

على الشبكة الدولية الإنترنت

www.alnahwi.com

يهدف هذا الموقع إلى المساهمة مع المواقع الإسلامية الأخرى وجهود العاملين إلى بناء الجيل المؤمن وبناء الأمة المسلمة الواحدة التي تكون فيها :

كلمــة الله هــي العليــا

نأمل التلطف بزيارة هذا الموقع وإبداء ملاحظاتكم ونصائحكم على البريد الإلكتروني :

info@alnahwi.com

كما يسرنا دعوة إخوانكم وأصدقائكم لزيارة الموقع .

الإهــــــداء

* إلى المؤمنين الذين يريدون أن يعوا الواقع من خلال منهاج الله !

* وإلى المؤمنين الذين يريدون أن يجدوا حلاً للخروج من مشكلات العولمة وغيرها .

* إلى كل مؤمن يريد أن يفكر ويعرف مسؤولياته ويساهم في جمع كلمة المؤمنين في الأرض على نهج رباني واحد ، لتقوم بهم أمة الإسلام الواحدة في الأرض !

الافتتاح

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

[آل عمران: ١٠٠ - ١٠٢]

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]

عن سعد بن أبي وقّاص، رضي الله عنه، قال: سعمتُ رسول الله ﷺ وهو يقول: (إنَّ الإيمان بدأ غريباً وسيعود كما بدأ. فطوبى للغرباء إذا فسد الزمان. والذي نفس أبي القاسم بيده ليأزرنَّ الإيمان بين هذين المسجدين كما تأزر الحيَّة إلى جحرها) [أخرجه أحمد ومسلم]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

(بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ غريباً. فطوبى للغرباء)

[أخرجه مسلم]

كلمـات مضـيئـة

للدكتور عدنان علي رضا النحوي

بنـاء الإنســان

إن بناء عمارة مهما عظمت يسهل إذا قيس ببناء الإنسان على قواعد الإيمان والتوحيد وعلى قواعد المنهاج الرباني . فتلك مهمة يقوم بها المهندسون والفنيون ، أما بنـاء الإنســان وإعداده وتدريبه فهي مهمة بعث الله من أجلها الرسل والأنبياء الذين خُتموْا بمحمد ﷺ ، ثم جعلها مهمة الأمة المسلمة الواحدة الممتدة مع الزمن ، على أَساس من المنهاج الربّاني - قرآنا وسنة ولغة عربيّة - .

* * *

حقُّ التعـاون
بين المؤمنين ووجوبه

يجب أن نتعاون فيما أمر الله أن نتعاون فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله أن نختلف فيه .

* * *

خافوا على أنفسكم

أيها النـاس ! أيها المسلمـون ! أيها الدعاة ! كما تظهرون الخوف على الإسلام ، مع أنَّ للإسلام ربّاً سينصره بجنود ينصرون الله ربهم ويوفون بعهدهم معه ، فخافوا على أنفسكم حين تقفون بين يدي الله، يسألكم عما فعلتم في الحياة الدنيا ، وهل نصرتم الله كما أمركم وتجنبْتُم الفتن التي نهاكم عنها ، والصراع والشقاق وتنافس الدنيا ؟ ! خافوا على أنفسكم كما تخافون على الإسلام .

* * *

إذا غاب النهج والتخطيط

إذا غاب النهج والتخطيط على أساس الإيمان والتوحيد والمنهاج الرباني في واقع أيّ أمّة ، فلا يبقى لديها إلا الشعارات تضج بها ولا تجد لها رصيداً في الواقع إلا مرارة الهزائم وتناقض الجهود واضطراب الخطا ، ثم الشقاق والصراع وتنافس الدنيا في الميدان ، ثم الخدر يسري في العروق ، ثم الشلل ، ثم الاستسلام !

* * *

فريقان
فريق له نهجه وخطته وفريق لانهج له ولا خطة

إذا التقى فريقان : فريق له نهجه وخطته ، فعرف بذلك دربه ومراحله وأهدافه ، فنهض وصدق عزمه لها ، وفريق لا نهج له ولا خطة إلا الشعارات يُدَوِّي بها ، فإن الفريق الأول بنهجه وتخطيطه يستطيع أن يحوِّل جهود الفريق الثاني لصالحه ، فيجني النصر ، ويجني الآخر الهزيمة والخسران والحسرة .

* * *

الأهداف الربانية وتحقيقها

إن الأهداف الربانية لا يمكن تحقيقها إلا بجنود ربانيين ووسائل وأساليب ربانية . وهذه وتلك تحتاج إلى بناء وإعداد رباني .

* * *

العاجز

من عَجَزَ عن إصلاح نفسه فهو أعجز عن إصلاح غيره أو إصلاح المجتمع . كم من الذين ينادون بالإصلاح والتغيير هم أحوج الناس إلى الإصلاح .

* * *

تَقبُّل النصيحة

من سدَّ أذنيه عن النصيحة فَقَدَ فرصة عظيمة لمعرفة أخطائه، وفرصة أعظم لمعرفة سبيل الإصلاح والعلاج، وتعرَّض أكثر للمتاهة والضلال.

* * *

اتباع الحقّ لا الهوى

إن الهوى لا يُصْلِحُ بل يفسد ويدمِّر، وإن اتّباع الحق هو سبيل الإصلاح للفرد والأسرة والجماعة والأمة، وكذلك للبشرية كلها.

* * *

من صدق الله نجا

بين الحق والهوى باب ابتلاء وتمحيص. من صدق الله نجا ودخل إلى الحق، ومن ضلَّ هلك ودخل إلى الهوى.

* * *

تكامل الإسلام وتكامل الدعوة إليه

ليس من الحكمة أن نكتفي بإعلان مبادئ الرحمة والعفو والتسامح والسلام في الإسلام، حين يكون مثل هذا الإعلان مظهراً من مظاهر الضعف والهوان والاستسلام أو يوحي به. ولكن الحكمة والواجب أن نُظْهِرَ تكامل الإسلام من عفو وتسامح، ومن عقوبة وحزم، ومن سلام وحرب، ومِن حكمة وتشريع، ومن إيمان وتوحيد.

* * *

أين تبتدىء المعركة

إن المعركة مع أعداء الله تبتدئ أولاً في نفسك أيها الداعية المسلم ، فإن انتصرت بها ، فيمكن الانتقال إلى جولة بعد جولة ! وإن هزمت بها فستُهزَم في سائر المعارك ! وتظل هذه المعركة ممتدَّة مع المسلم حياته كلها حتى يلقى الله .

* * *

الحَيْدُ عن الصراط المستقيم

إنَّ الله سبحانه وتعالى جعل صراطه الحقَّ مستقيماً، حتى لا يَضلَّ عنه أحد. وجعله سبيلاً واحداً حتى لا يُخْتَلَفَ عليه، وجعله صراطاً مستقيماً ليَجمع المؤمنين أُمَّةً واحدة وصفّاً كالبنيان المرصوص. فلماذا تاه المسلمون عنه فتَفَرَّقوا، واختلفوا عليه فتَمزَّقوا، ثمَّ ضَعُفُوا وهانوا ؟!

* * *

حتى يفيقوا أو يهلكوا

وكلَّما توانى المؤمنون عن الوفاء بالعهد والتزام الحقِّ والدعوة الصافية في صفٍّ واحد كالبنيان المرصوص ، أنزل الله بهم البلاء والعقاب والعذاب ، حتى يستيقظوا أو يهلكوا .

* * *

أخوة الإيمان
عاطفة ومسؤوليات

إن أُخوّة الإيمان ليست عاطفة فحسب ، ولكنَّها مسؤوليات وواجبات ، وحقوق والتزام ، لاتسقط حتى لو تغيَّرت العاطفة . إنَّها رابطة المؤمنين في الأرض جميعاً ، رابطة يجب الوفاء بها . إنها رابطة ربَّانيّة أمر الله بها المؤمنين جميعاً ، حتى يكون الولاء الأوَّل لله ، والعهد الأوَّل مع الله ، والحب الأكبر لله ورسوله . وبغير ذلك لاتتحققُ أخوة الإيمان .

* * *

لو حقق المسلمون

أخوّة الإيمان فـي واقعهـم

لو أنَّ المسلمين حققوا في واقعهم " **أخوة الإيمان** " كما أمر بها الله سبحانه وتعالى ورسوله محمد ﷺ لأنزل الله نصره عليهم ولسادوا العالم ! ولأعزّ الله الجميع !

* * *

أخوة الإيمان
والولاء الأول لله
والعهد الأول مع الله وحده
والحبّ الأكبر لله ولرسوله.

لاتصدق أخوّة الإيمان في ميدان الممارسة والتطبيق إلاّ إذا كان الولاء الأول لله وحده دون شرك ، والعهد الأول مع الله وحده ، والحبُّ الأكبر لله ولرسوله ، ثمَّ يَنبع كلُّ ولاء وعهد وحبٍّ في الحياة الدنيا من الولاء الأوّل والعهد الأول والحبّ الأكبر .

* * *

كلمــة المـؤمــن
صـادقــة طيبــة

كلمة المؤمن طيّبة ، قويّة ، واعية ، لاتنحرف عن الصراط المستقيم . إنها بركةٌ للناس ، ونورٌ في الحياة ، وسلاح في الميدان . وهي أساس حريّة الرأي ، وأساس النصيحة ، وقاعدة الشورى .

* * *

الخلل فينا والأخطاء منَّا

لايختلف مؤمنان في أنّ كلّ مايجري في الكون والحياة ، من أمر صغير أو كبير ، هو بقضاء الله وقدره : قضاء نافذ ، وقدر غالب ، وحكمة بالغة ، وحقّ لا ظلم معه أبداً . ومن هنا وجب علينا شرعاً أن ننظُر في أنفسنا ، في واقعنا ، فالخلل فينا ، والأخطاء منا ، والتقصير جلي كبير ! .

* * *

أيها المسلم !
إنَّك مسؤول ومحاسَب

إنك مسؤول أيها المسلم ، وإنك محاسَب ، ولايغرنَّك أن تقول لنفسك إنَّ المسؤولين هم العلماء والدعاة وحدهم . نعم إنهم مسؤولون ومحاسَبون وإنك مسؤول ومحاسَب . ولاتنفع الندامة والحسرة يوم القيامة ! فانهض إلى مسؤوليَّتك أيها المسلم .

* * *

منهاج الله ودراسته
وتدبّره وممارسته في واقع الحياة

أيها المسلم ! لاتكن كالميت بهجرك دراسة منهاج الله وتدبّره وممارسته في واقع الحياة ، فاطلب الحياة والنور ، والهداية والفلاح بذلك ، والقاعدة لذلك :

* أن تكون دراسة منهاج الله – قرآناً وسنة ولغة عربية – منهجيّة يومياً.

* وأن تكون صحبة عمر وحياة لاتتوقف أبداً ، حتى يلقى المسلم ربّه !

* أن يتدرَّب المسلم على رد الواقع بأحداثه وأفكاره إلى منهاج الله رداًّ أميناً ، ليصاحب ذلك دراسة منهاج الله .

* * *

التَزِمْ النَّهج الإيماني للتفكير

أخي الكريم ! أيها المسلم ! إن الله سبحانه وتعالى خلقنا على فطرة سليمة ، ووهبنا القدرة على التفكير ، فأول مانطلبه ونوصي به هو أن نُفكّر ، أن نفكر التفكير الإيماني ، لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتفكير على نهجٍ إيمانيٍّ ونور وهداية بآيات كثيرة .

* * *

الفقه في الإسلام

الفقه في الإسلام يقوم على ركنين : المنهاج الرباني - قرآنا وسنة ولغة عربيّة - ، والواقع . فلا يوجد فقه خاص يسمى " **فقه الواقع** " ، فالفقه كله قائم على الواقع والمنهاج الرباني .

* * *

الفقه وامتداده وحدوده

كل مسلم مكلّف أن يجتهد فيما هو ضمن مسؤوليته الشرعية وحدود اختصاصه ووسعه وعلمه ، مما سيحاسَب هو عليه يوم القيامة ، دون أن تتعطل الاستعانة بإمكانات المجتمع ، أو الشورى ، على أن يهيّء المسلم نفسه للمسؤوليات المكلَّف بها ، ويتزوّد لها بالزاد الحق .

* * *

المسؤوليّة والفقه

لافقه دون مسؤوليّة ، ولا مسؤوليّة دون فقه .

من كلمات ريتشارد نيكسون الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية

لرئيس الولايات المتحدة الأسبق ريتشارد نيكسون جمل تعطي دلالات واضحة عن اتجاه الولايات المتحدة نحو العالم والعالم الإسلامي . وهذه كثيرة في كتبه الثلاثة التي نشرها ، ولكننا نأخذ ثلاثة نماذج منها فقط للدلالة ، مع أن سياسة الولايات المتحدة تحتاج إلى دراسة عميقة :

* لقد جعلت الأسلحة النووية من الحرب أداة عفا عليها الزمن كوسيلة لتسوية المنازعات بين الدول الكبرى . وفي العصر النووي ، لا مفر من أن يكون هدفنا هو السلام . لكن السلام الكامل - أي وجود عالم بغير منازعات - هو مجرد وهم . مثل هذا السلام لم يوجد في يوم من الأيام ، ولن يوجد في يوم من الأيام . **وليس السلام الحقيقي (الواقعي) هو انتهاء المنازعات ، بل هو وسيلة للعيش معها .** (كتاب نصر بلا حرب - ص ٣٩)

* * * * * *

* إن الثوريين الشيوعيين والإسلاميين أعداء أيديولوجيون يتبنون هدفاً مشتركا : الرغبة في الحصول على السلطة بأي وسيلة ضرورية ، بغية فرض سيطرة دكتاتورية تقوم على مثلهم التي لا تحتمل . ولن يحقق أي من الثورتين حياة أفضل للشعوب في العالم الثالث . بل سيجعلون الأمور أسوأ . لكن إحداهما أو الأخرى **ستسود ما لم يضع الغرب سياسة موحدة لمواجهة الأبعاد الاقتصادية والروحية على حد سواء ، للصراع الدائر الآن في العالم الثالث .**

(كتاب : نصر بلا حرب - ص ٣٠٧-٣٠٨)

* * * * * *

* إن رياح التغير في العالم الثالث تكتسب قوة العاصفة . ونحن لا نستطيع إيقافها ، **لكننا نستطيع أن نساعد في تغيير اتجاهها** .

(كتاب : نصر بلا حرب ـ ص ٣٠٨)

* * * * * *

* **الأصوليون الإسلاميون** : الذين يحركهم حقدهم الشديد للغرب ، وهم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي ، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وينادون بأن الإسلام دين ودولة .

(كتاب : الفرصة الأخيرة ـ ص ١٤٠)

* * * * * *

* **الرجعيون** : هم الدكتاتوريون الذين يؤمنون بالحزب الواحد ، ويسبغون الشرعية على تصرفاتهم من خلال الأيديولوجية القومية المتعصبة .

(كتاب : الفرصة الأخيرة ـ ص ١٤٠)

* * * * * *

* **التقدميون** : هذه المجموعة نشاطها محسوس ، ولكن قَلَّ أن تشعر بوجودها ، وهي تسعى إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضّر من الناحية السياسية والاقتصادية .

(كتاب : الفرصة الأخيرة ـ ص ١٤٠)

* * * * * *

* يجب علينا أن نعاون التقدميين في العالم العربي ، ففي ذلك مصلحتهم ومصلحتنا ، **فهم محتاجون لأن يعطوا أنصارهم بديلا لأيديولوجية الأصوليين المتطرفين** ، وانغلاق الرجعيين . ويمثل رفض الأسرة الملكية الحاكمة في الكويت اتخاذ إصلاحات ديمقراطية فيها بعد تحرير بلدهم من احتلال صدام حسين ،

مثلاً صارخاً لتَبَلُّد الحكام غير المنتخبين في العالم الإسلامي . وعلينا أن نُبيِّن للعالم أننا عندما نساند بلداً صديقاً فهذا لا يعني أننا نساند حكومة غير ديمقراطية . (كتاب : الفرصة الأخيرة ـ ص ١٤١)

* * * * * *

* للولايات المتحدة أيضاً مصلحة كبرى في المحافظة على وجود إسرائيل وأمنها ، فنحن وإسرائيل ليسا حليفين طبيعيين عاديين ، بل إن لدينا التزاماً أخلاقياً معها هو أسمى من أية اتفاقية أمنية . فقد أوضحت باقتضاب في اجتماع لزعماء الكونغرس في مطلع حرب يوم التكفير عام ١٩٧٣م : " **ليس لأي رئيس أمريكي أن يتركها في الوحل** " . إن إسرائيل ملاذ ملايين العوائل التي قاست أهوال المحارق الجماعية الشنيعة . وهي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط ، وأحاطت بها من يوم مولدها بلدان صممت على تدميرها . أما عمق التزامنا بها فيتجلى في حقيقة تقديم أمريكا لإسرائيل منذ اعترافنا بها قبل خمس وأربعين سنة ٤٠ مليار دولار على شكل مساعدات اقتصادية وعسكرية ، أي أكثر من ضعف ما أنفقناه على خطة مارشال . ثم جاءت حقيقة اعتراف الحكومات العربية أخيراً بوجود إسرائيل يجسد دليلا على الاعتراف العربي **بأن التزامنا ببقاء إسرائيل ركن أساسي في سياستنا الخارجية لن يتغير حتى يلج البعير في سمِّ الخياط** . (كتاب : ما وراء السلام ـ ص ١٤٨)

* * * * * *

التمهيـــد

لم تظهر العولمة فجأة في واقعنا المعاصر ، ولكنها كانت نتيجة طبيعية لأحداث ومراحل سابقة . لقد عرفت أوروبا في تاريخها امتداد الفكر اليوناني الوثني إلى الإمبراطورية الرومانية ، ثمّ إلى أوروبا . كما عرف اصطدام النصرانية الوافدة إلى أوربا بالوثنية اليونانية سنين طويلة . فتأثرت النصرانية بهذا الاصطدام ، وبالمساومات التي دارت مع بعض الأباطرة مثل " قسطنطين " ، فتنازلت النصرانية عن بعض أسس رسالة عيسى عليه السلام ، وتبنَّت فكرة " الثالوث " مؤتمر " نيقية " في آسيا الصغرى سنة ٣٢٥م ، وقُضيَ على معارضي هذا الاتجاه "الآريوسيين " نسبة إلى الكاهن الاسكندري آريوس (ت : ٣٢٦م)، واستقرَّت الأمور على هذا الانحراف في مؤتمر قونية حتى في طقوسها التي أخذت تتبناها ليس فيها شيء مما دعا إليه عيسى عليه السلام .(١)

وأخطر ما أصاب النصرانية من خلال ذلك انحرافها عن التوحيد الخالص الذي دعا إليه نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وجميع الأنبياء والرسل الذين خُتموا بمحمّد ﷺ . بعثهم الله جميعاً بدين واحد هو الإسلام ، دين التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك . وقامت الكنيسة الكاثوليكية على هذا الانحراف . فاصطدمت مع العلماء الذين أخذوا يدرسون بعض قوانين الحياة ، فكذبتهم الكنيسة وحرقت منهم من حُرق . واصطدمت مع السلطة الزمنية ، الملوك في أوروبا ، فهز هذا الاصطدام واقعَ الكنيسة الكاثوليكية، وظهرت فلسفات مناهضة للدين وللإيمان والتوحيد ، تمثّل ردَّة فعل لمواقف الكنيسة ، وانتهت هذه الفلسفات كلها بظهور : " **العلمانية ـ Secularism** أو : " **العلْمانية ـ Scientism** " ، وهما شيء واحد ، ينفي دور الدين والإيمان والتوحيد في الحياة . فالأولى يمكن تسميتها باللادينية أو الدنيوية ، والثانية هي اعتبار ما يصل إليه الإنسان من علم

(١) يراجع كتاب : «المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية «للمؤلف ، ص : (١٨-٢٥) .

بتجاربه هو وحده الحق . شِرْكٌ كبير ، وخروج واضح عن الإيمان والتوحيد . وحدث من خلال هذه التطوَرات أن ظهرت الثورة الصناعية في أوروبا ، الثورة التي نشأت عنها " **الرأسمالية** " وما تحمل من تصورات فكرية نابعة كلها من العلمانية ، وأخذت الرأسمالية تستقرُّ بنفوذها الاقتصادي الكبير ، وطغيانها في أهوائها وطمعها وعدوانها الممتدُّ في الأرض ، تنهب ثروات الأمم والشعوب ، وتنشر الفجور والانحلال ، والتحلل من الدين واسمه .

وأصبحت الرأسمالية بحاجة إلى نظام إداري وسياسي وفكري يحمي مصالحها ، ويُسكت الشعوب عن مفاسدها ، **فكانت الديمقراطية** النابعة من جذورها الوثنية اليونانية .

فأصبحت **العلمانية والرأسمالية والديمقراطية** تعمل معاً في مختلف الميادين: الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، وهي تحمل قوة طاغية تمتدُّ وتنمو في الأرض بنفوذها وسلطانها . ومن هذا الثالوث نَبَعَتْ " العولمة " فكرة شيطانية تهدف إلى السيطرة على العالم باقتصادها وفكرها وسلطانها .

وتناوب على قيادة مسيرة الظلم والفساد والفتنة في الأرض ، عدة دول ، أولها فرنسا ، ثم انكلترا ، ثمَّ تفرَّدت أمريكا بذلك ، وكان مع كل واحدة من هذه الدول الثلاث دول أخرى مساندة ، تدفع المسيرة على هذا الاتجاه من العدوان والظلم ، ويلتقون كلهم على أطماع ومصالح مادية ، ويختلفون عليها ، ويساوم بعضهم بعضاً ، ما بين خلاف وصراع ، أو اتفاق وتفاهم . وقد يدفع الصراع إلى حروب جنونية تدفع الشعوب ثُمنَها بملايين القتلى والضحايا والتدمير والأمراض .

إلا أنهم جميعاً ، وجدوا أن الذي يقف أمام أطماعهم ويصدّهم عن العدوان والفساد هو الإسلام كما أُنْزِلَ على محمد ﷺ ، ديناً لا يقبل إلا الحق والعدل ، على ميزان رباني ثابت ، جليٍّ واضح . ولكن هؤلاء المجرمين لا يريدون الحق والعدل إلا شعاراً يزخرفونه خالياً من المعنى والفحوى ، يخفي في داخله أشدَّ أنواع الظلم والعدوان ، والفساد والفتن في الأرض .

هذه هي المعركة الحقيقية الدائرة اليوم في الأرض ، ضعف المسلمون فيها بعد أن ملَّكهم الله القوة والسلطان ومكَّن لهم ، ثمَّ أخذوا يتراجعون تحت ضربات المجرمين في الأرض ، الغزو الفكري ، والانحلال الخلقي ، وزخرف الدنيا والصدِّ عن الآخرة .

والمسلمون اليوم في هوان وضعف ، والخطر يتهدَّدهم جميعاً إن لم يستيقظوا ويفيئوا إلى الله منيبين إليه صادقين . إنه خطر زاحف حقيقي ، الملايين من المسلمين لا يُحسون به بسبب التخدير الذي أصابهم ، التخدير الذي سببته العلمانية والرأسمالية والديمقراطية بنشر جميع أنواع الفجور والانحلال !

المقــدمــة

لقد برزت **العولمة** مع السنوات الأخيرة وقد خرجت من **مصانع العلمانية والرأسمالية والديمقراطية** لتفسد في الأرض ، أو لتطوّر أساليب الفساد والجريمة كما أتى بها هذا الثالوث .

امتلأت الصحف بالحديث عن العولمة ، وصدرت مؤلفات كثيرة عنها لكُتّاب مسلمين وأجانب ، فأضاءوا جوانب كثيرة من جوانب العولمة .

لا بدَّ أن نستفيد من جهود هؤلاء لنصل إلى تصور شامل ينبع من منهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ ، ولنحمل مفهوماً عادلاً أميناً عنها ، ندرك من خلاله حقيقة واقع المسلمين اليوم ، ولنرى هل هم اليوم في عافية وخير ونجاة ، أم أنهم في خطر ؟! هذه هي **القضية الأولى** .

والقضية الثانية : ما هو المخرج وسبيل النجاة إن كنا في خطر حقيقي ؟! ولقد استعنت بعدد من الكتب والمؤلفات لما فيها من أحداث موثقة وأرقام حقيقية .

وكان من بين ما رجعت إليه كتاب : " **فخ العولمة ـ الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية** " ، لمؤلفيه : هانس ـ بيتر مارتين ، هارالد شومان . وكذلك رجعتُ إلى كتاب : " **السيارة لكساس وشجرة الزيتون ـ محاولة لفهم العولمة** " تأليف توماس فريدمان . وكتب أخرى نجدها خلال البحث وفي قائمة المراجع .

وفي جميع المصادر التي رجعتُ إليها وجدت معلومات مفيدة ، ولكنَّ هذين الكتابين يَضُمَّان حشداً كبيراً من الأحداث والوقائع التي تساعد على فهم العولمة وردِّها إلى منهاج الله .

ومن استعراض هذين الكتابين وغيرهما نتساءل أين هي الديمقراطية التي اعتُدي عليها حسب قول مؤلفَي " **فخ العولمة** " ، وأين هي الرفاهية التي اعتدي

عليها كذلك . إلا أننا نجد دائماً أن الديمقراطية هي المعتدية والرفاهية كذلك هي الظالمة المعتدية .

هنالك صورة واضحة في التاريخ البشري : طبقة غنية مترفة بيدها القوة ، لا تشبع ولا تقنع ، ظالمة مجرمة ، وطبقة فقيرة مسحوقة .

ونجد من الصور والأحداث التي يعرضها الكتابان صوراً مؤلمة من الظلم في الأرض وأحداثاً مخجلة من الإنسان الظالم ، ومواقف محزنة ، كلها تنبع من حقيقة واحدة هي إيثار المصالح المادية الدنيوية والتنافس عليها والصراع بسببها . ونرى كذلك امتداد هذا الظلم والفساد على مساحة الأرض كلها . ويفضح الكتابان المراكز المالية ودورها في الاستغلال والظلم والتدمير ، وما ينتج عن ذلك من زيادة البطالة ونموّها المطرد مع العولمة ، والسعي لتخفيض كلفة الإنتاج ، وزيادة الأرباح ، والتهرّب من الضرائب واختلاس الأموال .

لقد نجح المؤلفان في عرض كثير من مآسي العولمة في حياة الإنسان ، سببها له أخوه الإنسان . ولكن لم أشعر أنهما قدما حلاً سليماً أو مخرجاً أميناً ، أو منهجاً ينقذ البشرية من خطر زاحف محقّق !

ولن تجد البشرية حلاً ولا مخرجاً للنجاة إلا بالعودة إلى الإيمان الصادق والتوحيد الحق ، وإلى منهاج الله دراسة وتدبراً وممارسة في الواقع البشري ، والتزام الإسلام التزاماً لا يجعله مجرد شعار يختفي خلفه كثير من المنافقين والمفسدين والمجرمين .

إلا أننا لا بدَّ أن نعترف من البداية أن هذه القوى الأربع : **الرأسمالية والعلمانية ، والديمقراطية ، والعولمة** ، المترابطة فيما بينها تاريخاً وفكرا وممارسةً ، تركت آثاراً واضحة في واقع العالم الإسلامي . ولذلك سيكون الفصل الأول من الباب الأول : " العلمانية والمسلمون في الغرب " ، لنرى صورة مؤلمة من انهيار بعض المسلمين أمام العلمانية حتى أصبحوا ينادون بها بدلاً من الإسلام،

وهناك من أخذ ينادي بالديمقراطية أو العولمة أو النظام الرأسمالي ، تاركين الإسلام للشعائر فحسب ، وبعد ذلك أصبح المسلمون أنفسهم يقعون ضحيَّة هذا التنازل بمزيد من الانهيار والهوان عقاباً من الله .

ويتألف كتابنا هذا من سبعة أبواب بفصولها كما هو مبين في فهرس الكتاب.

نسأل الله العفو والعافية والمغفرة والتثبيت على الحق

والحمد لله رب العالمين

عدنان علي رضا بن محمد النحوي

الرياض ١٤٢٧/٨/٥هـ
الموافق ٢٠٠٦/٨/٢٩م

الباب الأول

بين العلمانية والعولمة

الفصل الأول : العلمانية والمسلمون في الغرب

الفصل الثاني : وقفة قصيرة مع العولمة

الفصل الأول
العلمانيَّة والمسلمون في الغرب

لقد دأب اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا على عقد مؤتمر سنوي تُعرض فيه بعض قضايا المسلمين هناك . ولقد حضرتُ مؤتمرين من هذه المؤتمرات كانت العلمانية محور المؤتمرين وكذلك حقوق الإنسان في النظرة الغربية . وبالإضافة إلى المحاضرات والحوارات كان هنالك حوار جانبي حول نفس الموضوعات . وبرز من خلال المحاضرات والحوار أن هنالك رغبة في تزيين العلمانية وتقريبها من الإسلام ، وكانت وجهات النظر مختلفة ، وموقف الجمهور المشترك مختلفاً .

ولقد أبديتُ رأيي في هذا الموضوع في كلٍّ من المؤتمرين ، وبيّنتُ أنَّ المسلم يمكن إذا اضطرَّ أن يعيش في أي مجتمع ما دام محافظاً على دينه ، حامياً نفسه من الفتنة ، **أن يتقدّم إلى الناس على أساس أنه داعية إلى الله ورسوله ، يبلِّغ رسالة الله إلى الناس كافّةً كما أنزلت على محمد ﷺ** ، يدعو الناس إلى الإيمان والتوحيد ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، من عبادة الأوثان والأهواء إلى عبادة الله الذي لا إله إلا هو . وبيّنتُ أن هنالك فرقاً بين موقف الفرد وموقف الجماعة والأمة . فإذا تنازل الفرد عن شيء من الإسلام كان الضرر أخف من تنازل الدعاة أو الجماعات ، وكلُّ تنازل مرفوض من حيث الأساس ، إلا ما رخَّص به الإسلام في مواقف خاصة محدَّدة أدق التحديد .

وللإقامة في مجتمع غير مسلم شروط واضحة في الإسلام ، والانتماء إلى الإسلام له معنى محدّد . وقد أبدى المحاضرون آراءهم ، وأبديتُ رأيي في محاضرتي كذلك ، ثمَّ في رسالة نصح وتقويم بعد انتهاء المؤتمر . ثمَّ فصلت ذلك في كتابين : " **التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام** " ، و " **المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية** " ، حتى أُقدِّمَ النصيحة الخالصة لوجه الله . قائمة على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ، وعلى

وعي دقيق للمجتمع الغربي الذي أقمتُ فيه وزرته كثيراً ، والذي درستُ فكره وفلسفته وبعض آدابه ولغاته ، والذي كتبت عنه في أكثر من كتاب . ولكن بعض الإخوة عادوا وكتبوا في مجلة " المجتمع " يزينون العلمانيَّة ويدافعون عنها في العدد (١٢٨٤) ١٥ رمضان ١٤١٨هـ / ١٣/ ١/ ١٩٩٨م السنة (٢٨) . ولقد رددتُ عليهم في المجلة نفسها في أعداد تالية .

لذلك أرى من مصلحة الدعوة الإسلامية ومن ضرورات ديننا العظيم أن لا تمرَّ الأفكار التي عُرضت في عدد مجلة المجتمع المذكور دون مناقشتها وإبداء وجهة نظر أخرى حَول قضية خطيرة مثل هذه .

يقول أخي الكريم في كلمته في " المجتمع " : " ...... وذلك عبر الاجتهاد في النصوص والمصادر الإسلامية من طرف أئمة متخصصين يجمعون بين الإلمام بأصول الإسلام وأحكامه ومعرفة الواقع بدقة .... " !

لقد احتج الأخ الكريم بهذه الحجة عندما اختلفنا في الرأي ، وكذلك احتج أخ آخر معه بنفس الحجة . فسألت عن هؤلاء الأئمة فسمّى اثنين . وكان أحدهما في الرياض ، فعرضنا عليه الأمر أمام آخرين ، وعرضنا النصوص التي وردت في المحاضرات مما ذكر منها طرف بسيط غير مكتمل فيما نشر في مجلة المجتمع . فأنكر ذلك العالم أن يكون قد أفتى بمثل ذاك أو أفتى بهذا الاتجاه الذي يزيّن العلمانية ويخفي شرورها ومساوئها . والتقينا مرة أخرى بحضور عدد من الأخوة في الرياض من أصحاب الخبرة في العمل الإسلامي وممن أقام بالغرب ودرس فيه ، فما اتفق أحد على ما طرحه الأخ الكريم ومن كان معه . ولكنّ الشيخ الآخر الذي لم يكن موجوداً في الرياض ، سبق أن عُرِفَ اتجاهه القريب من العلمانية بما أصدر من فتاوى كثيرة ردّ عليها الكثيرون .

ولم يكن الخلاف حول إمكانيَّة التعايش . ولكن الخلاف كان حول النصوص التي وردت في المحاضرات من هؤلاء وهؤلاء حتى أصبح المؤتمر الإسلامي دعوة واضحة إلى العلمانية أكثر مما هو دراسة لقضية ، وبعيداً من أن يكون مؤتمراً إسلامياً .

يقول الأخ الكريم : فيما نشرته مجلة " المجتمع " : " .... فالاندماج هو بالمعنى الإيجابي وليس الذوبان ... " . وهذا النص غامض مبهم غير محدد . ولكن الأخ الكريم كان قد حدَّد في إحدى محاضراته في مؤتمر سابق الاندماج الذي يدعو له بالنص التالي :

" .... وأعتبرُ أنَّ الهيئة التمثيلية لا يمكن إلا أن تعمل من أجل إسلام منفتح ومنسجم مع المجتمع ، وفيٍّ لمصادره الأولى ، **ومندمج مع النسيج الثقافي والديني الفرنسي !** " إنَّ هذا النص يوحي بأنَّ الاندماج هو أكثر من الذوبان ، ولكنه دخول في النسيج ، وأي نسيجٍ ؟! النسيج الثقافي والديني الفرنسي !! وإن هذا النص متناقض كلَّ التناقض مع النصِّ الأول منه : " **وفيٍّ لمصادره الأولى** " . إنَّ المصادر الأولى للإسلام هي الكتاب والسنَّة ، والكتاب والسنَّة لا يلتقيان بأيِّ حال مع النسيج الثقافي ولا النسيج الديني الفرنسي .

فالمصادر الأولى تقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٥ – ٧]

هذا ما تقوله المصادر الأولى عن ذلك النسيج . ومن أجل التعامل يبيّن لنا الله سبحانه وتعالى القاعدة الأولى التي يجب أن ينطلق منها الداعية الذي اكتسب لقب الداعية حين نذر نفسه للدعوة إلى الله ورسوله . فلنستمع إلى آيات الله :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤ ﴾

[آل عمران: ٦٤]

وكذلك تقول " المصادر الأولى " :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٧١ ﴾

[آل عمران: ٧١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥]

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥]

وتتوالى الآيات الكريمة لتبين موقف الإسلام من هذه الاتجاهات كلها . فكيف يلتقي هذا التوجيه الرباني مع " الاندماج مع النسيج الفرنسي الثقافي والديني " ! إنها مغالطة كبيرة .

ولكن الواقع الذي رأيناه يوحي بشيء من هذا " الاندماج " ، أو يوحي بالاتجاه إلى هذا الاندماج . فاللغة العربية كانت شبه معدومة في جميع ما ينشر من جدول أعمال وخلافه ، وفي الجلسات الخاصَّة بين بعض الدعاة العرب المسلمين كانت تسود اللغة الفرنسية ، وفي القرارات في نهاية المؤتمر كذلك كانت اللغة العربية نسياً منسياً إلا بين من لا يعرفون الفرنسية .

والاتجاه إلى الاندماج مع النسيج الثقافي والديني كان أوضح في بعض المحاضرات التي أُلقيت من بعض الدعاة العرب المسلمين . يقول أحدهم في محاضرته : " ... **فقد أكَّد على عدم تناقض العَلْمانية مع مقاصد الشريعة الإسلامية .... !** " كيف كان هذا التأكيد ومن مقاصد الشريعة الإسلامية أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يحكم الإسلام في كلِّ نواحي الحياة ، وأن يجفِّف منابع الكفر والشرك والوثنية واللادينية من الأرض ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالقتال إذا لزم الأمر وبالغلظة ، وبوسائل متعددة تكفي لجميع الظروف والأحوال. فهل هذه المقاصد هي مقاصد العلمانية ، أو هل تلتقي معها ولا تتناقض؟!

العلمانية ترجمة لكلمة " Secularism والعلمانية حين تدّعي أنها حياديَّة بالنسبة للأديان ، فإنها في الموقف العمليّ لم تكن حياديّة أبداً . فهي التي تموّل الحركات التنصيرية والتهويدية وتضيّق الخناق على المسلمين في شتى أنحاء الأرض . وسجلُّها في ذلك حافل بالمآسي مع المسلمين والدعم الممتد للحركات الأخرى .

ويبدو أنَّ اتجاه الدفاع عن العلمانية قد امتدَّ ، حتى قال أحدهم في محاضرته ، ليسوّغ عدم التعارض بين الإسلام والعلمانيّة : " ..... والإسلام يمنع الخمر ولكن قوانين فرنسا لا تفرضه ، وتعدّد الزوجات تمنعه قوانين فرنسا ولكن الإسلام لم يفرضه ... " ، ثمَّ استنتج من ذلك توافق الإسلام مع القوانين الفرنسية العلمانية في مغالطة مكشوفة جداً ، حيث لا يفرّق بين الحلال والحرام ، وبين ما أباحه الله وما حرّمه ، وغاب عنه أنه لا يُقبل من أحد أن يحرم ما أحلَّ الله ، ويحلَّ ما حرّم الله .

ومن العجيب أن تُنْشر هذه المحاضرات وهذه النصوص وتوزع على عدد غير قليل . وأعجب بعد ذلك كيف أنَّ الأخ الكريم قال في ما نشرته المجلة : " والعلمانية مبدأ يحمي المسلمين ويعطيهم حقوقهم فلا داعي للثورة على هذا المبدأ ... " ! فأين المسلمون الذين حمتهم العلمانية : فهل هم الذين شرّدتهم العلمانية من فلسطين أو ساهمت في تشريدهم ، أم هم المسلمون الذين فتنتهم العَلمانية عن دينهم فسقطوا في وحولها ، أم الذين ذبحتهم العلمانية في مختلف ديار المسلمين على مدى تاريخ طويل ؟! وأيُّ حقوق أعطت العلمانية للمسلمين ؟! العلمانية كانت مصدر فتنة واسعة للمسلمين في الغرب وفي العالم الإسلامي ! لعلّها أعطت الجنسية وجواز السفر لبعضهم أن بعد أن فتنتهم عن دينهم !

ولقد ذكرت الكلمة بعض أقوال الفرنسيين بصورة موجزة . فلنسمع على ما قالته الباحثة الفرنسية " جوسلين سيزاري " في محاضرة لها في احد هذين المؤتمرين :

" .... يصبح المرء فرنسيّاً حين يصبح مواطناً فرنسياً وحين يقبل بقوانين معيّنة في المجتمع . والقاعدة الأساسية هي عدم إبراز خصوصياته حتى الدينية على ساحة المجتمع ، ولا يمكن أن يكون المرء مواطناً إلا إذا صار مشابهاً للآخرين . كلّ المشروع السياسيّ الفرنسي أُسِّسَ على هذه النظرة وعلى هذا التصور . وهذا التصور لا يصلح ويزعج المسلمين ، بل إن هناك أقليات كثيرة لها خصائصها ترفض أن تعتبر مشابهة للآخرين " .

إنَّ هذه الباحثة الفرنسية تدرك أن العلمانية وقوانين فرنسا لا تصلح للمسلمين . وتكشف لنا وجود أقليات ترفض أن تكون مشابهة للآخرين . فما بال أخي الكريم ، المسلم الداعية ، يُصرُّ في أكثر من كلمة وموقف على ضرورة الاندماج في النسيج الثقافي والديني الفرنسي ، وأن العلمانية تحمي المسلمين وتعطيهم حقوقهم ؟!

عندما نخفي بعض حقائق الإسلام نخسر أمرين عظيمين : نخسر رضا الله، ونخسر احترام الآخرين الذين يرضون تنازلنا فهم يعرفون الإسلام ، ولديهم باحثون يتحرّون الدقائق ليضعوا خططهم لاستدراج المسلمين وفتنتهم ، أو للعدوان عليهم .

إنَّ الإسلام يعلمنا كيف نعيش في كل مجتمع مسلم وغير مسلم على أساس الانتماء الصادق إلى الإسلام . وإن الإقامة في مجتمع غير مسلم لا تعني مصارعة المجتمع والدخول معه في عراك وصراع قد لا يقوى عليه المسلم ، ولكن لا يحلّ في الوقت نفسه الدخول في مجاملات على حساب الإسلام من أجل عَرَض من عروض الدنيا ، ولا يحلّ التنازل عن شيء من الإسلام ، ولا يحلُّ ادعاء تقارب العلمانية والإسلام . ولكن ما دامت العلمانية تدَّعي أنها تعطي حريَّة للأديان كلها ، فلنطالب بحقّنا في هذا القانون دون أن نصبح مدافعين عن باطل العَلمانية ، ودون أن نزيّنها للناس فيفتنوا .

إنَّ الإسلام أمرنا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . وجاء حديث رسول الله ﷺ : (**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**).[1] فماذا يكون تزيين المنكر والاحتماء به والدعوة إلى عدم إنكاره ؟!

العَلْمانية مبدأ معروف محدَّد لا مجال لتزيينه . إنه منكر في ميزان الإسلام وباطل تنكره النصوص الحاسمة ، فلا مجال للاجتهاد والفتوى فيها .

وإني أقدِّم هذه الكلمة الموجزة نصحاً خالصاً لله ، من قلب يحب الإخوة الكرام ويحرص على خيرهم في الدنيا والآخرة . وأرجو أن نكون كلنا يداً واحدة وقلباً واحداً لإعلاء كلمة الله في الأرض ، لا نتنازل ولا نساوم على حق ، على درب ممتد إلى الجنَّة . ويوم نقف بين يدي الله لا ينفع أحد أحداً ، ولا تفيد فتوى بغير ما أنزل الله :

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الدخان: ٤١]

إنَّ الدرب إلى الجنَّة يتطلب الجد والعزيمة والصبر ، وإنَّ رحمة الله واسعة ونصره قريب :

(من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل . إلا إنَّ سلعة الله غالية . إلا أنَّ سلعة الله الجنة .)[2]

ولأهمية الموضوع وخطورته ، ولأنَّ وجهة نظر الأخوة قد أُعلنتْ ونُشرَتْ، فأرى أنه من الضروري نشر وجهة نظر أخرى ، حرصاً على هذا الدين العظيم ، وعلى تقديم وجهة النظر الأخرى على نفس المستوى ، ليجد المسلم ما يعينه على تحرّي الحق الذي يرضي الله سبحانه وتعالى .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ط : ٣ ، حديث رقم : «٦٢٥٠» .

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه : ٣٨/ ١٨/ ٢٤٥٠ ، وقال عنه حسن صحيح .

الفصل الثانـي
وقفـة قصـيرة مـع العولمـة

إن ما كتب عن العولمة من كتب وصحف ومجلات ومختلف وسائل الإعلام ، هو أشبه ما يكون بالطوفان الذي يكاد يُغرق العالم . وهو الإعلام الطوفاني أو الطوفان الإعلامي ، وهو بيد الطبقات المجرمة في العالم ، الطبقات التي تملك القسم الأعظم من ثروة البلد الواحد ، وبمجموعها تمتلك القسم الأعظم من ثروات العالم ، تاركة الملايين من البشر في عالم البؤس والفاقة والمرض . وهذه الطبقات المجرمة في العالم تمسك بالأمور بأسلوبين : أسلوب القوّة والبطش والإبادة تغلّفه شعارات الحرّية والديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة والأمومة وغير ذلك ، مما جرّدوه عملياً من أي معنى في الواقع . وأسلوب الخيوط الحريريّة الناعمة التي تنسلُّ إلى واقع المجتمعات لتفسد الناس وتخدّرهم ، وتلقيهم في لهيب الشهوات ، وخاصة شهوات الجنس . نعم ! إنهم يخدّرون الشعوب ، ولكنهم في الوقت نفسه يخدّرون أنفسهم ، ليغيبوا هم في حمأة الفتنة والشهوات ، في خدر قاتل أنساهم حقيقة الحياة الدنيا وحقيقة الموت ، وحقيقة ما بعد الموت ، وبذلك زاد فسادهم في الأرض وزاد إجرامهم .

لحكمة يريدها الله ، بدأت الفتنة الحديثة ـ فتنة العولمة ـ في الغرب ومن الغرب ، مع البدايات الأولى للنظام الرأسمالي والثورة الصناعية بين سنتي ١٧٥٠م ـ ١٨٥٠م . وبعد البدايات زادت سرعة الإجرام ، وامتلأ العالم بالحروب التي راح ضحيتها الملايين من البشر ، وما زالت السرعة متزايدة مع نمو التقنية في مختلف مجالات الحياة . ولقد بلغ عدد الحروب في القرن العشرين وحده في مختلف أنحاء العالم بحدود (١٣٠) حرباً ، وزاد عدد الضحايا عن (١٢٠) مليون نسمة .

ولقد تفجّر من نمو النظام الرأسمالي قضايا كثيرة ومذاهب كثيرة في نواحٍ مختلفة من حياة الناس . فلقد صاغت هذه المذاهب العلوم والفكر صياغاتٍ مختلفة، كردود فعل لظلم الرأسمالية ، أو كمجاراة لظلمها . فظهرت الشيوعية ،

ونمت الطبقات المستَغلَّة والطبقات المستغَلَّة، وظهر تفلّتُ الحرية الفردية، وإنزال المرأة إلى المصانع والدوائر والشوارع لتُستَغَلَّ أبشع استغلال، فتَنْتَشر الخمور والمخدرات، والجنس والفجور، وليُعزَل الدين في الكنائس إلا حين تحتاجه الطبقة الرأسمالية ليطلقوه مع حركات التنصير، لتصبح هذه الحركات والشركات التجارية من وسائل التمهيد للعدوان والظلم من هذه الدول المعتدية، ولتنهب ثروات الشعوب، في جشع لا يشبع، وطمع لا يقنع. فطغى التصوّر الماديّ للحياة وامتد إلى فلسفات كثيرة كالاشتراكية والشيوعية، ثم العلمانية، والديمقراطية، والفلسفة المثالية التي دعا إليها " هيجل "، والتي تحدّثنا عنها في كتب سابقة.

فإن كان القرن الثامن عشر الذي يسمونه ظلماً " عصر التنوير "، وهو عصر الظلمات، فقد جعل العقل البشريّ والمثاليّة إلهاً يُعبد من دون الله، فإن القرن التاسع عشر جعل العلم الوضعيّ إلهه الجديد، وجعلوا الطبيعة والواقع إلهاً آخر. فظهر من رجال هذه الظلمات ودعاتها: كارل ماركس وفردريك إنجلز ولينين يدعون إلى المادية التاريخية والمادية الجدلية، وتدوران حَول التصوُّر المادي للحياة. وظهر "هربرت سبتسر" ليعلن إيمانه بالتقدم على **أساس العلم والعقل**، وظهر " فرويد " و" إدلز " و " يَنج " في دراساتهم في علم النفس، و" ماركس فيبر "، و " إميل دوركهايم " في علم الاجتماع، و" داروين " ونظرياته في النشوء والارتقاء، ليعلن هؤلاء جميعهم اعتمادهم **العلم البشري والعقل** أساساً للفكر والإيمان والحياة، حياة ماديّة منفصلة عن الإيمان بالله والدار الآخرة والأنبياء والرسل ورسالاتهم.

لقد كان هذا كله نتيجة مراحلٍ سابقة في تاريخ أوروبا: صدام النصْرانية الوافدة مع الوثنية اليونانية، ثم تكوُّن الكنيسة الكاثوليكية لتصطدم مع العلماء ومع السلطة الزمنية، في تاريخ طويل ولَّد النقمة على الكنيسة والدين الذي تدّعيه، الدين الذي لا علاقة له بصفاء دعوة عيسى عليه السلام ورسالته لدين الإسلام، دين جميع الأنبياء والرسل.

وأخذت تتوالد من هذه المذاهب الفكرية ، مذاهب فكرية وفلسفية وأدبية جديدة ، أهمها كان الحداثة بفروعها ومذاهبها المتعددة . وجاءت الحداثة لتؤكد التصورات الدنيوية المعزولة عن الآخرة ، التصورات المادية ، وليكون من أهم ركائزها ترك القديم كله ، باستثناء الأساطير الوثنية اليونانية القديمة .

ومن هذه الفلسفات والمذاهب برزت " العَلمانية : Secularism اللادينية التي ترتبط بالدنيا معزولة عن الآخرة . وأصبحَت فلسفة مقررة في معظم الدول الأوروبية وفي أمريكا .

ولا بد أن نقرر أن هذه المذاهب والفلسفات كان منطلقها الأول هو الوثنية اليونانية التي انتقلت إلى روما ، ومنها إلى أوروبا كلها ، بأساطيرها الوثنية وتصوّراتها المادية الدنيوية ، وما تركته من تمَاثيل حجرية يعتبرونها فنّاً ، تمثل رجالاً عراة ونساء عاريات ! وانتقلت هذه التصورات إلى أوروبا حتى صرت ترى التماثيل تقام في مختلف بلدان أوروبا ، عريٌ وفتنة وفساد يسمونه فنّاً . نعم ! إنه أفسد حياة الإنسان ، ومهّد لظهور القوى الإجرامية التي لا تفكر إلا بالمادة والدنيا والمصالح الدنيوية المادية ، لتظل تتفجر منها نظريات وفلسفات ، ولتُخْضِع العلم إلى سلطانها ، وتخضع الأدب والثقافة ، والاقتصاد ، والحياة الاجتماَعية .

إننا نلمس أجواء حياة هذه الطبقة الرأسمالية ، حياة البذخ والإسراف والترف ، في فندق **فيرمونت Fermont Hotel** ، الذي يقع على مرتفعات " **نوب هيل Nob Hill** " تتباهى **كاليفورنيا** بعظمته ، ويشرف هذا الفندق على مناظر خلابة توحي كلها بأجواء الثراء والترف ، كما توحي بذلك صالاته المتعددة .

في هذا الفندق تبرع بعض الأثرياء الأمريكيين بالمال اللازم للاحتفال **بجورباتشوف** وتأسيس معهد باسمه تعبيراً عن شكرهم وتقديرهم لشخصه . ودعا جورباتشوف خمسمائة منً قادة العالم والعلماء ، كأنهم يمثلون هيئة خبراء ، ليبين لهم في هذا اللقاء في هذا الفندق معالم الطريق إلى القرن الحادي والعشرين (١) هؤلاء هم أقطاب العولمة ورؤوس الفتنة وعصابة الإجرام .

---

(١) فخ العولمة : (ص : ٢٢،٢٣) .

وتحدثوا عن مشاريعهم ومصانعهم وإنتاجهم وما يحتاجونه من اليد العاملة . ورأوا أن ٢٠٪ من السكان العاملين ستكفي في القرن القادم للحفاظ على النشاط الاقتصادي الدولي . ويبقى ٨٠٪ عاطلين عن العمل ، فسيواجهون حتماً مشكلات كثيرة ، ويستشهد رئيس مؤسسة " سان " يقول مدير شركته " سكوت مك نيلي : Scoot Mc Nealy " إن المسألة ستكون في المستقبل هي : " إمّا أن تأكل أو تؤكل " ! نعم ! هذا هو منطق الإجرام ، نهب الشعوب وتركها ضحيَّة تعاني الفقر والبؤس ! [١] ولكن هؤلاء يجب أن يُخَدَّروا لتُسدَّ أفواههم . وهنا جاء " زيغنيو بريجنسكي“Zbigniew Brzezinski بمصطلح : " ، وهو بولندي الأصل ومستشار الأمن القومي في رئاسة جيمي كارتر . وهذا المصطلح مؤلف من كلمتين “Tit" وتعني حلمة ، “Entertainment" وتعني تسلية . فالكلمة “Tittytainment" يقصد بها الحليب الذي يفيض من ثدي الأم المرضع ، فبخليط من التسلية المخدِّرة والغذاء الكافي يمكن تهدئة خواطر سكان المعمورة [٢] .

القضية أمامهم تلك الحشود من العاطلين عن العمل ، فيرون أن هؤلاء يمكن أن يقوم الرجال الخيرون بمساعدتهم ، كما يساعد الجار جاره والمؤسسات الرياضية والاجتماعية لأعضائها ، ولكنها على كل حال ليست مسؤولية هؤلاء الكبار الأثرياء الذين جمعوا ثروتهم من النهب والعدوان من ناحية ، ومن عرق المستضعفين وجهدهم .

لقد تكشفت ظاهرة البطالة سنة ١٩٩٦م في ألمانيا حيث كان هنالك ستة ملايين لا يجدون عملاً ، وفي النمسا بلغت نسبة البطالة ٨٪ ضعف ما كانت سنة ١٩٩٤م . أوروبا بدأت تشعر بالحاجة إلى تدابير تقشف ترعبهم ، ورئيس الجمهورية يقول : إن التحوّل أضحى أمراً لا مفرَّ منه ، وعلى كل فرد أن يتحمل قسطاً من التضحية [٣] وأن شيئاً (وهو كبير) من اللامساواة الاجتماعية أمر لا

(١) المرجع السابق : (ص : ٢٦) .
(٢) السابق : (ص : ٢٧) .
(٣) السابق : (ص : ٣٠،٢٩) .

مناص منه وتحركت نقابات العمال لتهدد بالإضراب احتجاجاً على إجراءات التقشف بتخفيض أجور العمال .

وتنتشر نظرية الليبرالية الجديدة ، "Neolbera Lismus" وأساسها أن ما يفرزه السوق فهو صالح وما تدخله الدولة فهو طالح . وهذه النظرية كانَ " ملتون فريدمان " أهم ممثل لها . ومعظم الدول الغربية تبنّت هذه النظرية الاقتصادية . فأصبح عدم تدخل الدولة إلى جانب تحرير التجارة وحرية تنقل رؤوس الأموال ، وخصخصة المشروعات والشركات الحكومية ، أسلحة في يد الحكومات المؤمنة بهذه السياسة ، وبيد المؤسسات والمنظمات الدولية : البنك الدولي ، وصندوق النقد الدولي "IMF" ومنظمة التجارة العالمية "WTO" ، فقد أصبحت هذه المؤسسات الوسائل التي تحارب بها هذه الحكومات من أجل تحرير رأس المال . وأصبحت أنشطة كثيرة وشركات ومصارف تخضع لقانون العرض والطلب . وأدّى انهيار ديكتاتورية البروليتاريا بانهيار الاتحاد السوفياتي إلى بذل جهود لبناء ديكتاتورية السوق العالمية . وانطلقت الرأسمالية كالصاروخ النفّاث في تقدمها واتجاهها إلى انتصار عالمي . وأصبحت أمريكا هي النموذج لهذا الانتصار ، إلا أنه انتصار يحمل بذور انهياره في داخله . فالتدهور واضح وانتشار الجريمة كالوباء ، فما ينفق على السجون يعادل ما ينفق على التعليم ، عُشْر السكان حصنوا مساكنهم بالحراسة ، وأصبح ما ينفق على الحراسة ضعف ما تنفقه الدولة على الشرطة ، تسريح ملايين العمال سنوياً . وفي المنطق الديمقراطي لا يوجد مواطنون زائدون عن الحاجة ، ولكن في منطق الاستغلال والنهب فهناك كثيرون زائدون عن الحاجة . وكذلك أوروبا ، واليابان ، والصين ، والهند ، وغيرها كلها آخذة بالتفتت بين قلّة رابحة وأغلبية مسحوقة خاسرة ، والفجوة بين الطبقتين تزداد اتساعاً ، والفساد في الأرض يزداد انتشاراً . إنها سنة من سنن الله ، ما دامت القوة بيد الطبقة الرأسمالية . ولكن السخط ينمو ويزداد على الطبقة المجرمة ، وظلمهم يتكشف ويظهر . إنها العولمة التي تدفع في هذا الاتجاه ، وتأخذ زخارف

الديمقراطية تتلاشى في بطن العولمة حتى تختفي . والمؤسف أن المجرمين لا يدركون أنهم بذلك يسعون إلى فشلهم ونهايتهم . والخاسرون المستضعفون يشاركون بمنح أصواتهم في الانتخابات لهؤلاء ، ولكن إلى متى يستمر هذا الخداع والغش من ناحية والغفلة من ناحية أخرى . وتزداد الهجرة في كل أرجاء المعمورة هرباً من البؤس والعذاب والشقاء .

إنه مجتمع الخمس الثريّ و مجتمع ٨٠٪ من المسحوقين . وهو مجتمع يظل الاقتصاد والتكنولوجيا تدفع فيه إلى مزيد من العولمة ، ومزيد من احتمال الانفجار ومزيد من التناقضات الاجتماعية .

من المفروض أصلاً أن تكون السياسة والاقتصاد يسيران جنباً إلى جنب . ولكن الواقع يكشف أن الاقتصاد ينال الأولوية ، لأن الاقتصاد يعني جشع المثرين ومصالحهم المادية ، فتتراجع السياسة حتى تُسَخَّرَ للاقتصاد . وإذا لم تتيسَّر الموازنة وضبط الأمور ، فقد تصبح " العولمة " انهياراً عالميّاً لا يَحْمِلُ إلا ذكريات فترة ماضية كانت فيها آمال تتفتّح !

ولقد انتشرت العولمة بألفاظها المختلفة وأشكالها المتلوّنة وتاريخها الممتد منذ زمن طويل .

أقصى منطقة في الأرض منك وصلها من تطورات العولمة الشيء الكثير ، العمارات الشاهقة ، الفلل الفخمة ، الحدائق ، المسابح ، السيارات الفارهة . أكبر الشركات المعمارية تشق ميادين لها في منطقة الأمازون ، القبائل الهندية الحمراء وصلتها الصور المتحركة ، وأغاني الروك ، وعلى سفح جبال همالايا شدّت الصور المتحركة في الأفلام الأمريكية أحلام الشباب وأهواءهم . (٥٠٠) قمر صناعي تبث برامج حداثية في أنحاء العالم . غزت موسيقى الروك الأمريكية أوساط المجتمعات المتدينة فأقبل الشباب المراهقون عليها ، وتفلّتوا من سلطان الخلق القويم .[1]

(١) المصدر السابق ، ص : (٤١-٤٤) .

انتشرت كلمة " العولمة " انتشاراً واسعاً هذه الأيام في الصحف والمجلات وسائر وسائل الإعلام، وفي الكتب والمؤلفات، وفي العالم العربي والإسلامي وخارجهما.

وظنَّ الكثيرون أنَّ " العولمة " شيء جديد على الإنسان لم يعهده من قبل. واختلفت ردود الفعل بين الناس، فمن مقبل ومن مدبر، ومن راض ومن منكر. ومضت " العولمة " في الخطة التي وضعها لها أهلها، غير عابئة كثيراً بالمنكر أو بالراضي، مضت تحاول أن تفرض نفسها في جميع المجتمعات البشرية.

فما هي العولمة وما المقصود منها ؟!

العولمة كلمة مترجمة عن اللغات غير العربية. فليس المجتمع الإسلامي هو الذي صاغ فكرتها ووضع مصطلحاتها. إنها فكرة من الغرب، من هناك انطلقت بمصطلحاتها وخطتها وأهدافها. ثمَّ تُرْجمت في المجتمع العربي. إلى هذا المصطلح " **العولمة** ". ولعل المصطلح الأجنبي الأول لها هو : "**Globalization**"، المأخوذة من كلمة " "Globe" التي تعني الكرة الأرضية.

وقبل هذا انتشر مصطلح آخر هو " **العلمانية** " ترجمة لكلمة "**Secularism**" واختلف الناس أهي بفتح العين أم بكسرها. ورأينا أنه إن صح مبدأ الاشتقاق فهي بفتح العين : " **العَلْمانيَّة** " ترجمة لـ "Secularism " وبكسرها " **العلْمانية** " ترجمة لكلمة "**Scientism**" كلاهما يَصبُّ في موقع واحد ووثنيةَ واحدة. فالأولى تجعل " الحياة الدنيا " الوثن الذي يُعبد أو اللادينية، والثانية تجعل العلم الوثن الذي يعبد من دون الله.

وانتشر مصطلح العلمانيَّة، ولم يختلف الناس على فحواه بقدر ما اختلفوا على اشتقاقه وصياغته. وظهر المدافعون عن العلمانية باسم الإسلام مع وضوح وثنيّتها ووضوح أهلها بما يعلنونه من فكر وموقف. لا يَغُرنَّكَ قولهم إنهم ليسوا ضدَّ الدين أو ضد الإسلام. فهم لا يظهرون العداء والحرب علانية وبشكل سافر

صريح . وإنما يقولون إنّ كل إنسان حر بدينه . ثمَّ يقولون لا تُظْهر دينك علانيةً في المجتمع . ويقولون أحياناً لك أن تقيم الشعائر فقط وتطوي لَسانك وعملك وجهدك لدينك . ثمَّ يطبِّقون هذا بشدَّة وصرامة على المسلم ، ويفلتون الأمر للنصراني ، فهم الذين ينفقون على الحركات التنصيرية في العالم ، ويقدِّمون لها كل التسهيلات العلنيَّة والخفيَّة . ويجعلونها جزءاً من نشاطهم العدواني الإجرامي ، وجزءاً من نشاط الشركات التجارية التي تساهم في العدوان والظلم والإفساد .

انتشرت العلمانية وصار لها جنودُها وأتباعها والمدافعون عنها باسم الإسلام وتحت شعاراته وراياته . وقبلها انتشرت الديمقراطية ، وقبل ذلك الاشتراكية ، وكذلك الحداثة والبنيوية والتفكيكية والأسلوبية . وكلما ظهر شيء جديد هرع إليه بعض المسلمين ليلبسوه حُلَّة من الإسلام ، ثمَّ يدعون إليه بدلاً من الإسلام !

وفي العالم العربي ، كنا نتَّبع كل مصطلح جديد وافد من الغرب ، حتى حين يتركه الغرب نظل نحن أوفياء للتبعيَّة والاستجداء .

والغريب في الأمر أنَّ الداعية المسلم الذي اكتسب سمعته ودعايته ومركزه على أساس الدعوة الإسلامية وتبليغها للناس ، ترى بعضهم يضعون الإسلام ودعوته جانباً في كثير من المواقف ، ويبحُّون حناجرهم بالدعوة إلى الديمقراطية أو الاشتراكيَّة أو العلمانية أو الحداثة وغيرها . حتى قلتُ لأحدهم : " **الديمقراطية لها دُعاتها ودولها وأموالها فاتْركها لهم يدعون إليها ، وتفرَّغ أنت لما عاهدت الله عليه وعاهدت الناس ، وما ينتظره الناس منك وما هم بحاجة إليه من الإسلام** " . وبعض هؤلاء قد لا يعلن دفاعه عن المصطلح العلماني ، ولكنه يطويه ويدعو إلى مبادئه.

هذه حالة ، والحالة الأخرى أنَّ بعض المسلمين يحملون الأفكار العلمانية ، ويجهدون أنفسهم ليؤوِّلوا الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تأويلاً فاسداً ، ليسوّغوا الباطل العلماني . وربما يصيبون قدراً من النجاح بما لهم من سمعة أو مركز ، وبما ينتشر بين كثير من المسلمين من جهل .

هذه المصطلحات كلها كانت ممهّدة لمصطلح " **العولمة** " ، بما تنشر من فلسفة وأفكار ، أو بما تفرضه فرضاً ، وكأنَّما الأمور تمضي على خُطَّة يضعها شياطين الإنس والجن ، أو أنها ابتلاء من الله ليمحِّص عباده ويقيم الحجة عليهم يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ، وجلودهم ، والأرض كلها، والناس ، والملائكة ، وكفى بالله شهيدا . وفي جميع الحالات هي قدر من الله سبحانه وتعالى ، وقضاء حق لا ظلم معه ، لحكمة بالغة هو أعلم بها .

مصطلح " العولمة " مصطلح جديد من حيث اللفظ والصياغة . ولكنه ليس جديداً من حيث المعنى والحركة والدلالة . " فالعولمة " من حيث الدلالة ظاهرة تاريخية في حياة البشرية .

فلو استعرضنا التاريخ البشري لوجدنا أنَّ كلَّ من مكَّنه الله في الأرض بسلطان وقوة يطغى بها على سواه أو يتفوق بها سلاحاً وعدة وجنوداً ، كان يطمع ليمدَّ نفوذه وسلطانه على أوسع رقعة من الكرة الأرضية يستطيع بلوغها حسب قدرات عصره وإمكاناته ، وحسب قدرته هو وإمكاناته . ومن خلال هذه الرغبة الطامعة كان يحدث اصطدام الشعوب ، وكانت تمتد الحروب على سنن لله ماضية، وكانت تمتدّ العولمة مع المنتصر .

فانظر إلى تاريخ " قوروش " و" حمورابي " و" نبوخذ نصر " . وانظر إلى الإسكندر المقدوني ، وإلى الإمبراطورية الرومانيَّة وأباطرتها . وانظر كذلك إلى الفراعنة . وكلٌّ حاول الامتداد والتوسع في الأرض كلّما ملك القوة والسلطان ، وعبَّأ الجيوش وأعدَّ العُدَّة . كان مطمع كل واحد واضحاً كلَّ الوضوح ، مطمع يدفعه إلى التوسع والامتداد ، وانظر إلى انجلترا التي امتدت حتى قيل إنها الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس . وكذلك غيرها من الدول الأوروبية .

ما هي الدوافع التي تجعل هذا الاتجاه ظاهرة تاريخية ؟! نعتقد أنَّ أول عامل مشترك وحافز ممتد هو الرغبة الذاتية في نفس كل قائد حقق الانتصار وملك زمام

الأمر . إنها طبيعة القيادة البشرية ونفسيتها عندما لا تحمل رسالة ربانية ولا هدفاً إيمانياً ، فتكون رسالتها في الحياة إشباع هذه الرغبة الملحة والطمع الجارف . ويُغذِّي هذا الحافز واقعُ المجاورين من ضعف يُغْري بالتوسع إليه ، أو قوة تهدّد فيُرْغَب في تحطيمها قبل أن تقوى على الاعتداء . ويغذِّي هذا الحافز النفسيَّ حبُّ الشهرة والمجد الشخصي كذلك ، وسائر العوامل النفسية في داخل الإنسان ، والعوامل الخارجية من حول القائد .

والحافز المشترك الآخر والعامل الهام هو المصالح المادية والمطامع الاقتصادية . إنَّ العامل الاقتصادي عامل رئيس يحرّك الأمة وقيادتها إلى التطلع إلى الآفاق ، لكسب الثروات ونهب الخيرات من مختلف أنحاء الأرض ، لبناء ثروة قومية مسيطرة ، من خلال العدوان الظالم ، والطغيان الإجرامي . وهذا يحتاج إلى بسط سلطان عسكري ، واستغلال الفكر والأدب والدين من أجل ذلك .

وتجتمع العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية والعلاقات الدولية الخاضعة للتنافس والأطماع المتزاحمة ، تجتمع هذه كلها وتتفاعل في نفسية القائد أو القائد وشعبه ، لتدفعه إلى محاولة الامتداد العالمي .

ماذا كان وراء امتداد الإمبراطورية البريطانية التي كانت لا تغيب عنها الشمس ؟! وماذا كان وراء امتداد الدول الأوروبية وغزوها شمال أفريقيا ووسطها وجنوبها وشرقها وغربها ، وغزو آسيا ؟ لقد كانت الرغبة في نهب ثروات الشعوب الضعيفة من الألماس والذهب وكنوز كثيرة ، وثمار وأشجار ، وغير ذلك، الحافز الرئيس الذي أباح لهؤلاء قتل الناس واستباحة الأعراض والظلم الذي لا يقف عند حد .

لم يكن لدى هؤلاء رسالة يحملونها للناس إلا الشعارات التي تُغلِّف أطماعهم ، والزخارف التي تُزيِّن باطلهم ، ووسائل التخدير التي تميت مقاومة الشعوب .

وباستعراض التاريخ نرى ظاهرة أخرى للعولمة أو العالمية . إنها العولمة الصادقة الأمينة العادلة ، أو العالمية ، فريدةً ممتدةً ! إنها رسالة الإسلام التي نزل بها الوحي الكريم من عند الله على رسوله ونبيّه المصطفى محمد ﷺ . لقد انطلقت هذه الرسالة من أرض الجزيرة العربية رسالة للناس كافَّة ، رسالة للعالمين ، رسالة تحمل الحق المطلق لهداية الناس إليه ، ولإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن الله .

ولقد امتدت هذه الرسالة امتداداً عالمياً لأنها حملت هذه النيَّة والهدف والعزيمة منذ البداية ، وأعلنته إعلاناً واضحاً جلياً قبل أن تمتد وتتسع وتقوى . لقد أعلنت الآيات الكريمة هذا الهدف العظيم والوحي الكريم يتنزل على النبوَّة الخاتمة:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وتوالت الآيات الكريمة تؤكد هذه الحقيقة الهامة ، وتثبّتها في صميم التصور الإيماني ، ليعلمها الناس جميعاً ، وليطمئن حاملو هذه الرسالة إلى عالميَّة رسالتهم وعالميَّة مهمتهم ومسؤوليتهم :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨]

لقد كان محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، فجاءت رسالته تحمل هذه العالمية بوضوح وجلاء ، ليحملها من بعده المؤمنون على مدى الدهر . ولكن هذه الصورة العالمية أخذت شكلاً آخر قبل محمد ﷺ . فالإسلام هو دين الله الذي بعث به جميع الأنبياء والمرسلين . وكان كل نبي يُبْعث إلى قومه خاصة ، وبعث الله نبياً ورسولاً في كلِّ أمة في التاريخ البشري ، فامتدت رسالة الإسلام امتداداً عالمياً على هذا النحو بامتداد الأنبياء والمرسلين :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل: ٣٦]

وكذلك :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾

[فاطر: ٢٤]

إذاً أخذت رسالة الإسلام التي هي دين الله الحق ، ودين جميع الأنبياء والمرسلين ، على مدى الدهر ، صورتها العالمية بشكلين أو أسلوبين أرادهما الله من أجل امتداد رسالته ، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . الأسلوب الأول كان امتداد الأنبياء والمرسلين أنفسهم حين بعث الله في كل أُمَّة رسولاً ، بشيراً ونذيراً . ثمَّ كان الأسلوب الثاني بالرسالة الخاتمة والنبيّ الخاتم :

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾ [النساء: ١٦٥]

وكذلك :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

وما هي مهمة الرسل والأنبياء ؟! إنَّ مهمتهم تبليغ رسالة الله كاملة كما أُنزلت عليهم .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾

[الأحزاب: ٣٩]

وكذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة: ٦٧]

وجمع هذين الأسلوبين لعالمية الدين الإسلامي حديثُ رسول الله ﷺ، يرويه ابن عمر وأبو هريرة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم :

(أُعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي : نُصرتُ بالرُّعْب مسيرة شهر ، وجُعلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيَّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصلِّ ، وأُحلِّتْ لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأُعطيتُ الشفاعة ، وكان النبيُّ يبعث إلى قومه خاصَّة ، وبُعثْتُ إلى الناس عامَّة) [رواه الشيخان والنسائي](١)

كلُّ عولمة مادية دنيوية في التاريخ البشري تنطوي وتذهب مع التاريخ ، وينطوي رجالها . أما عالميَّة الإسلام فإنها ممتدة مع التاريخ البشري حتى تقوم الساعة . قد يضعف المسلمون في مرحلة تاريخية ، ولكنَّ رسالة الإسلام تبقى نوراً ممتداً لا ينطفئُ أبداً ، لتبقى رسالته ظاهرةً على الدين كله . ونفهم هذا الظهور الممتد مع الزمن بناحيتين : أولاً : بامتداد الدعوة الإسلامية نوراً في الحياة البشرية . ثانياً : وجود طائفة ظاهرة على الحق ، متمسكة بما أُنزل من عند الله ، بالكتاب والسنَّة ، إيماناً وعلماً وعملاً وعياً أميناً مع الزمن كلِّه . مهما ضعف المتنسبون إلى الإسلام وهان شأنهم بعدم صدق التزامهم :

فعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة)** [رواه مسلم](٢)

هذه إحدى صور العالميَّة الممتدة لهذا الدين العظيم . ويؤكِّد هذه الصورة الآيات الكريمة :

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) ، رقم : (١٠٥٦) .
(٢) صحيح مسلم : ٣٣/ ٥٣/ ١٩٢٠

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾

[الصف: ٨، ٩]

والإسلام هو النهج الوحيد الذي يصلح للبشريَّة كلها، للإنسان، لجميع العصور ومختلف الأماكن والمواطن. ذلك لأنه من عند الله ربِّ السموات والأرض وما بينهما، وربِّ الزمان والمكان. وما عداه فمناهج بشرية متبدِّلة مع المصالح والأهواء. وحين نقول الإسلام فإننا نعني بذلك ما أُنزل من عند الله وحياً على عبده ورسوله محمد ﷺ.

الإسلام ماضٍ في طريقه على سنن لله ماضية في الحياة امتداداً لمسيرته في التاريخ البشري، وسَيظل يمتدُّ مع الحياة ظاهراً على الدين كله!

أما عولمة اليوم التي تقودها أمريكا، فهي تحمل مظاهر جديدة مع انطلاقة العلوم والصناعة والتقنية. إنها ليست العولمة التي حملتها الدول السابقة إلا من حيث النوازع النفسية والأطماع الاقتصادية. ولكنها لا تحمل رسالة كما يحمل الإسلام، ولا ترعى حقوق الإنسان أو الشعوب أو مصلحة البشرية. وهي أشد فتكاً وإجراماً من مثيلاتها التي سبقت في التاريخ. إنها تحصد اليوم الملايين بالأسلحة الفتاكة وبالجوع والأمراض، وبالشعارات الكاذبة المزخرفة المخدرة!

عولمة اليوم تمضي وتنتهي وتُطوى كما طُوِيَتْ العولمات المادية الأخرى في التاريخ. إنها مرحلة ابتلاء وتمحيص من الله سبحانه وتعالى حتى تقوم الحجة على كل إنسان يوم القيامة أو تقوم له.

ولكن لا بدَّ أن نوجز أهم مظاهر عولمة اليوم وأهم خصائصها حتى يدرك المسلم الحقيقة، وحتى يحدِّد رأيه وموقفه الذي سيحاسَب عليه ويسأل عنه.

عولمة اليوم تقودها أمريكا كقوة تكاد تكون وحيدة في مستوى سلطانها ونفوذها وقوتها. وأهم قاعدة في الفكر الأمريكي وفي مخطط أمريكا في جميع مجالات الحياة والتعامل هي: **مصلحة أمريكا وحسب**.

والقاعدة الثانية أنَّ أهمَّ مصالح أمريكا في تعاملها هو الناحية الاقتصادية، ثمَّ تُسَخِّر القوى الأخرى كلَّها من سياسية وأدبيَّة وفنيّة واجتماعية وغيرها لتدعم المصلحة الاقتصادية، ثمّ تصبح هذه تدعم تلك، وتلك تدعم هذه، في تأثير متبادل.

ومن أجل ذلك فإنها تستغل جميع العوامل الأخرى وتسخِّرها لتأمين مصالحها وقواها ونفوذها. إنها تستغل الدين كلما احتاجت إليه، فهي التي تغذِّي الحركات التنصيرية سراً وعلناً وتستغل الأدب وتسخره لذلك، وتستغل العلوم وتسخِّرها من أجل أطماعها التي لا تتوقف عند حد، وتستغل سائر العوامل المؤثرة. إنها تستغل الإنسان أسوأ استغلال، وتجعل من الناس عبيداً من خلال القهر والقوة، أو التخدير والخداع، أو الفتن التي تشعلها.

إنه من الملاحظ أنَّ الأسلحة الفتاكة لم تستخدم لإقرار الحق ومبادئ العدالة والشعارات التي يزخرفون بها باطلهم، ولكنها استُخْدِمتْ لتحقيق المصالح والقواعد التي سبق ذكرها.

انظر إلى عدد ضحايا الحروب في «**رواندا وبوروندي**»، وانظر إلى ضحايا الجوع في «**إريتريا**» ومناطق أخرى من العالم، وانظر إلى سائر المآسي الممتدة في الأرض، المآسي التي تزيد ولا تنقص، المآسي التي يكاد يصعب حصرها. إنَّ جميع الشعارات والزخارف من شعارات حقوق الإنسان ورعاية الطفولة وأعياد الأم وشعارات الحريَّة والديمقراطية، وكلُّ ذلك لم يستطع أن يخفي حقيقة المآسي الممتدة في الأرض. إنها حقيقة العولمة اليوم!

ومن أغرب مظاهر " العولمة " اليوم أنها تريد أن تصوغ للشعوب أفكارها وعقائدها لتكون أداة طيعة في يدها. إنها تريد مثلاً أن تدعو إلى " إسلام " خاص تحدّد هي فقهه وشرعه، وتريد أن تعتبر كلَّ ما خرج عن هذا الدين " المعولم " هو إرهاب يحتاج إلى استئصال، ولو كان الأمر دفاعاً عن حق وأرض وعرض وحياة. فيصبح الإرهاب هو كل ما يخالف منطق " العولمة " الأمريكية ومصالحها.

والمؤسف أنه يسقط في شرك هذه الأساليب بعض المسلمين الذين يتغنَّون بالعلمانية والديمقراطية ، بعد أن فشلوا في تقديم الصورة المشرقة لعدالة الإسلام ونهجه ، وبعد أن عجزوا عن تمثُّل الإسلام في أنفسهم وعن تطبيقه في فكرهم وسعيهم ، فاستسلموا للفكر الغربي وللعلمانية وفلسفتها وللعولمة وشعاراتها لتغطية فشلهم .

العولمة تمثل من ناحية ثانية صراعاً خفيّاً يظهر ويختفي ، صراعاً بين القوى المؤثرة التي تصارع من أجل مصالحها الخاصة أيضاً ، فتلتقي مع أمريكا حيناً وتختلف معها حيناً آخر ، ولكنهم لا يختلفون أبداً في الموقف من الإسلام . وبذلك تحمل العولمة اليوم بذور التناقض في داخلها . فحين تكون الدعوة إلى علمانية شاملة ، تظل المصالح الخاصة موضع صراع ممتد .

إنَّ عملية إلهاء الناس أو تخديرهم أو خداعهم قضيّة أساسية في أساليب العولمة . فالإنسان إما أن يستسلم ، وإما أن يُخدَّر ، وإما أن يُلْهى ، وإما أن ينتهي. منطق لا يعرف الرحمة إلا بمقدار ما تكون الرحمة الظاهرة تعين على حماية مصالحه . ووسائل التخدير والإلهاء عديدة نامية متطورة متزايدة . البشرية اليوم تعيش في تيه وظلام ، وكثيرون لا يُحسُّون بذلك لأنهم مخدَّرون .

ومن أهم مبادئ العولمة في سياستها مع الشعوب ومشكلاتها أن لا تُحلَّ المشكلات . يجب أن تبقى المشكلة قائمة وعلى الناس أن يتعلموا كيف يتعايشون معها لا كيف تحلُّ المشكلات وتطوى . هكذا عبَّر عن ذلك " نيكسون " في كتابه " نصر بلا حرب " .

ومن أهم مبادئ الإسلام أن تحلَّ مشكلات الفرد والشعوب ، وأن يقام بينهم ميزان حق عادل يخضع له الكبير والصغير ، أن يستقر النهج الذي يرفع الظلم ويبيِّن الحقوق والواجبات في صورة متوازنة أمينة .

إنَّ أحداث القرنين الأخيرين تكشف بوضوح عن هذه الخصائص وعن نشوئها ، وعن نتائجها وآثارها ، مما لا مجال لاستعراضه هنا .

لماذا يقف رجال العولمة ضد الإسلام ، يحاربونه ولا يسمحون له أن يحكم أو أن يقوم له كيان ؟!

نعتقد أن هنالك سبباً واحداً رئيساً هو إنَّ الإسلام كما أنزل على محمد ﷺ لا يمكن أن يقبل بالمساومة على حق إنسان واحد أو شعب واحد أو مصلحة البشرية كافة . وبذلك لا يمكن لمن يعبدون مصالحهم الخاصة من دون الله أن يلتقوا مع هذا الإسلام ! إذاً لا بدَّ من صياغة إسلام جديد يُوهَم الناس أنه هو الإسلام . ويمكن أن تتوافر عناصر كثيرة تنشط لتضع طاقاتها وقدراتها في تمرير هذا الإسلام الجديد ، عن وعي أو غفلة أو تخدير ، وذلك كله تحت شعار الإسلام.

والنقطة الهامة والأخيرة التي يجب عرضها هي ما هو موقف الإسلام الذي أُنْزِلَ على محمد ﷺ من هذه العولمة ومن خصائصها التي أوجزناها ؟!

نحاول أن نوجز رأينا في ذلك على النحو التالي :

١- الإسلام يرفض من حيث المبدأ العلمانية وأسسها التي تقوم عليها وفلسفتها، ويرفض العولمة بالخصائص التي سبق ذكرها . ولكن الإسلام يعرف كيف يتعامل مع هذه وتلك ، ومع كل موقف .

٢- الإسلام لا يرفض المنجزات العلمية التطبيقية ولا الصناعة المبنيَّة عليها، ولكنه يرفض وسائل استخدامها وأهدافها العدوانية الطاغية الظالمة .

٣- **يبتدئ موقف الإسلام دائماً بخطوة رئيسة تعتمد عليها سائر الخطوات . هذه الخطوة هي الدعوة إلى الله ورسوله ، الدعوة إلى الإسلام وتبليغ رسالة الله كما أنزلت على محمد ﷺ ، وتعهّد الناس عليها** . إنَّ هذا فرض على المسلمين لا يحلّ لهم التخلّي عنه ، ولا يحلّ تحويله إلى دعوات شخصية تفرّق المسلمين . الدعوة يجب أن تكون إلى الإسلام كما أنزل وكما بلّغه محمد ﷺ . ذلك لأنه لا شيء يمثّل دين الله ـ الإسلام ـ إلا كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ باللغة العربيَّة .

٤- أن يكون تبليغ رسالة الله واضحاً جلياً صريحاً ، لا يحمل معه أيّ تنازل أو تحريف أو انحراف أو تأويل فاسد .

٥- أن يكون الذين يدعون إلى الإسلام ويبلّغون رسالة الله كما أُنزلت وكما بُلِّغت ، أن يكون هؤلاء مثلاً حسناً للإسلام ، لا يكذبون ، ولا يخدعون ، ولا يشوهون الإسلام بالعمل الخاطئ ولا يتنازلون .

٦- أن يفهم الآخرون من غير المسلمين أنَّ هذا هو الإسلام وإننا ملتزمون به، وإننا لا نقرّ علمانيتهم ولا عولمتهم . وأنه كما ينادون بحريَّة الرأي ، فليتركوا للمسلمين حق تبليغ دعوتهم . لما كانوا يفرضون علمانيّتهم وديمقراطيتهم ورأسماليتهم بالقهر والقوة والإغراء والفتنة ، والتهديد والتنكيل، فإنَّ الإسلام يدعو إلى رسالة الله في كلِّ حالة بالأسلوب الحق الذي يناسبها ، بالأسلوب الذي يأمر به الله سبحانه وتعالى مع كل حالة .

٧- كما أنَّ تبليغ الرسالة فرض على المسلمين ، فإنَّ إعداد القوة التي تحمي الدعوة وتشق سبيلها ، وتفرض احترامها وحقّها ، فرض كذلك لا يحلّ التوقف عنه أو التخلّي عنه . فإذا تخلَّى المسلمون عن هذا وذلك ، فلا يَلُومُنَّ إلا أنفسهم ، وستمضي عليهم سنن الله التي لا تتبدَّل ولا تتغيّر .

٨- ثمَّ تنشأ الخطوات الأخرى ، كما يفصلها منهاج الله ، مع كل حالة ومرحلة .

٩- الإسلام منهاج رباني متكامل مترابط متناسق ، يؤخذ كله ولا يؤخذ أجزاءً متناثرة ، ولا يؤخذ جزء منه ويترك جزء . وتتحدّد المواقف من هذا التكامل والترابط والتناسق .

١٠- على ضوء ما سبق ، فإنَّ الإسلام يتحدد موقفه مع كل حالة على أساس من منهاج الله ، حسب موقف الطرف الآخر ، العلمانية أو العولمة . ولكن في جميع الحالات **يكون الموقف الأول هو وجوب تبليغ رسالة الله ودينه كما أنزلت على محمد ﷺ وكما بلغها محمد ﷺ** . وحين يكون تبليغ الدعوة

فرضاً على المسلمين ، فإنه كذلك حق لهم لا يجوز لأحد أن يمنعهم عنه أو أن يصدَّهم أو أن يضع العراقيل . فهذا دين الله الذي جاء ليخرج الناس كافة من الظلمات إلى النور. ولكن هذا الحقّ لا يعني أنه يسمح للكافرين والمشركين أن يدعوا إلى شركهم وكفرهم في بلاد الإسلام ، ثمَّ يُمْنع المسلمون من أن يدعوا إلى دين الله ، فالإسلام جاء ليجتثَّ جذور الكفر من الأرض . فإن تهاون المسلمون في ذلك ، فسيتحملون مسؤولية ذلك في الدنيا والآخرة .

١١- الجهاد في سبيل الله نهج رباني متكامل مرتبط بالمنهاج الرباني بتكامله وترابطه وتناسقه . وأول الجهاد جهاد المسلم نفسه ، ثمَّ جهاد الأمة المسلمة في تبليغ دعوة الله إلى الناس كافَّة ، ثمَّ يمتدُّ الجهاد في سبيل الله حتى يبلغ القتال العسكري حسب ما يفصله منهاج الله ، بعد إعداد القوة التي أمر الله بإعدادها .

هذا موجز سريع لموقف الإسلام من كل حركة غير إسلامية . ولكن العلمانيين يدركون من الإسلام ما لا يدركه كثير من المسلمين . إنهم يدرسون الإسلام لا ليؤمنوا به ولكن ليخططوا على إضعافه . فلقد اقتنعوا من تجارب طويلة منذ بُعثَ محمد ﷺ أنَّ هذا الدين متين لا يدخل في باطل ولا يساوم على حق . ولذلكَ امتدَّ مكرهم ضد الإسلام منذ ذلك الحين ، ووضعوا الدراسات والخطط من أجل ذلك . وبدأت خططهم تنجح عندما غفل المسلمون ، وغلبهم الجهل بدينهم والهوى ، وتمزقوا في عصبيات جاهلية نُهوا عنها . وإنَّهم لمحاسَبون على ذلك حساباً شديداً .

ولقد أصاب أعداء الإسلام نجاحاً بعد قرون طويلة وهم يمكرون ويجدّون ويخطّطون ، والمسلمون في غفلة ساهون . فصار من المسلمين من يدعو بدعوتهم ويتبع خطاهم ويسير على نهجهم . ومنهم من يدّعي أنَّ ذلك من الإسلام ، والإسلام بريء من ذلك :

نهجان قد ميّز الرحمن بينهما نهج الضلال ونهج الحقِّ والرشدِ
لا يجمع الله نهج المؤمنين على نهج الفساد ولا صدقاً على فَنَدِ

يقول لي أحد الدعاة المسلمين العاملين إن أفضل وسيلة لمحاربة الحداثيين هي أنَّ ندَّعي تبنِّي أفكارهم وشعاراتهم حتى نسدَّ عليهم الدرب من ناحية، وندعوهم إلى الإسلام ونتألَّف قلوبهم عليه. فقلت له أخشى أن تكون النتيجة أن تصبح أنت حداثياً ويبقى الحداثيُّ على حداثيّته. ومع الأيام حدث معظم ما توقعت. لقد اختلطت الحداثة في ذهن المسلم مع الإسلام، فاضطرب تصوره لهذا وتلك، وبقي الحداثيُّ على حداثيّته وضلاله.

لقد غلب الوهم على بعض المسلمين فظنُّوا أنَّ مجاملة غير المسلمين على حساب الإسلام، والتنازل عن مبادئ الإسلام، يجلب هؤلاء إلى الإسلام، ومع طول التجربة في مواقع متعدّدة وضح أنَّ المسلم أو المسلمين كانوا هم الخاسرين، وإنَّ القلة القليلة جداً من أعداء الإسلام خفّت نقمتهم ولكن لم تختف. وذلك هو الذي يجب أن يُتوقَّع. فبالانحراف عن الإسلام يخسر الدعاة رضا الله، ويخسرون احترام أعداء الإسلام الذين يعرفون الإسلام ويرون انحراف بعض أبنائه. ومن خلال هذه المجاملات والتنازلات اقتنع بعضهم بما كان يجامل به "تكتيكياً"، فانحرف هو عن دينه، وجرفته أجواء العلمانية المتفلّتة الملتهبة بالشهوات والمصالح، وبقي أولئك العلمانيون على علمانيتهم، وزادوا تمسّكاً بها، وهم يرون تفلّت بعض المسلمين وضعفهم وانهيارهم.

إنَّ الكلمة الطيبة وحسن الخلق الذي يجب أن يتصف به الداعية المسلم لا يعني أن يتحول ذلك إلى مجاملات وتنازلات! أو إلى ضعف ووهن.

وموقف الإسلام في هذه القضيّة موقف حاسم فاصل. لا يرضى الإسلام أبداً بأن يأخذ المسلم طرفاً من أفكار الفتنة والضلالات لأنه توهّم أنَّ فيها زخرفاً مغرياً. وقد فصل الإسلام في هذه القضيّة وحسمها في آيات كريمة كبيرة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

[الكافرون: ١ - ٦]

الباب الثاني

أمريكا وتفردها والبحث عن عدو جديد

الفصل الأول : أمريكا وتفردها بمادية شديدة ومطامع جشعة .

الفصل الثاني : يبحثون عن نهاية التاريخ وعن عدو جديد بتصور مادي .

الفصل الأول
أمريكا وتفردها بمادية شديدة ومطامع جشعة

هذه لحظات فريدة من التاريخ البشري ، تنفرد فيها أمريكا بقوة طاغية وكأنها القوة الوحيدة في الأرض ، بعد أن تفسَّخ الاتحاد السوفيتي ، ووقفت روسيا تحاول أن تنهض على مجد سابق . ولكنها مرحلة فيها امتحان لأمريكا وغيرها ، يمحّص الله فيها موقف كل فريق ، موقف أمريكا ، وموقف أوروبا وروسيا ، والصين ، والمسلمين وغيرهم ، حتى يكون الموقف لهم أو عليهم يوم القيامة بين يدي الله سبحانه وتعالى . وإن كانت هذه النظرة والإيمان بالدار الآخرة غير واردة في مفهوم رجال العلمنة والعلمانية . ولكنها الحق الذي سيفاجؤون به قريباً عندما ينتهي الأجل المسمى لكل إنسان ولكل أمة ولكل دولة :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾ [يونس: ٤٩]

وكذلك :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف: ٣٤]

وكذلك :

﴿ ..... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) ﴾

[آل عمران: ١٤٠، ١٤١]

وكذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) ﴾ [مريم: ٨٣، ٨٤]

وكذلك :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

[إبراهيم: ٤٢، ٤٣]

هذا التصور غائب عن كثير من الناس وخاصة أهل العلمانية والعولمة . فإذا ضاق بهم السبيل يتساءلون أين نذهب ؟

يقول سياسي : في اليوم الذي كنَّا نختلف مع الاتحاد السوفياتي كنا نذهب إلى أمريكا ، ويوم أن كنا نختلف مع أمريكا كنا نذهب إلى الاتحاد السوفياتي . واليوم لم يعد إلا أمريكا ، فأين نذهب ؟!(١)

وكثيرون أمثال هذا السياسي ، لا يخطر ببالهم أن يلجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى في كلِّ حال ، وظنُّوا أنَّ الاتحاد السوفياتي وهو في أوجِ قوته قادر على أن يفعل ما يشاء ، وانه دائم القوة ! فأراهم الله آية من آياته وسنَّة من سننه ، وذلك بسقوط الاتحاد السوفياتي بقدر من الله ، كما سقطت دول أخرى في التاريخ غرَّها ما كان في يدها من قوّة مادية سرعان ما ذهبت القوة وهانت الأمة .

وكلما يضيق الأمر برجل أو دولة يفزع إلى رجل آخر يظنه قوياً خالداً ، أو إلى دولة قوية يظنها خالدة .

كُتبَ في إحدى المجلات اقتراحٌ يُطْلَب فيه عدم السعي لإسقاط أمريكا ، وطالبَ بالحفاظ عليها دولة وحيدة مهيمنة ! لأن في سقوطها ضرراً كبيراً ...(٢) كأنه لم يذكر الله في حياته ، ولم يقرأ القرآن ، ولم يعمر قلبه بالإيمان . وكان حسبه أن يتذكر دعاء الرسول ﷺ :

(اللهم لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك)

---

(١) حسن قطامش : عولمة أم أمركة . ص : (٣) .

(٢) المصدر السابق : ص : (٣-٤) .

إنَّ ميزة زعماء أمريكا أنهم واضحون جريئون في تصريحاتهم التي تكشف حقيقة أطماعهم وجوهر سياستهم وعزيمة عدوانهم .

لمحة على التاريخ تكشف لنا ظاهرة الغرور والكبر عند كلٍّ من أنعم الله عليه بقوّة . فغالباً ما يدَّعي هذا وذاك أنه هو سيد العالم وأنَّ الله اختاره لقيادة العالم، وإن كان شعباً ، فالشعب هو الشعب المختار . مرضٌ واضح في تاريخ الضالين من الشعوب والزعماء .

فاليهود حرَّفوا كلام الله ، وأعلنوا أن الله اختارهم وحدهم ، وسموا أنفسهم أنهم " شعب الله المختار " والتحريف واضح في ذلك لأن الله سبحانه وتعالى رب جميع الشعوب ، وخالق جميع الناس ، فلا يفضِّل دماً على دم ، ولا جنساً على جنس ، ولكن يفضل الإيمان والتقوى والعمل الصالح ومن يلتزم ذلك . فالله فضَّل المؤمنين المسلمين الذين آمنوا بموسى عليه السلام ودخلوا معه في دينه الإسلام ، وفضَّل المؤمنين المسلمين الذين آمنوا بالنبيّ الذي بعثه الله إليهم بدين واحد هو الإسلام ، دين جميع الأنبياء والرسل الذين ختموا بمحمّد ﷺ ، وبرسالته الخاتمة المهيمنة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣]

فعلى مدار التاريخ كانت الأمة المفضَّلة عند الله ، هي الأمة التي تلتزم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالإيمان بالله . الأمة التي تحمل رسالة الله ودينه فتبلّغه للناس وتتعهّدهم عليه ، لنشر المعروف الحق بذلك ، وتنهى عن المنكر الباطل . وهذه الأمة أمة واحدة على مدار التاريخ :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

[آل عمران: ١١٠]

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البلد: ١٧ - ٢٠]

وعلى هذا يكون التفضيل والإيثار. والميدان مفتوح للبشرية كلها ليتنافس فيه المتنافسون على البرِّ والتقوى وطاعة الله والتزام شرعه:

﴿...... وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]

وبذلك يصبح الميزان دقيقاً واضحاً بيِّناً لا حجَّة لأحد أن يقول لا أدري، فيتبع أهواءه ويبدِّل وينحرف، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البريَّة، والذين كفروا وأشركوا هم شرَّ البريَّة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٦ - ٨]

ولكن الناس غيَّروا هذا الميزان الرباني وحرَّفوه وبدَّلوه، وأخذ كلٌّ يدَّعي أنه هو المختار، دون أن يخشع بين يدي الله ويشكر نعمته عليه، فيؤمن ويعمل عملاً صالحاً.

ففي القرن السابع عشر، كانت فرنسا هي القوة المسيطرة، فرفعت بذلك شعارها الذي ينادي بدور فرنسا في " تحضير " العالم، مهملة كل شعوب الأرض وكلَّ إنجازاتهم. ولما برزت بريطانيا كقوة مسيطرة رفعت شعار مسؤولية الرجل الأبيض في " تحضير " العالم. وارتكبت من المجازر والظلم والإفساد في الأرض ما ملأ تاريخها بصفحات سوداء، كما ملأت فرنسا تاريخها في فترتها بصفحات سوداء من شدَّة ما اعتدت وظلمت وأفسدت.

ولما جاء دور أمريكا اعتبرت نفسها سيدة العالم ، وأنها مسؤولة عن نشر ما تدعيه من زخرف الديمقراطية والحريَّة من خلال مجازر كان من ضحاياها الملايين من شعوب الأرض ، بالإضافة إلى جرائمها في سجونها ومعتقلاتها ، حيث تُلْغي ما يدّعونه من ديمقراطية وحرية وعدالة ، ويُمارس أشد أنواع التعذيب واغتصاب النساء وقتل البرئيين وقتل النساء والأطفال دون رحمة أبداً .

ولا نزال نحن اليوم في عصر أمريكا وسلطانها . ولقد أسكرها ما بلغته من قوة وسيطرة ، وهول سلاح وتقدّم صناعي ، فلم تعد تقيم وزناً للمبادئ والقيم ، وشعارات العدالة والحريّة . فالعدالة هي حق أمريكا في تأمين مصلحتها وحدها فقط ، والحرية هي لأمريكا وحدها . ولعلَّ تاريخ أمريكا ونشأتها قد بدأ بالظلم والفتك والعدوان على شعب أمريكا الأصلي ـ الهنود الحمر ـ ثمَّ مجازر الحرب بين بريطانيا والمستعمرين لأمريكا ، الحرب التي انتهت باستقلال أمريكا عن التاج البريطاني ، من خلال حروب اشترك في هول جرائمها بريطانيا والمستعمرون لأمريكا .

ومع نموّ قوة أمريكا حتى تفرّدت بذلك اليوم ، أصبح المبدأ الديمقراطي ومعاني الحريَّة والعدالة يعني عندها أنه ما يحق للأمريكان لا يحق لغيرهم ، وأنهم هم الشعب المختار " لتحضير " العالم . ونسوا ما بيّن الله سبحانه وتعالى لهم ولنا وللناس كافة من عبَر في التاريخ ومواعظ :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام: ١١]

قلنا إن تاريخ أمريكا بدأ منذ لحظة النشوء بأسوأ أنواع الجرائم ، فلقد كان عدد الهنود الحمر ، كما يسميهم المعتدي الجديد ، مليوناً من خلق الله ، فلم يبق منهم بعد مراحل النشوء إلا (٣٥٠) ألفاً فقط . فالذين أبيدوا على يد المعتدين (٧٥٠) ألفاً . وانظر كذلك ما فعلوا في أفريقيا ، وكيف ساقوا الرجال والنساء عبيداً يحملونهم إلى أمريكا ليكونوا خدماً لهم في أجواء الإذلال . وحسبك أن تقرأ كتاب " الجذور the Roots " لمؤلفه " ألكس هالي Alex Haley" ، الذي يصف

رحلة الأفريقيين الذين سيقوا عبيداً إلى أمريكا ، وما لاقوه من عذاب وإجرام في الرحلة القاسية ، وبعد وصولهم ، وما لا قوه من حقد كبير ضد السود بعامة . ولقد بلغ عدد العبيد في أمريكا سنة (١٨٥٠) (٣,٢٠٠,٠٠٠) وكان سكان أمريكا ٢٣ مليوناً .

وقد قامت أمريكا منذ نشأتها باستعباد شعب نُزِعَ من أرضه في أفريقيا لتَسْتعبده في أرضها ، وكذلك فعل المجرمون الفارون من أوروبا وأبناء السجون وَأمثالهم الذين راقت لهم الهجرة من أوروبا لإحياء الأرض الجديدة البكر ، فواجههم بقايا السكان الأصليين ، خليط عجيب من الناس لا يجمعهم إلا أن يتخلوا عن هويتهم وأخلاقهم ودينهم ، ليذوبوا في صياغة جديدة يذوب فيها الجميع ذوباناً كاملاً ، يعملون ويأكلون ويتلذّذون في سباق هائل في طلب الدنيا ، يتمتعون بما يشاؤون ! كأنه لم يعد هناك شيء حرام إلا ما حرَّمْتهُ القوانين الجديدة ، دون اعتبار تاريخ البشرية الطويل ، والرسالات السماوية ، متحرّرين من كل شيء ، ليتخلَّصوا من الحياة الأوروبية التي كانت تمثل لهم استبعاد الأرواح والأجساد .

لقد تَمَّ هذا الذوبان ، في هذا المجتمع الجديد المتحرر من كل شيء . لقد كتبت صحيفة الواشنطن بوست في افتتاحيتها عقب الإعلان بفوز كلينتون بالرئاسة للمرة الثانية : " الأمريكيون مهتمون فقط بأمور الزبدة والخبز ، ويعتبرون النظام السياسي جهازاً إدارياً .... "(١)

ولذلك كانت القاعدة الأولى في السياسة الأمريكية والحياة الأمريكية هي : **مصلحة أمريكا أولاً و آخراً** . إنها مصلحة مادية ، تسحق كل شيء أمامها لتحقيق هذه المصلحة . ومعنى هذه المصلحة أنها تبرز في كلِّ ميدان : اقتصادي ، سياسي ، اجتماعي ، ليُسْتغلَّ كلّ ذلك من أجل مصلحة أمريكا . سواء أكان ذلك في المصلحة الاستراتيجية التي تمسُّ الأمن الأمريكي وحده أم في غيرها . وقد تُهَدَّم

(١) المصدر السابق : ص (٢٨) .

بلاد وأقطار، ويُقتَلُ عشرات الألوف هنا وهناك، تحت ادعاء حماية الأمن الأمريكي، ولا عبرة لأمن أي بلد آخر، أو أمن البشرية كلها.

لقد عبَّر عن هذه المصلحة المادية الذاتية لأمريكا عدد كبير من المسؤولين وخاصة وزراء خارجية أمريكا، ورؤساء أمريكا مثل: روزفلت، وكلينتون، وبوش، في تصريحات واسعة في مختلف وسائل الإعلام. يقول كلينتون: " وعندما تصبح القوة مطلوبة (لضمان أمننا) فإنَّ علينا استعمالها، وعلينا أن نرحِّب بآمال العالم لا أن نعرض عنها، ليس من أجل العالم فقط، بل لأجلنا نحن أيضاً "(١)

ويقول " زوبرت دول " في دراسة في مجلة: " فورين بولسي ": " ... غير أنَّ الأحداث في رواندا والصومال لا تنطوي، في أسوأ الأحوال، إلا على تأثيرات هامشية بالنسبة لأمريكا. إننا لا نستطيع أن نستمرَّ في نسف سمعة قواتنا المسلحة **من أجل عمليات إنسانية لا تفعل شيئاً في مجال تعزيز مكانة أمريكا** "!(٢)

أما مادلين أولبرايت فتوجز سياسة وزارة الخارجية بأن: " **الأهداف الرئيسة الحيوية هي تأمين مصالح الولايات المتحدة، والتوسّع بها لتشمل الكرة الأرضية** "!

من هنا نرى كيف أنَّ العولمة التي بدأت تظهر مع التسعينيات من القرن الماضي، كانت من هذه التصورات الأمريكية المجمع عليها، دون أن تحمل أي رسالة إنسانية أو احترام للشعوب أو اعتراف " بالآخر "، الآخر الذي أخذت تتاجر باسمه وهي تسحقه، وتتهم المسلمين بأنهم لا يعترفون " بالآخر ". وهل عرف التاريخ البشريّ أمة اعترفت بالآخر وأعطته حقوقه ورعته رعاية شاملة غير الأمة المسلمة؟!

(١) المصدر السابق: ص (٣٤).
(٢) المرجع السابق: ص (٣٤)

ومعنى كلمة : " أولبرايت " : " ... والتوسع بها لتشمل الكرة الأرضية " ، فإن التوسع لن يكون بالتعاون الإنساني ، بل بالقوة العسكرية التي بنيت من أجل هذا التوسع اللاإنساني . فألغى مجلس النواب قانون الحياد مع الحرب العالميّة الثانية بحجة مساعدة بريطانيا وفرنسا . وبهذه النفسية استخدمت أمريكا كلّ الوسائل المتاحة : الدبلوماسية وسياسة الضغط والإكراه ، وسخرت الإعلام والشركات التجارية والحركات التنصيرية وأجهزة التجسس والمخابرات من أجل تحقيق هدف التوسع اللاإنساني العدواني المدمّر ! وحسبك ما ألقته القوات الأمريكية في الحرب العالمية الثانية على طوكيو انتقاماً من اليابانيين الذين سبق أن أسروا ٧٥ ألف جندي أمريكي في الفلبين ، حيث ألقى الأمريكيون (١٥٠) طناً من القنابل بواسطة ٧٢ طائرة قاذفة ، فهدَّمت ٢٨ ألف منزل ، وقتل مائة ألف ياباني . ثم ألقت القنبلة النووية الأولى على **هيروشيما** فقتلت مائة ألف في ٦/ ٨/ ١٩٤٥م ، ثمَّ ألقت قنبلة نووية أخرى على **نجازاكي** فقتلت ٤٠ ألفاً من السكان ، ومات آلاف عدة بعد ذلك من الإشعاع .

هذا هو معنى التوسع ، وهذا هو معنى الدبلوماسية المملوءة بالحقد وحب الانتقام ، وزيادة الرغبة بالتفوق العسكري واستخدامه الوحشيّ بالتدخل العسكري ، وسرعة الانتشار والتدخل .

ومن هنا أخذت أمريكا تشعر بأهمية السلاح ودوره وخطورته ، فسعت إلى السيطرة على سوق السلاح ، فكانت أكبر بائع للسلاح في العالم . فقد بلغت المبيعات ١٧,٥ بليون دولار سنة ١٩٩٣م . فشغلت مصانعها وجنت أرباحاً طائلة، وجعلت الدول المستوردة مرتبطة بها من أجل التدريب وقطع الغيار ، وأصبحت تتواجد بشكل سريع وفعَّال في بؤر الصراع .

وأخذت أمريكا تنمّي قدراتها العسكرية بصورة مستمرة مذهلة لا يستطيع أن يجاريها في ذلك أي بلد آخر . وإنما انضمَّ إليها الغرب في تنسيق سياسي وعسكري حسب ما تخطط له أمريكا لمصلحتها الخاصة . وأصبح المبدأ الأمريكي نقاتل من أجل أن ننتصر انتصاراً سريعاً حاسماً بأقل الخسائر .

الفصل الثاني
يبحثون عن نهاية التاريخ
وعن عدو جديد بتصور مادي !

في الصفحات السابقة رأينا كيف أصبحت أمريكا متفردة بالقوة في العالم ، وبخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ، وبعد أن وجهت أمريكا ضربات ساحقة هنا وهناك ، أرهبت الكثيرين ، وأسكرت أمريكا وغشّت على عيونها ، فلم تعد ترى منها إلا الكبر والاستكبار ، والعتوّ والظلم الممتد .

وبهذا الاستفراد بدا كأنَّ التاريخ أوشك أن يبلغ نهايته . فجاء كتاب : " **فرانسيس فوكوياما** " الياباني الأصل الأمريكي الجنسية بعنوان : " **نهاية التاريخ والرجل الأخير**: **The end of history and the last man**" يبيّن فيه أنَّ الديمقراطية الغربية هي التي تسود العالم ، وأن التاريخ توقف عند انتصار النظام الأمريكي . كانت دراسته فيها استعراض لكثير من المبادئ والفلسفات ، واعتبر في دراسته أنه لم يبق إلا الديمقراطية الغربية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي . ولكنه أشار من ناحية أخرى إلى أنَّ الإسلام هو القوة الوحيدة الباقية التي تملك القدرة على التصدي والمنافسة . كل دراسته تقوم على تصورات دنيوية مادية ، لا يدري أنَّ لهذا الكون ربّاً هو الذي يقدّر فيه المقادير كلها تقديراً حقاً عادلاً نافذاً على حكمة لله بالغة . وقد أشرنا في صفحات سابقة إلى أنَّ لله سنناً ثابتة في هذه الحياة الدنيا ، وأنها تمضي على قدر غالب ، وقضاء نافذ ، وحكمة بالغة . ففوكوياما تجاهل هذه السنن كلها ، وهي بيّنة أمام عينيه في التاريخ البشري ، ولكنه وقف جامداً ذاهلاً أمام ضخامة التفوق الأمريكي . وفي عصور كثيرة في التاريخ ظهرت قوى نمت وطغت كما تفعل أمريكا اليوم ، وظن أهلها أنه لا أحد يقهرهم ، حتى جاء وعد الله فأخذهم أخذ عزيز مقتدر . تراهم وقد غلبهم الغرور وأسكرهم الكبر يقفون بكل استكبار وبغي يقولون : " **من أشد منّا قوة** " ، ونسوا أنَّ الله الذي خلقهم

هو أشدّ منهم قوة . ظهر فرعون ، وعاد ، وثمود وغيرهم ، وقفوا هذا الموقف حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، واستمع إلى آيات الله :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦]

وظهر كتاب : " **نظرية احتواء الشيوعية** " **لجورج كينان** " الدبلوماسي والأستاذ الجامعي ، يبيّن فيه أنَّ الشيوعية هي الخطر الجديد على أمريكا والغرب، ولا بدَّ من تأسيس أحلاف عسكرية تحيط بالاتحاد السوفياتي وتمنع انتشار الشيوعية في الأرض .

وفي السنوات الأخيرة ظهر **صمويل هنتجتون** الأستاذ بجامعة هارفارد ليعلن نظرية صدام الحضارات ويكشف فيها أنَّ العدو الرئيس ليس الشيوعية ، وأنَّ القضاء على الشيوعية لم يُنْهِ المشكلة ، وأن العدو الحقيقي الذي يهدد الحضارة الغربية هو الإسلام .

هكذا تدرَّجت الأحداث والتصورات لتبحث دائماً عن عدو جديد يقاتله الغرب ، أمريكا ومعه الغرب ، ابتداء من النازية ، ثمَّ الشيوعية ، ثمَّ الإسلام . ولكن المعركة مع الإسلام مختلفة كل الاختلاف . فمن أراد أن يحارب الإسلام ، فإنه يحارب الله سبحانه وتعالى ، فالإسلام دين الله الذي اختاره للناس كافة ، دين جميع الأنبياء والرسل ومن آمن بهم . وتبعهم ، حتى ختموا بمحمد ﷺ !

ولذلك أفلتت من فم "بوش" كلمات غداة حادثة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ عند انهيار برجي التجارة العالميين في نيويورك ، حين قال عن هذا العمل: " الحروب الصليبية " ! إنها تكشف عن ما في أعماق النفس من تصور مسبق ثابت عن عزيمة الحرب مع الإسلام . ولكنهم لا يريدون أن تكون الحرب حرباً

مباشرة ، كما قال نيكسون في كتابه : " نصر بلا حرب " : " يقوم في منطقة **الشرق الوسط عاصفة إسلامية ، لا نستطيع مجابهتها ولكن نستطيع أن نغيّر اتجاهها ...** " أو ما معناه .

ثم تطورت الأساليب من تحويل اتجاه العاصفة إلى حرب مباشرة ابتدأها بوش ، وصممها ، وأعلنها تحت شعار الحرب على الإرهاب . ولكنْ في حقيقة الأمر هي حرب على الإسلام والمسلمين ، انكشفت في مواقع كثيرة من الكرة الأرضية ، يستغلّون أخطاء بعض المسلمين الذين يخرجون باجتهاداتهم عن مصلحة الإسلام وعن دقة فهم النصوص ، ويتجاهلون المواقف المشرِّفة الرائعة للإسلام في تاريخه الطويل وفي واقعه اليوم ، أو ينحرفون عن الإسلام في تفريط وتنازل واستسلام .

وأصبحت قضية الإرهاب دويّاً كبيراً في الإعلام وفي سياسة الغرب تجاه العالم الإسلامي ، وضمُّوا إليه مصطلحاً آخر وهو : " الأصولية الإسلامية " ! وماذا يعنون بالأصوليَّة الإسلامية ؟! إنهم يعنون الذين يتمسكون بأصول الإسلام ، وهل للإسلام أصول غير الكتاب والسنَّة ؟! ولكن إذا كان هناك فهم خاطئ لدى بعضهم ، فإنَّ ذلك ليس ناتجاً عن عدم وضوح الكتاب والسنَّة ، وإنما هو ناتج عن ضغط الواقع والظلم الشديد ، والعدوان السافر ، واحتلال بلاد المسلمين ، وإعطاء فلسطين لليهود وطرد شعبها منه ! هذه المآسي والفواجع والظلم الشديد يدفع كثيراً من المسلمين إلى الانطلاق انطلاقاً عفويّاً كردّ فعل طبيعيٍّ لما يعانونه من ظلم وقهر ! فتحسب أمريكا أنَّ هذه المواقف نابعة كلها من الإسلام وتتجاهل أنها هي أهم أسباب هذه المواقف ، بما ترتكبه من جرائم بحق الشعوب .

إنهم هم الذين يقومون بالإرهاب ، وهم الذين يدفعون غيرهم ليقوموا بما يسميه الغرب بالإرهاب . إنهم هم سبب الإرهاب كله وأصله وفصله . إنهم يريدون من كل مسلم وشعب مسلم أن لا يدافع عن أرضه أو عرضه أو ماله ، ويريدون من المسلمين أن يسقطوا سلاحهم ولا يبنوا أيَّ سلاح ، فالسلاح لديهم هم، وحقٌّ لهم وحدهم ، ولمن يؤازرهم في عدوانهم وظلمهم وإفسادهم .

والخطة الثالثة في محاربة الإسلام كانت باستدراج بعض المسلمين إلى مواقف ليست في مصلحة الإسلام، يزخرفونها لهم، ليشغلوهم بها عن قضاياهم الرئيسة، وليزيدوا الفتن بينهم.

وإذا وجد من المسلمين من اتخذ موقفاً عنيفاً نتيجة لشدَّة القهر والظلم، فمن المسلمين من اتخذ موقف الضعف والاستسلام، والجرأة على تحريف الأحاديث الشريفة أو فساد تأويل الآيات، ليُرضوا الغرب بانحرافهم هذا، وليظهر بمظهر المتحضَّرين بالحضارة الغربية. فإذا كان هنالك من غالى وتطرَّف فهنالك من تهاون وفرَّط، وبدَّل وحرَّف. ولكن دين الله ـ كتاباً وسنَّة ولغة عربية ـ سيظلُّ حقَّاً يحفظه الله، لا يضيره عدوان الظالمين ولا تحريف المرجفين.

وأعداء الله يستفيدون من مواقف من غالى وتطرَّف، ويستفيدون من مواقف من فرَّط وحرَّف. وأصبحوا يتاجرون بكل المصطلحات المزخرفة المؤثرة بالنفوس من مثل: حقوق المرأة ومساواتها بالرجل، حقوق الإنسان، الحرية، العدالة، المساواة، الأمومة، ولكنهم في الواقع سحقوا كلّ هذه الشعارات حتى لم يعد للإنسان عمليّاً حقوقٌ، ولا ثبتتْ عدالة ولا مساواة، ولا أمومة، وتحت شعار مساواة المرأة بالرجل قتلوا المرأة وسحقوها وداسوا كرامتها وأخرجوها من أمومتها ومن كونها زوجة ترعى بيتاً، وطرحوها مع الرجل في شقاء وفساد كبير.

وبهذه المساواة بالشر والفقر والحرمان والفساد أخذت بذور ما يسمونه العولمة تظهر وتنمو وتدوّي. واختلف الناس في أمرها بين مؤيد ومعارض. وعقدت ندوات وكتبت أطروحات، وأُلِّفت كتب، كلُّ ذلك أخذ شكل فيض كبير في فترة التسعينيات من القرن الماضي، وما زال دويُّها ماضياً حتى في القرن الجديد الواحد والعشرين.

لا شكَّ أن "العولمة" ظاهرة كبيرة كانت نتيجة التحوّلات الكبيرة التي شاهدها القرن الماضي وما يزال يشاهدها القرن الحالي.

إنَّ أهمَّ التحوّلات التي أبرزت " العولمة " هي ظهور القوَّة المتفرِّدة في العالم ، قوَّة أمريكا بما بلغته من سلاح جبار وتطور علمي مادي كبير ، واقتصاد كبير ، وكذلك ظهور وسائل الإعلام المتطورة والفضائيات والشبكة الإلكترونية ، ووسائل الاتصال المتطورة النامية كالطائرات وغيرها . كل ذلك غير بعضاً من المفهومات السابقة والممارسات السابقة ، وسهل ارتباط أجزاء العالم حتى قيل إنَّ العالم أصبح قرية صغيرة . ولقد ساعدت هذه العوامل كلها على تطوير عامل آخر تطويراً واسعاً ، ذلك هو الاقتصاد والعامل الاقتصادي ، وما رافقته من مؤسسات اقتصادية وشركات كبيرة عملاقة . وأصبح الاقتصاد وما يحمل من تنافس وصراع محوراً رئيساً للعوامل الأخرى ، ويؤثِّر فيها ويتأثَّر بها بصورة متبادلة مستمرة .

لقد أصبحت الشركات متعددة الجنسيات تفرض سلطانها على كثير من الأنشطة والفعاليات الإنتاجية والمالية ، مما كوّن ثقافة جديدة في هذه الميادين ، ثقافة امتدت مع امتداد الشركات والمؤسسات ونشاطها . ولما كانت الشركات والمؤسسات الاقتصادية غربيّة في معظمها ، فكانت الثقافة التي تنتشر معها هي الثقافة الغربية التي أخذت تصبح كأنها " ثقافة عالمية " .

والذي سهَّل أمام الغرب هذا الاكتساح هو تخلف الشعوب الإسلامية تخلّفاً في مختلف ميادين الحياة : علمياً وصناعياً وثقافياً . فكانت هذه الشعوب سوقاً مفتوحة للغرب بكل أنواع أنشطته الفكرية والتجارية والسياسية والعسكرية . والغرب يعني واقعياً أمريكا ، فكأنَّ العولمة اليوم هي أمركة العالم . فمعنى عولمة نظام من النظم يعني عملياً تحويله إلى النظام الأمريكي الثقافي أو الاقتصادي أو الاجتماعي إلى غير ذلك .

والعامل الرئيس الذي يحرّك فعليّاً سائر العوامل هو العامل الاقتصادي القائم على النظام الرأسمالي الذي يعني بامتداده وعولمته زيادة عدد المتخمين والأثرياء المجرمين في العالم ، وزيادة المعدمين والفقراء والمساكين .

وكلُّ قطر يتعولم فإنه يبدأ يتجرَّد من هويّته الأصلية الوطنية أو الدينية ليدخل خادماً للمجرمين في الأرض ، للقوى الرأسمالية ، للقوى المسيطرة التي لا تقبل منك إلا أن تخلع كلَّ شيء وترتدي كل جديد ولو لم يكن على حجمك أو مقاسك .

وإذا كانت هذه " الصرعة " بدأت مع التسعينيات في أواخر القرن الماضي، فإنها ما زالت تحاول تحديد معالمها ، وتمديد سيطرتها ، بالسلاح المدمر من ناحية، وبالشعارات المزخرفة من ناحية أخرى . وقد سقط في حبائلها كثيرون ، وآخرون ما زالوا يصارعون .

ولكنَّ الحقيقة الجديدة المهمة أنها بدأت تجد مقاومة ، والمقاومة آخذة بالاشتداد كلما زادت قوى العولمة من هجمتها وعدوانها وطغيانها .

أمريكا ، والغرب بعامة ، ليس له رسالة في الحياة توجه سياسته واقتصاده وصناعته وثقافته . إنَّ لديه شيئاً واحداً فقط : هو الطمع الذي لا حدود له بنهب ثروات الشعوب وإفقارها كلما وجد إلى ذلك سبيلاً . ومناطق كثيرة في العالم حاولت أن تقف دون رسالة ترفعها ، فقد سقطت منذ زمن كل الرسالات كالشيوعية والاشتراكية وغيرها . ولكن بقيت العلمانيَّة ووليدتها الديمقراطية تمثل بضاعة مزجاة بالرغم من كل الزخارف والزينة الملصقة بها . ولكنها زينة كاذبة وزخرف كاذب ، سرعان ما ينكشف عن خداعٍ وكذب وظلم مروّع .

يحاول رجال العولمة ودولها الاستفادة من أيّ طاقة أو قوة يمكن إخضاعها لها لتعزز مركزها وانتشارها وسيطرتها ، حتى الأدب لم تغفل عن محاولة إخضاعه أو طرح مفهومات جديدة له تخدم اتجاه العولمة . فالحداثة وما بعد الحداثة بمذاهبها المختلفة والبنيوية والتفكيكية أصبحت مذاهب فكرية فلسفية وأدبية ، تحمل نظرة جديدة للكون والحياة والأدب والدين وغير ذلك ، ولا تقف في حدود الأدب .

لقد صاحب انطلاقة العولمة ومسيرتها ما يسمى بالنصِّ الشامل أو النص

الإلكتروني Hyper text على يد " لنداو Landow" في أمريكا وآخرين ، ممن تأثروا بعد ذلك بأفكار ما بعد الحداثة التي سبق أن طرحها " رولان بارت " و " جاك دريدا " ، وخاصة بما يمسّ طرح " **النص المفتوح** " وانتشار " **المعنى بلا حدود** " ! وكذلك " **دور القارئ في إنتاج النص** " ، وغير ذلك من أفكار .[١]

ولذلك يصبح نصّ ما بعد الحداثة " الشامل أو الإلكتروني Hyper text يخترق الحواجز وينداح في العالم كله ، ليصبح النصُّ نصَّ العالم .

ولقد أوجدت العولمة لها إطاراً فكرياً عاماً بذلك ، وأصبحت " ما بعد الحداثة Post modernism" إطاراً فكرياً وفلسفياً للعولمة [٢] .

ويسعى دعاة " العولمة " إلى أن تَظْهرَ طروحاتُهم كطروحات تتجاوز الإقليم والوطن ، والمجتمعات ومراحلها ، من أجل أن تكون عالميَّة ! نعم ! هذا من حيث الطرح مثل طرح الحريَّة والعدالة والديمقراطية والمساواة ، طرح يضجُّ به الإعلام ويملأ الآفاق ، إلا أنه من حيث الممارسة والتطبيق ، فالحريَّة حريَّة متفلتة تحمل الشهوات والجنس والإباحة وسائر المفسدات من خمور ومخدرات وغيرها . والعدالة قد تطبق على الذين يخضعون فوراً ، وإلا فإنَّ هول السلاح المدمّر سينصبُّ على النافرين ، فتتطاير الأشلاء ، وتهوي العمائر ، وتتدفَّق الدماء، ويباد الكثيرون تحت عجلات المجرمين من أهل العولمة المتخفين ، وتحت هدير الطائرات والقاذفات والقنابل المحرّمة ، فلم يعد أمامهم شيء محرّم !

ومن خلال ذلك أصبحت " المعلوماتية " و" الانترنت " والتطورات المتجددة فيها فنياً واتساعاً ، من أهمِّ ما تعتمد عليه العولمة لتستفيد من ذلك في السعي لتحقيق الوهم الغربي بقيادة أمريكا ، بالرغم من أنَّ ذلك قرَّب الأقطار بعضها من بعض ، وزاد من احتمال وهم المجتمع العالمي على أسس العولمة التي يدعون إليها .

---

(١) د. بركات محمد مراد : ظاهرة العولمة ، رؤية نقدية ، ص : (٧٤-٧٥) .
(٢) المرجع السابق .

إنَّ انتشار الفضائيات والصحافة الإلكترونية وسوق الكتاب ومعارضه المتنقلة في الأرض ، كلُّ ذلك يمهّد لنزعة عولمة الثقافة ، بحيث يصبح هذا الطرف أو ذاك قادراً على معرفة الآخر وثقافته ، ولكن لا تشترط هذه المعرفة قبولها . فقد تُقبل وقد ترفض .

ولكن هذا كله لن يقرّب العالم من الصور الإنسانية التي يرفعون شعاراتها. أين الإنسانية في المآسي والفواجع والفقر الممتدة على سطح الكرة الأرضية في ظلام يخنق أصواتهم ، ويخفي دموعهم ، ويطوي أنّاتهم . إنّ أصوات " العولمة " مدويّة تخنق ذلك كله .

إنَّ السعي لثقافة عالمية تعني أن تنكر الشعوب ذاتها وتاريخها وثقافتها ، وأنَّى يكون ذلك ؟! فكل أمة تعتبر ثقافتها هي الحق ، ولا تتنازل عن ذلك إلا عندما تظهر الثقافة الأصدق التي تحمل حجتها من حقيقتها وممارساتها . ولن نجد ذلك أبداً إلا في الإسلام ، دين الله الحق ، حين يحمله المؤمنون الصادقون ، فينشرونه ويدعون إليه ، ويبلّغونه للناس كافَّة ، فإذا صدقت القلوب فعسى أن يَهْديهَا الله إلى الحق .

في هذه الدنيا يوجد حقٌّ وباطل ، والصراع بينهما ماض ، وللباطل جولات ثم يهزم ويذلّ ، ويعلو الحق بإشراقته ونوره . هذه سنَّة من سنَن الله في الأرض . فلنستمعْ إلى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

[الرعد: ١٧]

لا يقوم هذا الكون إلا على الحق الذي تقوم به السموات والأرض ، وتمضي به سنن الله الثابتة ، وقضاؤه النافذ ، وقدره الغالب ، وحكمته البالغة .

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١]

شهد فندق " الفيرمونت " في سان فرانسيسكو ، الفندق الفخم الذي يشبه الأساطير ، في نهاية شهر سبتمبر لعام ١٩٩٥م أكبر منتدى اقتصادي يرأسه ميخائيل جورباتشوف ، آخر رئيس للاتحاد السوفياتي بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، و بعد أن سلَّم جورباتشوف الاتحاد السوفياتي إلى التفكك والضياع . ولقد قدرت الرأسمالية هذا العمل العظيم لجورباتشوف فأقاموا معهداً باسمه في أحد أهم أماكن سان فرانسيسكو ، ثمَّ أقاموا هذا الاحتفال الضخم في هذا الفندق الأسطوري برئاسة جورباتشوف ، وحضره أكثر من (٥٠٠) خمسمائة من رموز العالم ، كان من بينهم : بوش ، تاتشر ، شولتس ، ورؤساء أكبر المؤسسات في العالم ، ليناقشوا مستقبل البشرية مع العولمة كيف يكون ؟![١]

وانتشر هذا السؤال في أوساط متعددة أكاديمية وإعلامية . وظل السؤال حول الرأسمالية ، هل ستعقل الرأسمالية وتوقف ظلمها وعدوانها لترعى وتحافظ على حقوق البشر الضعفاء ؟! أم أنها ستمضي على بشاعتها إلى مزيد من الجرائم والفتن ؟!

لا أدري كيف أجاب المؤتمرون في أجواء الأساطير عن هذه الأسئلة . ولكنني أتساءل : وهم يعيشون في ذلك البذخ الكبير ولين الحياة في نومهم ويقظتهم من فراش ناعم وطعام شهيّ أثير ، هل كان أحد منهم يحس بآلام الفقراء والجوعى والمرضى الذين يبحثون عن كفاف العيش وقطرة ماء ؟! هل كان أحد منهم يحس بالأطفال الذين يتلوَّون جوعاً في أحضان الأمهات اللائي جفَّ لَبنهنَّ ؟! لا أظنَّ ذلك أبداً ! فالمتخمون لا يمكن أن يحسُّوا بالجوعى والفقراء والمساكين ! ولا يحبُّون أن يتذكروهم أبداً ! فكيف يمكن أن يخططوا للعالم ويعالجو مشكلاته ؟!

---

(١) د. بركات محمد مراد : مرجع سابق ، ص : (٨٨-٨٩) .

لقد كان النعيم الذي يعيشون فيه ابتلاء من الله لهم، ليقيم الحجة عليهم بما ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم. إنه ابتلاء أورثهم الخدر والسكر، وغاصوا في وحول اللهو والملاهي والشهوات، فسُدَّت أسماعهم فهم لا يسمعون الأنين، وغُشِّيَ على أبصارهم فلا يرون الجوعى! وجمدت مشاعرهم وإحساسهم فلا يشعرون بآلام الناس، ولا أنَّاتهم، ولا صراخهم، ولا استغاثاتهم. سَدَّتْ وحول الشهوات أسماعهم وأبصارهم، وتبلَّد حسُّهم!

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٤]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

إنَّ هؤلاء الذين يجتمعون في ذلك الفندق، ويبحثون مستقبل العالم، كيف يستطيعون أن يبحثوا وعلى كاهل كل واحد منهم من الجرائم ما لا تقوى الجبال على حمله. كيف ينسون ما كسبت أيديهم من فتك وقتل وإبادة في مختلف نواحي الأرض. كيف يجرؤون أن يتحدثوا عن " الإنسانية " أو " العدالة " أو " الحرية " ؟!

الباب الثالث

العولمة
بين الإعلام المضلّل
والممارسة الفاسدة

الفصل الأول : الإعلام المضلل وفشل الحضارة الغربية في إنقاذ الإنسان.

الفصل الثاني : العولمة تحول أمور الحياة كلها إلى تجارة مادية خاسرة.

الفصل الثالث : العولمة وباء الإيدز الاقتصادي .

الفصل الرابع : عولمة فاسدة وعدالة كاذبة وحرية مزيفة خادعة .

الفصل الأول

الإعلام المضلل

وفشل الحضارة الغربية في إنقاذ الإنسان !

لقد امتدَّ الإعلام الأمريكي إلى مناطق متعددة في العالم ، يحمل زخرف الحضارة الأمريكية مثل : الأغاني والرقص وأفلام الجنس . امتدت مظاهر هذه الحضارة إلى التِّبت وإلى أعماق منطقة الأمازون وإلى قبائل الهنود الحمر . فهناك خمسمائة (٥٠٠) قمر صناعي تبث برامج " الحداثة " على شرق روسيا وإلى إيران . والشباب المراهقون هنا وهناك انتزعتهم هذه البرامج من حياتهم السابقة ورمتهم في أجواء " الروك أند رول " وغيرها .

لقد أصبحت " والت ديزني " تغزو العالم بما فيها من تنوّع يجذب النفوس وبما يوفّره الإعلام الأمريكي من سبل الانتشار . وعلى نفس الأسس انتشر " ميكي ماوس " متفوقاً على رموز كثيرة بالشهرة والانتشار .

" روبرت مردوخ "Rupert Murdouch" يملك أقماراً صناعية يبث بها صوراً لحسناوات صينيّات وكوريات وهنديات وعربيات على منطقة واسعة من العالم العربي .[1] وهناك مؤسسات إعلامية عملاقة أخرى تتنافس كلها على بثّ ما يدغدغ الأحلام ويولد ما يسمى "Titty tainment" إثارة الأهواء وتفلّت الأحلام، منها : مؤسسة الألماني : "Bertlsman" ، ومنافسه Leokirch " و " Silvio Berlusconi، وكذلك مغنّو الأوبرا : و" خوسيه غاريراس : "Jose Carreras" ، وبلاتشيدوا دومنغو ، و" لوسيانو بافاروتي Lciano Pavarotti : يعطون لكل بلد أغنيته وموسيقاه المحبَّبة له ولشبابه المراهق، لتخلُبَ لُبَّهم وتُغرقهم في أهوائهم وشهواتهم . يضاف إلى ذلك الدعاية الإعلامية الواسعة لمباريات كرة القدم وكرة السلة والرياضة بعامة .

---

(١) انظر : فخ العولمة ، ص (٤٧) .

لقد أصبح الإعلام طوفاناً يلهبُ الشهوات ويقتل العزائم ، ويفسد الفطرة ، ويميت النخوة ويقتل الوقت ويخدر النفوس .

هذا الطوفان الإعلامي الممتد على مساحة الكرة الأرضية من التبت إلى غابات الأمازون ، ومن القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي ، لا شكَّ أنه أوجد نوعاً من الميول المنحرفة والطباع الفاسدة المتقاربة ، كأنها تبني في الأرض عولمة خاصة بها ، يمكن أن نسميها " عولمة الإفساد والتدمير " ، وقد تُنْشئ بين أناس هنا وأناس هناك علاقات تقوم على المتع الرخيصة والفتن الكثيرة .

وليست الأفلام والصور وبضاعة الأعلام وحدها تنشر الفتن والفساد ، فهنالك جوّالون وممثلون وسائحون يُسْهمون في ذلك النشاط ، ومعهم الممثلات والسائحات ، وأصبحت السياحة باباً من أبواب الفتنة والإفساد !

ولقد نشأت مدن تحمل زخارف هذه الحضارة . ففي كوالامبور عاصمة ماليزيا أعلى ناطحات سحاب في العالم . وقامت بكين وشنغهاي يعلو فيها البناء ، وتعلو الناطحات بدلاً من برلين ، وبانكوك محل ديترويت في صناعة السيارات ، وأخذت اليابان تنتج سيارتها في تايلند ، وأصبحت " تايبيه " وريثة وادي السيلكون، وأصبحت بومبي تنتج من الأفلام أضعاف ما تنتجه هوليود .

ومدينة مثل " شنغهاي " أصبحت تتطلّع لتكون المركز الاقتصادي الأول لتنافس طوكيو ونيويورك . فتقوم منافسة هوجاء وتثور عواصفها بحيث لا يبقى مكان للنائمين والخاملين . صراع عنيف وتنافس رهيب على مراكز دنيوية من تجارة وبناء وصناعة ، لا تحمل معها رحمة على الضعفاء والمساكين ، وكأن العالم أصبح سوقاً تجارية واحدة ! فهل هذا يفرح ويسرّ ؟! كلا ! لأن هذه السوق يقف فيها كبار المجرمين في الأرض يدوسون كل خامل وضعيف يقترب من السوق ومفاسده وشروره . فهي عولمة مخنوقة على فريق من البشر ، فلا مجال لنموّ مطّرد يضم البشرية كلها . إنها عولمة أهواء وأصحاب الأهواء .

وبناء " القرية الأولومبية العالمية : Glogal Olympic Village" اقتضى هدم منازل الفقراء المحشورة بين المباني الشامخة للشركات الكبرى . ولم تستطع الألعاب الأولومبية بكل ما فيها من متع أن تُخْفي زيف صداقة الشعوب ، الزيف الذي تغنيه قصائد وأغان متنوّعة .

إنَّ جميع المدن الشبيهة بأتلانتا بالتقنية العالية من ناحية ، وبعدم الاهتمام بالمشاعر الإنسانية الحقيقية ، أصبحت أشبه ما تكون قلاعاً للاقتصاد وقلاعاً للثراء الطاغي ، يحيط بها موج من البشرية الفقيرة .

ربما كانت لا مبالاة الأثرياء في أحضان الثراء الفاحش لا مبالاة مخجلة ، ولكنها تحوّلت مع الاستمرار والمداومة إلى كبر وغرور ، ووهم لا بدَّ أن ينجلي مع الأيام على سنن لله ثابتة في الحياة الدنيا .

إنك تجد أن (٣٥٨) إنساناً ملياردير اً فقط في العالم يملكون ثروة ٥ , ٢ مليار من سكان المعمورة . ومع تحول اللامبالاة من خجل إلى كبر وغرور ، أخذت المساعدات التي تقدمها الدول الصناعية إلى الدول النامية تنخفض شيئاً فشيئاً .

مساعدات ألمانيا انخفضت من (٣٤ , ٠) إلى (٣١ , ٠)، ومديونات الدول النامية ارتفعت منذ سنة ١٩٩٦م إلى ٩٤ , ١ ألف مليار دولار ، أي ضعف ما كانت عليه قبل سنوات .(١)

هذه صورة مأساوية من العولمة ، فبهذه العولمة يزداد ثراء المجرمين ويزداد فقر المعوزين . فأصبح الناس يلتفتون إلى مخرج لا يجدونه إلا في حروب بين الدول ، فتلك تَصُبُّ ثمرتها في جيوب كبار المجرمين . ولكنهم يفتنون في داخل بلدهم لتقوم حروب أهلية ، كما حدث في جنوب أفريقيا ، فبعد انتهاء سياسة التمييز العنصري بعام واحد قتل (١٧ ألف) في سياق الصراع الداخلي العنصري .(٢)

(١) المصدر السابق : ص (٦٠-٦١) .
(٢) المصدر السابق ، ص : (٦٣) .

أما القارة الأفريقية فقد غزتها عولمة الفقر والمرض . كبرى مدنها : " أبيدجان ، ولاغوس ، وفريتاون " ، والكاميرون ، وسيراليون ، حيث يختفي الأمن فيها مساءً . وينتشر في أفريقيا " الإيدز " و ١٠٪ من سكان عاصمة ساحل العاج مصابون بالإيدز ـ مرض نقص المناعة ـ . إن أفريقيا تُبيّنُ لنا خريطتها وأوضاعها السياسة أكبر الأمثلة على أكاذيب وبطلان العولمة مما يشعل في معظم مناطقها حروباً فتاكة كما حدث في رواندا وبورندي ، ودول أخرى معرّضة للحروب أيضاً، مثل زائير ومالاوي وغيرهما . وتشمل أفريقيا أفقر بقاع الدنيا ومع ذلك تشهد أعلى نسبة لزيادة السكان . ومناطق أخرى من العالم تشكو من ندرة المياه وخاصة في بعض بلدان العالم الإسلامي . إلا أنَّ هذا الجزء من العالم، جزء العالم الإسلامي، سيجد من إسلامه قوة تعطف على المقهورين والمظلومين ، فيصبح الإسلام أكثر جاذبية . فالإسلام دين مستعدٌّ للمنازلة والجهاد .

صموئيل هنتجتون كتب مقالاً أولاً ثمَّ أصدر كتاباً بعد ذلك حول " صراع الحضارات " ، ويقول في ذلك إنَّ المستقبل سيتحدد من خلال صراع الحضارات . ولكننا نقول إنَّ المستقبل يحدِّده الله سبحانه وتعالى من خلال سنن ربَّانيَّة ثابتة ، أغفل الناس قلوبهم عنها وأغمضوا أعينهم .(١)

ولا يقتصر الأمر على أفريقيا وأحوالها السيئة ، فانظر إلى الهند يموج فيها أكثر من مليار إنسان ، وتنمو المدن دون تخطيط واع ، مما يفسد البيئة بالدخان من وسائل النقل ، مما يولد أمراضاً في الأطفال كالتهاب القصبات . ويموت كلَّ سنة ٢٢٠٠ إنسان في حوادث المرور . وبومباي مثل واضح ، فمع الأثرياء يعيش فقراء مسحوقون ، وعلى البلدية أن تجمع يومياً ألفي طن من القمامة ، والمدينة بحاجة إلى مائة ألف بيت خلاء ، وتحار البلدية كيف تدير شؤون المدينة، خاصة وأنها لا تستطيع أن توفر أكثر من ثلثي الماء الضروري . ولذلك ينزح على المدن الكبيرة أولئك الذين يجدون فرصة عمل . ولكن فقراء المدن الكبيرة في وضع أسوأ من الفقراء النازحين ، فإن وجد النازحون فرصة عمل ، فالمقيمون لا يجدون .(٢)

---

(١) المصدر السابق ، ص : (٦٤-٦٥)

(٢ المصدر السابق ، ص : (٦٦) .

أحد الوزراء المسؤولين في أوروبا أشار على رئيس وزراء الصين أن يلتزموا بحقوق الإنسان . فأجابه : هل أنتم في أوروبا قادرون على إيواء (١٠-١٥) مليون صيني سنوياً تؤمنون لهم المسكن والطعام ؟!

كثير من المسؤولين والمفكرين تحدَّثوا عن مأساة العالم المعاصر ، ولكن هل أسهم هؤلاء في معالجة مشكلات الفقر والمرض والجوع ؟!

لقد أصبح من الواضح أن حضارة الغرب كلها حضارة أوروبا أو حضارة أمريكا أو غيرها فشلت فشلاً تاماً في بناء حياة نظيفة آمنة للإنسان على الأرض . لقد عمَّ الخوف والهلع الناس من لهيب الحروب التي أشعلت داخلياً أو خارجياً ، وظلت مآسي الإنسان تزداد وتزداد ، وجميع الوعود التي أطلقها مسؤولون في أمريكا أو أوروبا لم يتحقق منها شيء .

وأصبح الواقع المزري كأنه يقول : من يستطيع إنقاذ نفسه فلينقذها . إنَّ الرأسمالية ونموّها المرعب ، والديمقراطية وإعلامها المدوّي ، لم تحقق للإنسان أمناً أو راحةً أو معالجة الفقر والمرض !

أصبحت حقيقة التطور الذي استغلَّ كلَّ التقدّم العلمي تدهوراً اقتصادياً وتدميراً للبيئة ، وانحطاطاً للثقافة . إن ٢٠٪ من سكان العالم يملكون أكثر من ٨٤٪ من الناتج الإجمالي للعالم ، وأكثر من ٨٤٪ من التجارة العالمية الدولية ، وازدادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، وفشلت المساعدات الاقتصادية للتنمية التي كانت تعد بالعدل والإنصاف ، وكأنَّ العالم وقع بين فكّين : فك العولمة وفك التفكك والتمزق . قوتان متعاكستان ![1]

أما بالنسبة للموارد الطبيعية فما زالت النسبة القليلة من الناس تستأثر بالنسبة العالية من الموارد. فموارد الطبيعة خلقها الله ولم يصنعها الإنسان ، فهي للناس كافة ، للإنسان . أما وعود بعض الدول بتخفيض التلوّث البيئي الناتج عن ثاني

---

(١) المصدر السابق : ص (٦٨-٧٩) .

أكسيد الكربون في الدول الصناعية ، لم يتحقق منه شيء ، ومضت الدول الصناعية في سياستها الرأسمالية لتزيد من التلوث غير آبهة بمقررات مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة في ريودي جانيرو سنة ١٩٩٢م .

وبعث الله من عنده ابتلاءً ونذيراً للناس حتى يتفكّروا ويرجعوا عن غيّهم وفتنتهم ، فكان طوفان " تسونامي " ، وطوفان " جاوة " ، وطوفان سواحل أمريكا، وكذلك الزلازل والبراكين ، وما زال هذا مستمراً ، وما زال بعض الناس يعزون كلَّ ذلك للطبيعة ! ما هي الطبيعة ؟! كيف تفكر وكيف تعمل ؟! نسوا أن الله خالق كل شيء ، وخالق الطبيعة ! وكلُّ شيء بأمره وقضائه وقدره على حكمة بالغة !

كتَّابٌ كثيرون استعرضوا هذه المآسي ، ومؤسساتٌ أيضاً مثل : معهد واشنطون للثروات الطبيعية العالمية ، مؤتمر قادة الدول السبع الأقوى اقتصادياً ، " مؤسسة " سيمث سونيا : " Smith Sonia" في واشنطن ، فكانت ترى أن الجهود المبذولة ستبدو نتائجها نجاحاً أو فشلاً في التسعينيات ، وهذه الجهود وسقوط جدار برلين ، كلّ هذا كان يعطي أملاً بأن يُفيق المجرمون ليصرفوا جهودهم على حلِّ مشكلات المعمورة . ولكن لم تحل المشكلات ، لسبب رئيس هو أنَّ المشكلة الكبرى هي أنفسنا ، في أنفس الظالمين ، وفي أنفس المظلومين التابعين المستسلمين . فالعدوّ الحقيقي هو أنفسنا .

والكارثة الأخرى التي تهدد العالم هي : القمح ! فالصين لأول مرة تستورد القمح ! فإذا جاعت الصين من سيطعمها ؟!

انخفض مخزون احتياطي القمح والذرة والأرز وسائر الحبوب سنة ١٩٩٥م ، وفي سنة ١٩٩٦م أصبح المخزون المتوافر يكفي مدة (٤٩) يوماً . أين الخلل ؟! فالله سبحانه وتعالى خلق الأرض وخلق فيها ما تحتاجه البشرية إلى أن تقوم الساعة :

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٩، ١٠]

فالله سبحانه وتعالى قد جعل في الأرض أقوات البشرية كلها وبارك فيها، فلمَ تكون مجاعة أو فقراء أو انخفاض في مخزون القمح ؟! إنه الإنسان نفسه يَظلم نفسه، وهذه صورة من ظلم الإنسان للإنسان. إنه ابتلاء وتمحيص للرأسماليين والديمقراطيين والقادة والأثرياء الغارقين في ثرائهم، لا يسمعون أنَّات الجوعى ولا صراخ المرضى، ولا يرون المآسي في الأرض، سُدَّتْ أبصارهم وأسماعهم. فاليابان وكوريا الجنوبية وتايوان حولت ٤٠٪ من الأراضي الزراعية المخصصة لزراعة الحبوب إلى مصانع. وارتفعت أسعار الحبوب عالمياً. الصين تستورد سنة ٢٠٠٠م ٣٧ مليون طن قمح، مع أن مجموع صادرات العالم من الحبوب (٢٠٠) مليون طن.[1]

ونتيجة للفقر والبطالة والحروب اشتدت هجرة الكثيرين من أوطانهم إلى بلاد يحلمون أن يجدوا فيها العسل. قبل قرن هاجر من إنكلترا (١٨) مليون مهاجر مما يعادل سبعة أضعاف سكان لندن آنذاك. واليوم تزداد أزمة الفقر مما يدفع إلى هجرة جديدة! ولكن إلى أين ؟! أين يوجد أحلام العسل ؟! والهجرة اشتدت من الجزائر والمغرب وتونس. وأوروبا تحاول منع الهجرة، ولكنها لا تستطيع ذلك. لأن ملايين الفقراء حشودٌ تقتحم منافذ للهجرة أو تحاول أن تشق لها منافذ.

(١) المصدر السابق، ص: (٨١-٨٤).

الفصل الثانـي

العــولـمـة

تحوّل أمور الحياة كلها إلى تجارة مادية خاسرة

إنَّ التحول والتغيير في المجتمع البشري ظاهرة واضحة في التاريخ البشري . ولكن عند التدقيق والدراسة ، وربط الأحداث ، نجد أن هنالك سنناً ثابتة في الحياة البشرية . ومن بين مظاهر التطور والتحوّل ظهور المصطلحات الجديدة مع كل عصر ، ترافق مظاهر التغيير .

ففي واقع القرن العشرين والواحد العشرين ظهر مصطلح " Globalization " ، الذي ترجم إلى العولمة ، ومصطلح " Global Culture" وترجم إلى الثقافة العالمية ، ويترجمها بعضهم إلى الكونية . ومن الستينيات في القرن العشرين ظهر كتابان : "Pace in the Global Village" للكاتبين مارشال ماك لوهان " Marshal Mc Lohan" و كنت فيور : " Quentin Fior"، وكذلك كتاب :

" Between tow Ages Americans Role in the Technotronics era " لمؤلفه زيغينو بريجنسكي "Zhigiew Brzesinki" (1) يبيّن الكتاب الأول كيف أنَّ الإعلام التلفزيوني حول المواطنين من مشاهدين إلى مشاركين في قضية فيتنام ، وأنَّ الإعلام الإلكتروني يؤثر في أيام السلم ويدفع إلى تغيير اجتماعي .

أما بريجنسكي فاعتمد مصطلح " المدينة الكونية : Global"، وليس القرية الدولية حيث تداخلت تأثيرات الكمبيوتر والتلفزيون والهاتف والاتصالات اللاسلكية ، مما حول العالم إلى عقدة علاقات متشابكة ومتداخلة بصورة متوتّرة ومتحركة (2). واعتبر أن الولايات المتحدة هي " المجتمع الكلي : Global" الأول في التاريخ . وهذه معلومة خطأ بالغ فيها بريجنسكي ونسي التاريخ . نعم ! إن

---

(١) د. بركات محمد مراد ، مرجع سابق ، ص : ٩٤-٩٥ .
(٢) المصدر السابق . ص : ٩٥

الارتباط الحالي تقني لم يربط قلوب الناس ومعتقداتهم حول تصور واحد . **ولكن الإسلام قبل ذلك بقرون ربط مساحة كبيرة من العالم بتصور فكري واحد ،** كان هو الأول في التاريخ البشري بالرغم من عدم وجود وسائل الاتصالات المتوافرة اليوم .

وقوي انتشار مصطلح : " Globalization" في ميادين متعددة من النشاط ليدلَّ هذا المصطلح على العمل والحركة ، أما مصطلح : " Globalism" فإنه يدل على الظاهرة ، واستخدمت في العربية مصطلحات أخرى بديلاً عن العولمة ، مثل : «الكوكبيَّة ، والشوملة ، والسلعنة [1]، والقرية الكونية» .

وأخذ نفوذ أمريكا يتصاعد بعد الحرب العالمية الثانية ، التي خرج منها الحلفاء الأوروبيون منهكين ، وخرجت أمريكا قوية بما قدَّمت من دعم كبير للدول الأوروبية في الحرب . وانهيار جدار برلين عام ١٩٨٩م ، وكذلك انتهاء الحرب الباردة بين الكتلتين الكبيرتين ، وتفكك كتلة الاتحاد السوفياتي ، كلُّ هذا جعل أمريكا وحيدة في الميدان ، مع قوة اقتصادية كبيرة ، وقوة عسكرية وإعلامية متصاعدة . ولعلَّ هذا هو الذي أوحى لفرانسيس فوكوياما أن يُعلن نهاية التاريخ إعلاناً خطأً ، لأنَّ التاريخ لم ينته ، ولن ينتهي إلا حين تتم سنن الله ، وتقوم الساعة !

ولكن مع هذا الوضع الجديد وتفرُّد أمريكا بقوّتها في الساحة الدولية ، ازدادت الرأسمالية قوة ونفوذاً في الأرض ، وأصبح الإعلام ووسائله أدوات تسويق . ومع كلِّ هذا النمو وقوة التسويق واستغلال جميع الإمكانات والوسائل ، بقي الجائعون في الأرض على جوعهم أو ازدادوا جوعاً وعدداً ، وبقي الفقراء فقراء أو ازدادوا فقراً وعدداً ، وبقيت الحروب تفتك بالملايين من البشر ، وبقيت الفتن والجرائم تمتدُّ في الأرض ، ولكنْ ظلَّ المتخمون في تخمتهم منعَّمين ، وفي شهواتهم غارقين ، لا يمكن أن يحسوا بالآم المحرومين ، ولا يسمعوا أنين المصابين ، ولا يروا سوء حال المعدومين ، وظلَّت شعارات الإنسانية والحريَّة والعدالة تدوّي

(١) د. بركات محمد مراد ، ص : ٩٦ .

في الأرض وتطغى على صوت كل شكوى أو أنين ! وظلَّت أمريكا مهيمنة تدفع هذه المصائب والفواجع والحروب والإبادة ، وظلَّت أمريكا ممسكة بالنظام الاقتصادي الدولي ومؤسساته ، وامتدت لغتهم إلى مختلف بقاع الأرض . إنَّ الظلم ما زال ممتداً في الأرض يزداد ويبتلع ضحايا جديدة من بني آدم .

لقد أصبحت المؤسسات التجارية والاقتصادية كلها تخدم هذا الاتجاه من الظلم الوحشي المفترس . وأصبحت " **منظمة التجارة العالمية** " تجسِّد التسلط الجبار في صورة قاسية ، وأصبح العالم ينقسم إلى قسمين : الشمال الغني الذي يملك الثروة والسلطة والقوة ، والجنوب الفقير المتخلف ، الذي تزداد أوضاعه سوءاً . كما يقول عالم الاجتماع السويسري "جون زيغلر " بأنَّ منظمة " التجارة العالمية " تعني في جملة ما تعني موتاً محققاً للعالم الثالث . وأصبحت هذه المنظمة تمثّل الانتصار الساحق لدكتاتورية رأس المال وما يتبعها من جرائم وظلم في الأرض .

ولكن هنا تبدو سنن الحياة . فلا يعقل أن يستمر هذا الظلم هانئاً متربّعاً على عرشه مطمئناً على سلطانه . فقد بدأت تظهر من دول العالم الثالث قوى معارضة. لا بدَّ أن تنمو وتشتد . ففي مؤتمر " سياتل " لمنظمة التجارة العالمية ، ظهرت ثورة على انفراد أمريكا بزعامة العالم تجهر بها الدول النامية ودول الاتحاد الأوروبي ، واليابان وكوريا الشمالية . والبيان القصير المقتضب الذي صدر عن الاجتماعات أدان سلوك أمريكا ومواقفها في النطاق الدولي وطالب بإعادة تقويم نظام التجارة الدولي .(١)

إنَّ هذا يعني أن هنالك تحرّكاً مناهضاً ليس لشرور العولمة ، ولكن لانفراد أمريكا بالسيطرة . كلهم يصارعون ولكن في ميدان الظلم الممتد . إنه صراع بين المطامع والمصالح المتضاربة . كلهم رأسماليون ، يعيشون في ظلال النظام الرأسمالي دون أن يكفروا به أو يقاوموه . إنهم ظالمون لا يقاومون الظلم ، ولكن

(١) المرجع السابق : ص ، (١٠٣) .

يريدون أن يشاركوا فيه أو يتولوه هم بدلاً من أمريكا . إنه ليس تنافساً على الخير، إنه تنافس على الشرِّ ، وهذه سنَّة من سنن في الحياة :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]

﴿ .... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج: ٤٠]

﴿ ..... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥١]

والذي يعجب له الإنسان حق العجب هو أنَّه لم يكن من بين هؤلاء العلماء والقادة من يفكّر حقاً بالإنسان ، من يفكر بغيره وبغير شعبه ؟! ألم يكن منهم من يفكر تفكيراً إنسانياً عالمياً يخرج به من سيطرة العصبيات القاتلة ، والأنانية المفسدة ؟! على مدار التاريخ البشري ، نرى هذا الصراع والتنافس هو نفسه ، لا يختلف إلا من حيث الشدَّة وزيادة الوسائل التي لا تستخدم إلا لتزيد من حُمَّى هذا التنافس الظالم ! ولا نجد النظرة الإنسانية العالمية إلا لدى الرسل والأنبياء الذين يُغفل التاريخ ذكرهم إلا قليلاً ، والذين يزيح الظالمون سيرتهم عن واقع حياة الناس ، أو يحرِّفونها لتوائم أطماعهم ومصالحهم ! ولولا هؤلاء الرسل والأنبياء والعدد القليل من المصلحين الصادقين ، لعمَّ الفساد كل بقعة في الأرض ، بما يفعله الظالمون المجرمون . واستمع إلى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧]

نعم ! لقد انكشفت عورات " العولمة " ومفاسدها ، وعرفها بعض المفكرين،

ولكنهم لم يحملوا رسالة إنسانية يجاهدون من أجلها لإنقاذ المظلومين والمسجونين، ولدفع أذى المجرمين في الأرض . وإنما كان يقوم رجال ليستبدلوا ظلماً بظلم ، وفساداً بفساد ، كلٌّ يغطي فساده بشعارات ووسائل الزينة والزخرفة والتخدير . وفي الوقت نفسه قام أناس يدافعون عن العولمة وعن أمريكا . ففي كتاب " **جنون العولمة** " لـ " **غاري بيرتلس** " وآخرين ، كَشْفٌ لبعض مثالب العلمانية ، إلا أنَّ المؤلفين يرون أنها الطريق الوحيد أمام الأمريكيين إذا كانوا يريدون حقاً تحقيق هدفين رئيسين لهم : زيادة الإنتاجية ، ورفع مستوى المعيشة . هذه هي قضيتهم ، وليست الإنسان ! المادّية الذاتية ، والتنافس والصراع عليها ، دون النظر إلى الإنسان كإنسان خلقه الله وكرَّمه ، ودون النظر إلى البشرية كلها نظرة واحدة كما توحي لفظة " العولمة "، حتى كأنَّ " العولمة " أصبحت تعني سيطرة فرد أو شعب بمصالحه وأهوائه على العالم كله ، حتى يتسنَّى له نهب ثروات الشعوب واستغلال طاقاتهم لخدمته هو وحده .

هنالك نحو (٥٠٠) شركة عملاقة عابرة للقارات ، هي الأقوى والأغنى والأشرس ، وتسيطر على نحو ٧٠٪ من حركة التجارة العالمية ، وتستقل بإرادتها ومصالحها وسياساتها عن سياسات الدول ، وهذا الكيان العملاق يصوغ لنفسه مصالحه وأفكاره وأهدافه غير متأثر بما تعارف عليه العالم : جشع طاغ ، وقوة مسيطرة ، وأهواء متفجرة ، تزيد الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، حتى في أمريكا نفسها وغيرها .

خلص من ذلك أنه لا يوجد رؤية واحدة " للعولمة " ، ولكنها في جميع الرؤى هي حركة رأسمالية وسيطرة اقتصادية تؤثر في ميادين مختلفة من العالم ، وتستغل هذه الميادين نفسها لزيادة سيطرتها وامتدادها . وهنالك قوى معارضة أيضاً .

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وخروج أمريكا أقوى وأشدَّ ، وحلفاؤها الأوروبيون منهكون ضعفاء ، أبرز هذا الوضع ما كان يسمى بالنظام العالمي الجديد .

وقد برز أثر هذا النظام العالمي الجديد في حرب الخليج الثانية حيث اعتمدت أمريكا عليه لتقود العالم أو جزءاً كبيراً من العالم إلى هذه الحرب ، دون وجود مسوِّغات تجمع هذا الجمع إلا سلطان أمريكا وسيطرتها . وأعلن الرئيس بوش مبادئ في سياسة أمريكا لم تخرج عن تأكيد مصلحة أمريكا ذاتها قبل كلِّ شيء . فكان من بين ما يقول :

" ليس للولايات المتحدة النية أن تفرض حلفاً أمريكياً ، ولكن سنظل ملتزمين ولن ننسحب أو نتقوقع في الانعزالية ، نحن نقترح الصداقة والقيادة [1]. ولقد وفَّرت أمريكا لنفسها أهم المؤسسات التي تعينها على ممارسة القيادة العالمية ، وأهمها : وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ، الجيش الأمريكي ، جيش البحريَّة الأمريكية ، الوكالة الأمريكية للاتصال العالمي ، وغير ذلك .

وقد قسمت أمريكا العالم إلى مناطق نفوذ ، يخطط لكل منطقة طاقات متفرّغة لعملها ، يخططون ويهندسون ، وينظمون المؤامرات والاغتيالات والانقلابات ، وتعمل بكل الوسائل على فرض النموذج الأمريكي تمهيداً للسيطرة والهيمنة والتدخل في جميع أشكاله سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً ، تحت شعارات التعاون والتبادل وغير ذلك ، وبذلك ملكت القدرة على تسخير المؤسسات الدولية مثل مجلس الأمن وغيرها .

ومن هنا ، تصبح العولمة خطراً حقيقياً على الجميع ، وبخاصة على الدول النامية ، ومن بينها العالم العربي والإسلامي ، حين تطلع العولمة متخفية وراء مصطلحات مغرية كاذبة خادعة : من إنسانية وحرية ، وعدالة ، وغير ذلك . وأصبحت معظم وسائل الإعلام وأجهزتها تحت السيطرة الأمريكية ، أو سيطرة قوى العولمة المتفاعلة مع أمريكا . ومن السيطرة الإعلامية التي تعاونها مؤسسات أخرى وأجهزة المخابرات ، والشركات العملاقة ، ورؤوس الأموال الضخمة ،

(١) باتريك هرمان : «العالم حسب بوش ، ميلاد نظام عالمي جديد في القانون الدولي وسياسة المكيالين» ، تعريب أنور مغيث ١٩٥٥ ، ص : ٣٨ . ود. بركات محمد مراد ، ص : ١٣٤ .

من هذه السيطرة تمتدُّ سيطرة أخرى سياسية واقتصادية وثقافية وفكرية . وتنصب الويلات والمشكلات على الدول النامية ، التي تُسْتَغَلُّ مع ضعفها ، لتخدم مصالح قوى العولمة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

وينقل الدكتور بركات محمد مراد عن صحيفة "The Times" في ١٤/ ١٢/ ١٩٩٧م في " مؤتمر كيوتو للبيئة " والذي انعقد في اليابان أواخر تشرين الثاني ١٩٩٧م ، ضغطت الدول الصناعية الكبرى على الدول النامية كي تدفع ثمن تدهور البيئة العالمي ، التدهور الذي تسبَّبت فيه تكنولوجيا تلك الدول الصناعية الكبرى ، حيث اتفق الجميع على أنَّ مشكلة سخونة الأرض تتزايد مع الوقت ، وهي ظاهرة عالمية ، لذلك بات على الجميع أن يخفف من نسبة التلوث البيئي . وقد وضعوا على الدول النامية حصة أكبر مما تُسبِّبه من تلوث بيئي قياساً بما تفعله تكنولوجيا الدول الصناعية .(١)

إنَّ العولمة تسعى أن تحوّل العالم إلى سوق كبير تتم فيه كل أنواع المعاملات التجارية من أبسطها إلى تجارة الرقيق والدعارة والرياضيين المحترفين.

وهناك من يرى أن للعولمة نواحيَ إيجابيَّة مثل : الثورة العلمية والثورة التكنولوجية ، مما يربط العالم بعضه ببعض ، والثورة المعلوماتية التي تقدم المعلومات فوراً إلى مختلف أرجاء الكرة الأرضية . وربما تجدها تقدم خدمات بأسعار زهيدة أو دون ثمن . إنَّ التقدم العلمي سريع وهائل يولِّد قوى كاسحة في حياة الناس . وإن ازدهار العلوم وانتشارها ، وتزايد الاختراعات والاكتشافات الجديدة تظهر في كل دقيقة أو ساعة من الزمن . فقد بلغ عدد الاختراعات المسجلة في الولايات المتحدة وحدها خلال عام ١٩٩٨م أكثر من " ١٥١ " ألف اختراع كما ذكرت ذلك صحيفة الخليج ١٦/ ١/ ١٩٩٩م .(٢)

إنَّ الثورة العلمية التكنولوجية أطلقت حركة الأفراد وعجّلتها ، وقرَّبت

(١) د. بركات : مصدر سابق : ص (١٤٠) .
(٢) د. بركات : مصدر سابق : ص (١٤٩) .

المسافات وحرَّكت رؤوس الأموال والسلع والأفكار حركة سريعة مذهلة ، أسكرت الكثيرين حتى لم يعودوا يستطيعون أن يروا الانحراف الخطير في حياة الإنسان ، الانحراف ، الذي جعل المادة والتنافس عليها هي فلسفة الحياة والوجود ، نسوا الموت الذي هو حقٌّ قاهر للخلق ، ونسوا ما بعد الموت ! وحين تنكشف حقائق ما بعد الموت والدار الآخرة ، فمن ينقذ هؤلاء الذين غرقوا في المادة حتى لم يعودوا يرون ولا يسمعون ؟!

لقد غلب على الناس ما يسمّونه " التفكير العلمي " ، وكأنَّ الحقّ هو ما يقرره العلم البشريّ ، وهو الذي يمنّ الله به على عباده أن هداهم إليه ، ليعبدوه به ويضعوه في طاعته ، فانحرفوا بالعلم وعبدوه بدلاً من أن يعبدوا الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥]

ظاهرة واضحة في التاريخ البشري ، كلَّما أنعم الله على عباده بعلم وفضل منه ، حسبوا أنهم هم أصحاب الفضل ، وهم الذين أوجدوا هذا العلم ! وستظل هذه الظاهرة ماضية في الحياة ابتلاء منه سبحانه وتعالى . إلا أن الفضل كله لله ، وأنه لولا هداية الله للناس وفضله عليهم ما عرفوا هذا العلم أو ذاك .

ولكن هداية الله للناس إلى علم من العلوم ، كان يرافقه جهد من الناس وبحث هداهم الله إليه كذلك . فمنهم من آمن واهتدى ، فعرف فضل الله عليه ، ثمَّ أناب وشكر ، ومنهم من ضلَّ وأنكر واستكبرْ ، وغرَّته نفسه . فهذا هو الابتلاء العظيم .

الفصل الثالـث
العــولمــة
وبـاء الإيـدز الاقتصـادي

تلجأ الدول التي تحتـاج إلى معونات ماليّة إلى صندوق النقد الدولي(IMF) ، ليساعدها على تسديد ما بذمتها من ديون لا تقوى على سدادها . وهذه المؤسسة ، صندوق النقد الدولي ، يعمل بها ثلاثة آلاف موظف . ومع ذلك ، وبالرغم من هذا العدد الكبير، فإن طلبات المعونة تُدْرس بعد مفاوضات تستمر أحياناً عدة سنوات ، ويُفرض عليهم عند الموافقة شروط قاسية من التقشف وتقليص الأجهزة البيروقراطية .(١)

جابهت هذا الصندوق مشكلة كبيرة حين قررت المكسيك تخفيض عملتها ١٥٪ مما سبب حالة ذُعْر في العالم أجمع . ووعد " كلينتون " رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أن يقفَ بجانب المكسيك ، ووعد بتأمين قرض لها مقداره (٤٠) مليون دولار، وسُمِّيَ هذه " درع البيزو " ، وانخفضت كذلك قيمة العملات : الزيلوتي البولندي ، والبات التايلندي ، والبيزو الأرجنتيني ، وتعاظمت الأزمة ، لتقدّم مثلاً حياً على الأسلوب الرأسمالي الاقتصادي والأزمات التي يتعرّض لها . ثم أخذت قيمة الدولار تنخفض ، فرفع محافظ المصرف المركزي الأمريكي صوته محذراً من أن هروب رؤوس الأموال على المستوى العالمي ولجوءها إلى عملات أكثر جودة كالينّ الياباني والمارك الألماني هو تهديد بالتوجّه العالمي إلى اتجاه " اقتصاد السوق والديمقراطية " .(٢)

ولم يوافق الكونغرس على طلب " كلينتون " الذي اضطر إلى اللجوء للتصرّف بصندوق الطوارئ ، وقيمته عشرون مليار دولار ، وأخذ كلينتون ينادي صناديق أُخرى للمساهمة ، وأصبحت هذه الأزمة تهدد بكارثة عالمية .

(١) فخ العولمة ـ مصدر سابق ـ ص : (٨٧-٨٩) .
(٢) المصدر السابق ، ص : (٩٠-٩١) .

واعترض كثيرون على هذه العملية ، وقال بعضهم إن تأمين القرض عبارة عن هديّة قدَّمها دافعوا الضرائب إلى الأثرياء . وبذلك دخلت مسرح القوى العالمية طبقة سياسية جديدة ، إنها طبقة المتاجرين بالعملات والأوراق الماليّة ، الذين يوجّهون بكل حرّية سيلاً من الاستثمارات المالية تزداد سعة كل يوم ، فيتحكَّمون في رفاهية أمم برمّتها أو إفقارها ، دونما أي رقابة حكومية تذكر (١) .

وأخذ المضاربون يضيّقون الخناق على العديد من رؤساء الحكومات الذين لم يكن لديهم إلا الشكوى ، حتى إن " شيراك " الرئيس الفرنسي سمى المضاربين: " وباء الإيدز الاقتصادي " !

ونمت المؤسسات المالية نمواً انفجارياً ، وتضاعف تداول العملات الأجنبية والأوراق المالية مرات كثيرة على المستوى العالمي في وجه جديد من وجوه العولمة . وانخفضت أسعار الفائدة في أمريكا ، وارتفعت أسعار الأسهم في أقاصي الأرض ، ولم تعد البنوك هي التي تقرر سعر الفائدة ، ولا المصارف المركزية ، ولكن أولئك يتصاعدون كأنهم جيش ذو تسليح الكتروني ، فإنهم يقتنصون الأرباح بسرعة الضوء (٢) .

وأصبح شراء العملات وبيعها هي عمليّة " القمار المدروسة: Educated Gambling " وأصبحت بعض الشركات تحقق أرباحاً بعملياتها النقدية تفوق ما تحققه من بيع منتجاتها ، وظهرت طبقة عمالقة المال ، والشركات التي تعمل وكأنها مصارف ، ومراكز صناديق الاستثمار والمعاشات التقاعدية . والصناديق الأمريكية وحدها تدير مدَّخرات وأقساطاً تقاعدية تزيد عن ٨ آلاف مليار دولار . إنه ينبوع يتدفّق من رأس المال لا ينضب ولا يستقر (٣) . وصار لهذه الصناديق والمشاريع المضاربة مبانٍ ضخمة في غاية الجمال والروعة مما يدل على أهمية النشاط الذي

---

(١) المصدر السابق (٩٢ـ٩٧) .

(٢) المصدر السابق (ص : ٩٨ ـ ١٠١) .

(٣) المصدر السابق (ص : ١١٠) .

يقومون به ، وأهميّة النتائج التي يحققونها ولقد تسبب المضاربون في انهيار نظام النقد الأوروبي في العامين ١٩٩٢، ١٩٩٣م . وهنا غامر الذين يقتنصون الأرباح بأموال مقترضة ، فحققوا أرباحاً لا يستطيع القطاع الاقتصادي الحقيقي جنيها . وأصبح هناك سؤال هام يدور فحواه ، من بيده السلطة، أهي السوق أو الدولة ؟! (١)

صورة أخرى مهمة من صور العولمة العلمانيّة !

أصبح هناك نظام ماليٌّ عالميٌّ جديد ، فقدت فيه الدول سيطرتها على تحرّك رأس المال ، التحرّك الذي أصبح حرّاً رفعت عنه القيود ، ونشأت قوى ذاتية خطيرة تقوّض سيادة الأمم ، وفقدت الدول سيادتها على فرض الضرائب ، وأصبحت الحكومات نفسُها عرضةً للابتزاز . وتولّدت الرغبة في التهرّب من الضرائب ، وذلك لتوافر بلاد يسهل تهريب رؤوس الأموال إليها . فهناك ما يقرب من مئة منطقة متناثرة في أرجاء المعمورة تُدير منها المصارفُ وشركات التأمين وصناديق الاستثمار أموال الزبائن الأثرياء ليتخلَّصوا من سيطرة الوطن الأم ، ويتعهَّدوا بأن تنجو رؤوس الأموال من الضرائب أو تخضع لضرائب متدنيَّة . ومن هذه المناطق التي تهرب إليها رؤوس الأموال : " جزر الكايمن " الكاريبية الخاضعة للتاج البريطاني ، وجزيرة «جيرسي» وجزيرة «جورنسي» الواقعتان في القنال الإنجليزي ، والإمارتان : " لشتدشتاين " و" لوكسمبورج " ، وكذلك مقاطعة " جبل طارق " . فهناك أكثر من مئة ألف ثري نقلوا أموالهم إلى جزيرة جبل طارق . وهناك استثماريون يقدّمون التسهيلات والإرشادات . فتنشأ شركات لا وجود لها في الواقع ولا يُعرَف اسم مالكها وكل ما تملكه صندوق بريد . فهناك مصارف تتولى إدارة رؤوس الأموال الهاربة بصورة سريّة يطمئن إليها المودعون (٢) .

ولقد ولّد هذا العمل نتائج تخريبيّة ، يصبح معها تتبّع ثروات الجناة أمراً مستحيلاً ، كما أصبح من المستحيل عملياً معرفة ما إذا كانت هذه الواحات

---

(١) المصدر السابق (ص : ١١٤) .

(٢) المصدر السابق (ص : ١٢٤ ـ ١٢٥) .

الضريبية (Off - Shore) تقوم بغسل الأرباح الآتية من هذه الجرائم . وأصبحت الدول معرّضة لخسائر مالية كبيرة بسبب تغلغل منظمات المافيا وهروب رؤوس الأموال .

وامتدّت جرائم هذه العولمة ليرتفع ثراء الجناة المجرمين في الأرض ، ويزداد فقر الفقراء ، وتزداد الفوضى ، وعصابات المافيا ، وتختلط الجرائم السياسية بالجرائم الاقتصادية . فهذا الانفتاح العالمي يجبر الدول على التنافس فتضطرّ إلى خفض الإنفاق الحكومي ، وخفض الضرائب ، والتضحية بالعدالة الاجتماعية ، وتتفلّت الأمور بين جشع لا حدّ له ، وظلم لا يبالي بشيء ، وكلّ من يقف في وجه قانون الغاب هذا سينال عقوبته .

جزيرة مثل " كايمن " الكريبية مساحتها (١٤) كم٢ ، سكانها ١٤ ألف مواطن ، فَبها ما يزيد على (٥٠٠) مصرف مسجّل فيها ، تمثل كل المصارف المشهورة ، لتَمارس هناك عولمة خادعة ، وغشّاً مكشوفاً .

دول كثيرة عانت من عولمة سوق المال . فالجميع يستطيعون استثمار أموالهم في مكان آخر . فالسويد مثلاً البلد الذي كاد يصبح نموذجاً اجتماعياً في مقاييس الغرب العلماني ، عانى كذلك كثيراً من أن المؤسسات الصناعية الكبرى وأصحاب المال أخذوا ينقلون إنتاجهم ورؤوس أموالهم إلى الخارج . فاضطرت الحكومة لمواجهة هذا التطور أن تخفض الضرائب على الدخول العالية ، فكان هذا يضاف إلى ما فقدته الدولة من الضرائب بسبب هجرة رؤوس الأموال ، فارتفع العجز في ميزانية الدولة على نحو سيء ، وتخلّت الدولة عن عدد من برامج الإصلاح الاجتماعي .[١]

وعد كلينتون بإجراء إصلاحات تتطلب إنفاقاً زائداً . وبعد فوزه بالانتخابات عارض مصرفيو صناديق الاستثمار هذه الإصلاحات علانيةً ، وأصبحت الوعود

---

(١) المصدر السابق ، ص : (١٣٣) .

في خبر كان ، وهبطت قيمة سندات الدين الحكومي . لقد أصبح سوقُ المال يهدِّد من يشاء . وأصاب ألمانيا ما أصاب غيرها ، فتخلّت عن سياسة دولة الرفاهية ولا مجال للحديث عن الأخلاقيات ، أو العدالة الاجتماعية في ميدان سوق المال وعولمته وعلمانيته . وكذلك كندا وإيطاليا وغيرهما تقع كلها تحت سلطان الوحوش البشرية المهرولة وراء الأرباح فحسب .(١)

ومن هنا أصبح للديمقراطية معنى آخر . ذلك أن الديمقراطية تعطي الجميع حق الانتخاب . إلا إنه بعد انتهاء الانتخابات يختفي دور الناخبين ، ويظهر دور الناخبين القائمين على إدارة المال .

أصبح سوق المال غابات تموج فيها الوحوش البشرية . وفي المرحلة الحالية فإن العولمة تعني شيئاً واحداً هو الأمركة ، أمركة العالم . ودارت المعارك في سوق المال ضاريةً ، ولعلّ ما حصل في " ماليزيا " مثل واضح ، فبقيادة مهاتير محمد صعد البلد إلى مستوى راق . وأراد مهاتير محمد توجيه ضربة إلى كِبْر الغرب وانحطاط وسائله وأهدافه العدوانيّة . فرئيس مصرف " نيكارا " "Negara" سرّي داتو جعفر ابن حسين " راح يشعل فتيل حرب عصابات في عالم المال بتغطية ودعم من مهاتير محمد . فأخذ سرّي داتو يضارب بنجاح ضد عملات مجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى . فكان الماليزيون يبيعون مبالغ تتجاوز المليارات إلى عشرات المصارف في وقت واحد من عملة معيّنة ، فينهار سعر صرفها ، وتُفْقَدُ الثقة بهذه العملة ، حتى إذا انخفض سعرها إلى حدٍّ كاف وتأكد مصرف نيجارا Negara من أن موجة البيع قد بلغت الذروة ، فإنه يعود ويشتريها من جديد فيحقق أرباحاً عالية بذلك .(٢)

يوم الأربعاء الحادي عشر من ديسمبر ١٩٩١م ، وقّعت حكومات البلدان الإثني عشر ، والمعروفة آنذاك بالمجموعة الأوروبية ، في المدينة الهولندية

(١) المصدر السابق : ص (١٣٦) .
(٢) المصدر السابق ، ص : (١٤٦) .

" ماسترخت " ، على معاهدة ترمي إلى إنشاء وحدة أوروبية وإيجاد عملة موحدة.[1] بموجب ذلك سيتحدّد ابتداءً من مطلع عام ١٩٩٩م أسعار صرف لعملاتها غير قابلة للتغيير ، وتختفي بعد ذلك بعامين العملات الوطنية القديمة في أوروبا ، وابتداءً من أول يناير سنة ٢٠٠٢م سيجري احتساب جميع الأرصدة المصرفيّة والدخول والضرائب والمعاملات التجارية بالعملة الجديدة " اليورو Euro"، وستكون قيمته مساوية لأسعار التحويل السائدة في السوق منذ سنة ١٩٩٩م ، وفي حالة نجاح الاتحاد الأوروبي ونجاح توحيد العملة ، فيصبح اليورو منافساً قوياً للدولار ، وينهي طغيان الدولار وتجبرّه وتبدأ منافسات شديدة في عالم المال تحدّ من سلطان العولمة الأمريكية [2]. ولكن في جميع الحالات يظلُّ المجرمون المتنافسون يحصدون المنافع والثروات ، ويكون الضعفاء والفقراء هم الضحايا في شريعة الغاب التي تموج فيها الوحوش . كما بدأت أزمات مالية وانهيار في بعض الأسواق المالية ، وإفلاس بعض المصارف الكبيرة ، وكوارث مالية وقعت ، وكوارث محتملة ، وأزمات لبعض النقود مثل المكسيك والبرازيل ، تطور في كثير من القطاعات ، وضياع فرص العمل ، وازدياد البطالة .

وتنبأ بعضهم أن نصف العاملين في المؤسسات النقدية سيفقدون عملهم خلال سنوات مقبلة .

وأصبحت الشركات والجامعات تبحث عن خبراء مختصين برواتب أقل مما يُدْفَع للأمريكي أو الأوروبي . ثلاثة هنود بدلاً من سويسري واحد . وبذلك بدأت عملية شراء العقول "Brain Shopping" ، وقامت كبرى الشركات تمارس ذلك مثل " هلْويت باكارد " Helwet Packard، " موتورولا Moto Rolla، " آي بي يو. IBU"[3]

وبعضهم نقل عمله ومركزه إلى الهند ، ووفّرت نيودلهي الهياكل الضرورية لبعض الشركات في عدة أماكن . في مركز الهضبة الهندية ، في مدينة " بنجالور "

(١) المصدر السابق ، ص : (١٤٩) .
(٢) المصدر السابق ، ص : (١٥٢) .
(٣) المصدر السابق ، ص : (١٨٨) .

أقيم حي الصناعات الإلكترونية، وأصبحت المدينة إلكترونية، ونالت شهرة عالمية. وبلغ عدد العاملين في هذا المجال في الهند (١٢٠ ألف) عامل، وأخذت السوق العالمية تمتدّ في الأرض وتمتدُّ أنشطتها، ويزداد ضحاياها وتمتدّ صور متعددة من العولمة.

لقد أصبح ملايين الضحايا قرباناً للسوق العالمية التي أصبح من خصائصها: الجدارة والكفاءة، والتكنولوجيا، إعادة الهيكلة، التخلّص من الروتين، تقليص فرص العمل، وتسريح الأيدي العاملة، وتفاقم البطالة. بعض القطاعات الصناعية أضاعت أكثر من مليون فرصة عمل. وذلك نتيجة للتطور التكنولوجي، والتوسع في إنتاج البرامج الجاهزة. فباستخدام الأجهزة الجديدة سيتمكن مبرمج واحد أن يقوم بعمل مئة من زملائه.(١)

ولكن في نفس الوقت تزداد الحاجة إلى هؤلاء الفنيين والمتخصصين في ميدان الكمبيوتر والبرمجة، فالعمل نفسه يتسع والحاجة تزداد. وكذلك فإن ظاهرة انخفاض الأيدي العاملة من ناحية، وازدياد الحاجة للمتخصصين يرافقها تنافس حاد في السوق، تنافس فقد الرحمة أو الأخلاق أو معاني الإنسانية التي يتغنّى بها المجرمون في الأرض، على جثث الضحايا وأشلائها. و سواءً في الولايات المتحدة شمالاً. وأستراليا جنوباً، وبريطانيا غرباً، واليابان شرقاً، فإنَّ تغييرات كبيرة تجري فيها ليست في صالح المحتاجين والمعوزين، ويظل المرفَّهون يتنعّمون بـ " Tittytainment" التي هي درُّ المتعة والتسلية واللهو!

وكأنما ثارت عاصفة شديدة تتمثّل في تسريح عدد كبير من العمال في مؤسسات كثيرة وبلدان كثيرة: المصارف، شركات الاتصالات، شركات الطيران، شركات التأمين. وقد يشهد الاتحاد الأوروبي امتداداً للبطالة، وفي ألمانيا يرتفع معدل البطالة من ٧,٩ إلى ٢١٪، وفي النمسا ٧,٣ ـ ٢٨٪، وبإيجاز لا يبقى فرصة عمل آمنة، والمنافسة في هذا العالم المعولم لا تعرف الرحمة أبداً!(٢)

(١) المصدر السابق، ص: (١٩٢-١٩٣).
(٢) المصدر سابق: (ص: ١٩٩).

الفصل الرابع
عـولـمـة فـاسـدة
وعدالة كاذبة وحرِّية مزيفة خادعة

إنّ ما مرّت به المكسيك منذ عام ١٩٩٦م يقدّم صورة واضحة لظلم العولمة وكذب ادعاءاتها . فنصف سكانها في سن العمل عاطلون عن العمل أو يعملون بأجر يومي من آن لآخر . وانخفض نصيب الفرد الواحد من الناتج القومي . وانطلقت الاضطرابات السياسية والإضرابات العمالية والتمردات الفلاحية ، فقد نفَّذ ثلاثة رؤساء حكومات مقترحات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والحكومة الأمريكية تنفيذاً تاماً . فخصخصوا الجزء الأعظم من المؤسسات الصناعية ، وألغوا العوائق أمام المستثمرين الأجانب ، وألغوا الضرائب الجمركية على الواردات ، وفتحوا أبواب البلد على مصاريعها للنظام المالي الدولي .[1]

وعقدت المكسيك عام ١٩٩٣م مع الولايات المتحدة وكندا اتفاقية ترمي إلى تأسيس منطقة التجارة الحرّة المسماة : النافتا Nafta والتي تفرض على المكسيك أن تتكامل في غضون عشر سنوات مع سوق أمريكا الشمالية كلية . اتفاقية عولمة ، عولمة وأمركة . ولكن هذا عاد بتأمين بعض المصالح للمكسيك ، فعدد من المؤسسات متعددة الجنسيات شُيِّدتْ فيها مصانع أو وُسِّعَتْ مصانع سابقة . وارتفعت الصادرات ، وتراجعت المديونية ، وتنامت الطبقة الوسطى . غير أن هذا التحسّن اقتصر على جزء ضئيل من الاقتصاد ومن السكان . فالمصانع الجديدة كان مصيرها متعلقاً بالاستيراد ، فما وفّرته من فرص للعمل كان ضيقاً . وكذلك تركّزت ملكيَّة المشاريع الحكومية السابقة في أيدي أقلية من المساهمين الكبار ، فخمسة وعشرون من الاتحادات الصناعية فقط كانت تسيطر على شركات تنتج نصف إجمالي الناتج القومي . والانفتاح السريع على الولايات المتحدة الأمريكية

---

(١) المصدر السابق ، ص : (٢٥٣) .

عصف بقطاعات اقتصادية وطنية لم تستطع أن تقف في وجه المنافَسَة الأمريكية ، فأغرقت الواردات البلد ، وركعت الصناعات المتوسطة الحجم ، المنتجة للبضائع ، كثيفة العمل البشري .[1] فتوقّف الإنتاج في نصف مصانع المكائن ، وكذلك الحال في مصانع النسيج . وحلّت الماكينات محل العمل البشري وفقد الملايين فرص عملهم . وتزايد الاستيراد وضعف التصدير وارتفع العجز في الميزان التجاري . وأخذت تتوالى المشكلات ، فقد انهار الازدهار المبني على المديونية ، وانخفضت قيمة " البيسو " ، ولمنع حدوث انهيار مالي على المستوى العالمي ، فقد منح صندوق النقد الدولي أكبر قرض دعم في التاريخ . فأنقذ هذا القرض المستثمرين الأجانب ، ودفع المكسيك إلى حافةً كارثة اقتصادية . حيث رفع رئيس الجمهورية أسعار الفائدة الحقيقية ، وانخفض الإنفاق الحكومي ، وحدث أكبر ركود في المكسيك منذ ستين عاماً . وفي فترة وجيزة أُعلن إفلاس (١٥) ألف مشروع ، وفقد أكثر من (٣) ملايين مواطن عملهم ، وانخَفضت القوة الشرائية لدى المواطنين بما لا يقل عن الثلث .

وأَصبحت المكسيك ذات المائة مليون مواطن في أسوأ وضع ، أَسوأ مما كانت عليه من قبل . فقامت حرب العصابات من الفلاحين في الجنوب ، ومن أصحاب المشروعات المتوسطة التي عجز أَصحابها عن سداد أسعار الفائدة الربوية المَرتفعة ، وقامت حركات معارضة مختلفة تعصف باستقرار البلد ، وكما قالت عالمة اجتماع : " أنّي هافشميد : " Anne Haffschmid " إن المكسيك تقف على عتبة الفوضى والحرب الأهلية " [2] .

وهذا مثل قوي على فساد نظرية العولمة والأمركة ، واستبداد أصحاب رؤوس الأموال ، وإعطاء السيادة المطلقة لقوى السوق ، وكذب من يزعم أن قوى السوق ستحقق الرفاهية الاقتصادية .

---

(١) المصدر السابق ، ص : (٢٥٤-٢٥٥) .
(٢) المصدر السابق (ص : ٢٥٣-٢٥٧) .

وما أصاب المكسيك من اتفاقها مع أمريكا وفتح سوق التجارة الحرة بينهما، فقد أصاب تركيا كذلك بما وقّعته من اتفاقية مع الاتحاد الأوروبي. وقد جاءت النتائج على خلاف ما كان يتوقعه الصناعيون الأتراك الذين أخطؤوا التقدير.(١)

لا بد من وقفة هنا، أمام الأمثلة التي أوردناها عن العولمة وخطواتها المدمّرة، وتسللها الماكر، حتى ندرك حقيقة العولمة. لا شك أن العولمة تقدّم خيراً ظاهراً للطبقة الرأسمالية المستغلّة، واللصوص الذين مهروا في أساليب نهب الشعوب. ولكن هذا يقابله البؤس والشقاء للشعوب والضعفاء.

إن هذه الطبقة من أصحاب رؤوس الأموال، تظلّ عيونهم مفتّحة على جميع أنحاء الأرض، وبطونهم مفتّحة على ثروات شعوب الأرض، ويظلّون متوثّبين لينقضُّوا على أي فريسة تقع بين مخالبهم بالمكر أو الإغراء أو البطش. ولا ينجو من ذلك إلا النمور أو التنّين أو من يملك الوعي والخطة ليردّ العدوان ويفتح باب النمو والتقدم.

ماليزيا مثل قويّ على ذلك. فقد خرجت من قائمة البلدان النامية منذ أمد ليس بالقصير. فمنذ عام ١٩٧٠م أخذ الاقتصاد الوطني ينمو فيها بمعدّلات تتراوح بين ٧٪ ـ ٨٪. لقد كان يعمل في القطاع الصناعي ٥٪ ممن كانوا في سن العمل، ولكن مع تطورها أصبح يعمل في القطاع الصناعي ٢٥٪ من السكان ممن هم في سن العمل.

وجزيرة " بينانج : Penang" بجوّها البحري الجميل، وأرضها الخصبة، هذه الجزيرة تقع مواجهة للشاطئ الغربي لتايلند وماليزيا. وأصبحت مدينتها الرئيسة " جورج تاون : " George Town" تموج بالحركة والنشاط والزائرين الكثيرين. فما الذي جذب إليها هؤلاء الزائرين من اليابانيين والأوروبيين والأمريكيين. إنها جزيرة السيليكون، فأقبلت الشركات الكبرى مثل : هيلويت باكارد، وسيجيت، وإنتل، وهيتاشي، وتكساس انستر ومانتس، لتجعل لمصانعها فروعاً في هذه

(١) المصدر السابق، ص : (٢٥٨).

الجزيرة . و " بينانج " مثل واحد من رموز كثيرة للثورة الاقتصادية التي يعيشها هذا البلد منذ سنين عديدة ، منذ سنة ١٩٧٠م .

وكذلك : كوريا الجنوبية ، وتايوان ، وسنغافورة ، وهونج كونج ، كانت قد سبقت ماليزيا بأكثر من خمس سنوات في الثورة الاقتصادية ، حتى سُمِّيت هذه البلدان في جنوب شرق آسيا بالنمور الآسيوية ، بدلاً من الشياه في مناطق أخرى من العالم (١) .

وميزة هذه الدول أن حكوماتها لم تنس حماية اقتصادها ومشاريعها ، وتعزيز عوامل نموه وازدهاره ، ولم تستسلم للعولمة المجرمة المفسدة ، وإنما أخذت وأعطت وبنت ، وجعلوا مشروعاتهم الوطنية خاضعة للسيطرة الحكوميَّة والخاصة مناصفة ، حتى أصبحت تحتل مكانتها في السوق العالمية .

فلم تتّبعْ العولمة سياسة واحدة تطبقها في جميع أنحاء المعمورة ، فهي تغيّر من أساليبها على ضوء ما تلقى هنا وهناك من أوضاع ومن وعي وقوة ، أو ضعف واستسلام . فبلدان تعطي قوى السوق مجالاً أوسع ، وبلدان صاعدة تعمل عكس ذلك .

إن الفتنة التي يتعرَّض لها الجميع في هذه المنافسات العنيفة هي أن الأرباح تُنسي الناس مبادئهم ولو إلى حين .

المتاجرة العادلة هل تنطوي على حماية الفقراء :(٢)

إن المعجزة الآسيوية لم تخل من نواحٍ سلبية مثل الرشاوي والاضطهاد السياسي ، وتدمير البيئة واستغلال غير محدود للعاملين من الرجال والنساء . فشركة " نيك : Nike" صانعة أحذية غالية الثمن ، يقوم بإنتاجها في اندونيسيا (١٢٠) ألف عامل بأجر يقل عن (٣) دولارات في اليوم الواحد ، فهو الأجر

(١) المصدر السابق (ص : ٢٥٩ـ ٢٦٣) .
(٢) المصدر السابق ، ص : (٢٦٤-٢٧٦) .

الأدنى المقرر قانوناً ، وهو الذي يحصل عليه ما يزيد عن نصف قوة العمل البالغ تعدادها (٨٠) مليوناً . وإذا سعى عامل للاحتجاج والإضراب أو الدعوة إلى ذلك ، فسرعان ما يعتقل ويحقق معه ثم يطلق سراحه ويطرد من العمل أو يسجن . ونقابيّتان معروفتان جيداً في طول البلاد وعرضها حاولتا تنظيم إضراب عمالي ، ثم وجدت جثتاهما مشوّهتين بفعل التعذيب في قمامة المصنع .

وقد يتحقق الانتعاش الاقتصادي من خلال استغلال بشع للعمال ووضعهم في ظروف غير إنسانية ، وبرواتب لا تكاد تكفي لأدنى حدود المعيشة ، وقد يأتون بأيد عاملة من البلدان المجاورة بأجور زهيدة ظالمة ، ثم يسمح لهم بالمغادرة ليستبدلوا بهم عمالاً جدداً بأجور زهيدة . ومؤسسة " سيمنز " تعامل العاملات الاندونيسيات اللواتي يعملن في رقائق الكمبيوتر كما لو كنّ مستعبدات ، يعملن ستة أو سبعة أيام في الأسبوع ، ويعشن في داخل المصنع كأنه لهنّ سجن كبير ، مقابل أجر (٣٥٠) ماركاً في الشهر .

وبصورة تدعو للدهشة تتجاهل غالبية الحكومات الغربيّة الأساليب المرفوضة حسب معاييرها الغربية ، الأساليب المتبعة في دول جنوب شرق آسيا وغيرها . إن تجاهلاً مثل هذا يكشف عن واقع خطير النتائج . فهو تأجيل موضوعات رئيسة في حياة الناس ، مثل حماية البيئة ، وصيانة صحة العاملين ، الاعتراف بحقوق الإنسان ، إلى وقت آخر ، مادام التأجيل يخدم مصلحة الاقتصاد العالمي المعولم .

العاملون في (١٥٠) ألف مصنع شاركت الصين في تأسيسها بأطراف صينية مع ممولين أجانب ، فلقد كان يتعيّن على العاملات منهم اللواتي يفوق عددهن المليون ، العمل (١٥) ساعة يومياً أو أكثر ، كأن البشر يُجبرون أن يعملوا كالآلات ، وكثيراً ما يتوجب عليهنّ رهن رواتبهنّ الشهرية عند بداية عملهنّ كضمانة لن تعود لهنَّ عند تركهن العمل . وفي الليل يُجْمعون في قاعات نوم ضيّقة ومغلقة الأبواب ، مما يجعل منها مصائد قاتلة في حالة اندلاع النار فيها . والحكومة المركزية في بكين اعترفت بتجاهل المصانع لقوانين العمل ، وبأن الحوادث في

المصانع أودت بحياة (١١) ألف عامل خلال ستة أشهر فقط سنة ١٩٩٣م، وبأنّ اندلاع النيران قد تكرر (٢٨) ألف مرة [١] .

ومن خلال المؤتمرات التي كانت تُعقد بين المسؤولين في المصانع الآسيوية ورؤساء الحكومات الغربية، تجاهل الغربيون تجاهلاً تاماً الاعتراض على هذا الظلم، وبالرغم من احتجاج عشرات الألوف على سوء المعاملة، لكن ذلك لم يجد شيئاً . وربما قامت بعض الحكومات الغربية بالإشادة بالاستقرار السياسي والمناخ الاستثماري الجيد جداً في إندونيسيا التي كانت تُحَكَم حكماً دكتاتورياً .

وقد أُدرِج في ميثاق المنظمة العالمية للتجارة (WTO) بندٌ ينصّ على معاقبة من يخالف الظروف الاجتماعية للعمل وحماية البيئة، أو التي تخلّ بالشروط والمعايير الدنيا المقررة من قبل منظمة العمل الدولية (ILO) التابعة للأمم المتحدة .

ما أكثر المنظمات المحلية والدولية وأكثر أسماءها وأجمل شعاراتها ولكن مع ذلك مازالت الظروف الاجتماعية للملايين من الناس في أسوأ ظروفها . وهذا أمر طبيعي ذلك لأن الذي يصلح الحال ويرحم الفقراء وينصف المظلومين هي القلوب الرحيمة والنفوس الطاهرة، وليست أسماء منظمات وهيئات . وما أكثر ما يلصق مع اسم كل منظمة أو هيئة أو لجنة كلمة **العالميّة** لتضفي أهميّة على المنظمة أو الهيئة، دون أن تضفي رحمة أو عدالة أو إنسانية، فلقد قسَت القلوب، وتحجّرت النفوس، وخاصة في ميادين التجارة وما قد يتبعها من ميادين سياسية . فحيثما وجدت كلمة «**العالمية**» فاعلم أن في داخلها فساد مغطّى وظلم مخفيّ .

إن محاولة فرض عقوبات على المخالفين لشروط سلامة العمل والعمال أمر معقول، ولكن شدّة المنافسة وشدة الجشع يقلب الإنسان إلى وحش مفترس ليفترس أخاه الإنسان دون أي رحمة . وربما تجد الرحمة عند بعض وحوش الغاب ولا تجدها عند وحوش بني آدم !

(١) المصدر السابق : ص : ٢٦٦ .

النموذج الألماني نموذج للكذب ! :[١]

أدلى «**هلموت كول**» على شاشات التلفزيون الألماني بخطابات مَدَحَ فيها جميع النقابيين ورؤساء النقابات وجميع من نافق له ، ووعد أن تظَلّ الرعاية الاجتماعية ماضية بمسؤولياتها ، وأن حزبه لن ينتهج سياسة تقبل بالنتائج التي يفرزها سوق المال . هكذا تحدث في أبريل سنة ١٩٩٦م . وبعد شهرين فقط نظم الرجال المقصودون بهذا المديح في بون أكبر مظاهرة نقابية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، للإعراب عن استيائهم من هذا المستشار نفسه ومن سياسته وكذبه . فقد احتشد أكثر من (٣٠٠) ألف شخص أتوا بواسطة (٧٤) قطاراً سُيِّرتْ خصيصاً لهم ، و(٥٤٠٠) حافلة ، ليُعربوا عن احتجاجهم على هدم نظام التكافل الاجتماعي، وعلى البطالة السائدة ، وعلى مساعي الدولة لخفض الأجور . وهدد رئيس الاتحاد العام للنقابات العماليّة بأن استمرار الحكومة الاتحادية في تنفيذ برنامجها ، فإن هذه الجمهورية الألمانية الاتحادية ستعيش أجواءً لن تكون الأجواء التي عصفت بفرنسا سوى بداية متواضعة . وهو يشير بذلك إلى الإضرابات العمالية التي نظمها زملاؤهم الفرنسيون قبل نصف عام فقط . وعلى أثر ذلك تغيّرت لهجة "كول " وأسلوب خطاباته ، وأصبح يصف من مدحهم بالأمس بأنهم رجال تذمُّر ونشر الريب[٢] . ودخلت ألمانيا في مشكلات اقتصادية مختلفة تدور حول حقوقِ العمال وأجورهم ، وتناقضات في زيادة القوة التنافسية ، مما يكشف أن الخطأ الجذري هو في جعل المنافسة المعولمة هدفاً في حدّ ذاته ، دون توفير نظرة مستقبلية . ولكن يمكن معالجة هذه القضايا بالإصلاح الضريبي الرامي إلى المحافظة على البيئة .

ولقد توصل المعهد الألماني للبحوث الاقتصادية (DIW) إلى أنه في الإمكان إيجاد ما يزيد على (٦٠٠) ألف فرصة عمل في ألمانيا خلال عشر سنوات ، إذا ما

---

(١) المصدر السابق ، ص : (   )

(٢) المصدر السابق : (ص : ٢٧٨ ـ ٢٩١) فخ العولمة .

فُرِضَتْ ضريبة بيئية بمعدل يتزايد سنويا وبخطوات صغيرة على استهلاك النفط والبنزين والغاز والكهرباء . فهذه الضريبة ستؤدي إلى ترشيد استهلاك الطاقة ، وتدفع المواطنين إلى ترميم عماراتهم ومساكنهم ورفع جدارة أساليب تدفئتها ، مما يخلق فرص عمل جديدة .

هذا بالإضافة إلى دراسات أخرى مثل دراسة الباحث المتخصص في الإنتاج الصناعي " فالتر شتيل Walter Stahel " بعنوان : مأزق التسارع وفوز السلحفاة " ، ويضرب أمثلة على صحة نظريته بصناعة السيارات .

ومن أجل ذلك لا بد من استعادة الإرادة السياسية ، أي أولوية السياسة على الاقتصاد ، لتكون هي المهمة المستقبلية الأساسية . لأنّ السيرَ على هدى التوجه السائد ، والتكيف الأعمى مع ما تفرزه السوق العالمية يقود إلى الفوضى التي لا مناص منها ، فوضى تؤدي إلى هدم البنى الاجتماعية التي تشكل سلامتها ضرورة حتمية لهذه الدول (١) .

(١) السابق (ص : ٢٨٧ ـ ٢٩١) .

الباب الرابع

بين مسؤوليات الدولة وانفتاح السوق

الفصل الأول

انطلاق رأس المال وزيادة الظلم بذلك

لقد خلَّفت الحرب العالمية الثانية آثاراً مروّعة في أوروبا ، وبقيت أوروبا تصارع هذه الآثار زمناً طويلاً . وفي سنة ١٩٤٨م عقدت الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية : " الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة " والتي تسمى " الجات " رغبةً في إيجاد نظام مشترك للتجارة الدولية لأول مرة في التاريخ . واتفقت تلك الدول على تحقيق مستمر لتعرفتها الجمركية مع السنين التالية ، ولم يعد هناك أهمية تذكر للضرائب الجمركية بالنسبة للتجارة السائدة بين الدول المتقدمة . وتكونت في جنيف منظمة التجارة العالمية (WTO) كبديل للجات ، وأصبح نشاط الدول يتركّز على إزالة العوائق الأخرى ، غير الضرائب، التي تحدّ من حريّة التجارة العالمية . وكانت نتائج هذا التحرر عظيمة بميزان التجارة الرأسمالية ونظامها ومفهومها ، في ضوء المبادئ التي صاغها الاقتصادي البريطاني : " جونماينرد كنز " الذي ردَّ بنظريته على الكارثة الاقتصادية التي اندلعت في الفترة بين الحربين العالميتين . وجعل " كنز " الحكومة في مصاف المستثمر المالي الرئيسي في الاقتصاد الوطني ، إذ أناط بها التدخل عبر موازنتها المالية لتصحيح حالات البطالة أو الركود ، وحالات التضخم .(١)

ولكن المحافظين في بريطانيا الذين فازوا بالانتخابات ١٩٧٩م ، وكذلك أمريكا سنة ١٩٨٠م آثارا عقيدة اقتصادية مختلفة عن آراء " كنز " كمبدأ لسياستهم، أسموها : " الليبرالية الجديدة " التي نادى بها مستشار ريغان الاقتصادي " ميلتون فريدمان " ، ومستشار " مسز تاتشر " : " فرديش فون هايك " ، ومحور نظريتهما أن تكون مهمة الحكومة الحفاظ على النظام الرأسمالي ، لإعطاء المشروعات حرية أكبر ، وللرأسمال حرية أكبر ، وإلغاء ما كانت تمارسه الحكومات من قيود ورقابة . وراحت تضغط على كل الشركاء الرافضين لهذا

(١) فخ العولمة ، ص (٢٠١) .

النهج ، كي يأخذوا بالتوجّه الجديد أو يتعرَّضوا إلى عقوبات اقتصادية . وأصبح هذا النظام يقوم على الثلاثي : التحرير ، الليبرالية ، الخصخصة ، وهذا توجّه إلى الوسائل الاستراتيجية في أوروبا وأمريكا . وأصبح السعي يتجه إلى توسيع التجارة الحرة ، واعتماد سياسة العرض والطلب ، والتحرير الكامل لأسواق الصرف الأجنبي وأسواق رأس المال . وهذا يعني تغيير جذري للنظام الاقتصادي السائد في الديمقراطية الغربية مع التحول إلى الإنتاج الآلي والتطور التكنولوجي . ومع مطلع التسعينيات راحت الحكومات تساعد على التعجيل بهذا الاتجاه ، وأنشأت بلدان أوروبا الغربية " السوق الأوروبية المشتركة " ! وردت الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والمكسيك على هذه الخطة بتأسيس " منطقة التجارة الحرة لدول أمريكا الشمالية " ، المسماة " نافتا : Nafta "

ولا حاجة لأن نشرح آثار هذه السياسة بأكثر من مثال حقيقي في شركة " كاتربيللر : Caterpiller " . فجاك هايس عامل في الشركة لمدة (٢٩) عاماً، ساهم في إنقاذ الشركة من محن كثيرة مرّت بها ، وساهم في زيادة مبيعاتها وأرباحها . ثمَّ أعلنت الشركة تخفيض أجور العاملين بمقدار ٢٠٪ وبالعمل ساعتين إضافيتين . فقام العمال كلهم في جميع أنحاء أمريكا بالإضراب الشامل ، ثمَّ نصحهم سكرتير نقابتهم بأنه من الأفضل أن يعودوا إلى عملهم خاضعين للشروط الجديدة ، لأنهم إن أصرّوا سيكونون الخاسرين الوحيدين . ذلك أن مدير الشركة دونالد فيتس ، قرر أن يقلّم أظافر النقابة والعمال ، فقد كان في السوق عمال عاطلون متخصصون ، فهدَّد بأنه سيستعيض عن العمال المضربين الذين لا يسمح القانون بفصلهم ، بعمال جدد من خارج المؤسسة . ثمَّ ساق إلى العمل الكثيرين من العاملين في المكاتب والمهندسين والإداريين ، وبالعاملين جزئياً لدى الشركة ، وبالاستعانة على أوسع نحو ممكن بالمصانع التابعة للمؤسسة في العالم الخارجي . وفي النهاية استسلم المضربون وأذعنوا لشروط العمل الجديدة الظالمة، وصار يوم العمل يمتد على (١٢) ساعة يومياً[1] .

(١) المصدر السابق : ص ، (٢٠٧) .

وفي الوقت نفسه ترى رواتب كبار المديرين الذين يوفّرون على الشركة نفقات كثيرة على حساب أجور العمال وخفضها وزيادة ساعات العمل وتقليل عدد العمال ، هؤلاء المديرون ترتفع رواتبهم ارتفاعاً فاحشاً . فمدير متجر المواد الغذائية العملاقة " هاينز " Heintz " أنتوني أورايلي : " Antony O`Reilly" يبلغ راتبه السنوي (٨٠) مليوناً من الدولارات ، أي يعادل : ٤٠ ألف دولار في الساعة .(١)

وفي المكسيك ما يقرب من نصف مليون عامل في المشروعات الأمريكية لا يصل أجر العامل خمسة دولارات يومياً ، ولا ينالون أي تأمينات صحية أو ضمان اجتماعي .

هذه صور مفزعة حقاً ، ويزيدها فزعاً أنَّ المجرمين الذين يتولون هذه السياسة الظالمة الإجرامية هم أنفسهم الذين يطلعون على العالم يدجّلون بشعارات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان والمرأة والطفولة ، وغير ذلك من شعارات التجارة الكاذبة . وكأنَّ الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان هي إعلان حرب عاصفة مجنونة من الرأسماليين على عمّالهم !

ولقد تطور الأمر إلى أن نشأت شركات جديدة تتولى تأجير العمال الوقتيين إلى الشركات الصانعة ، وهذه الشركات الجديدة المختصة بتوفير الطاقة البشرية "Manpower" هي التي تقوم بعمل إحصاءات عن فرص العمل ، وتقوم بدراسات لتحريك العمال إلى هذه الشركة أو تلك ، ودراسة كيفية استغلال العمال أسوأ استغلال بعد أن أصبح العامل تحت مطرقة شركات الطاقة البشرية ، ومطرقة الشركات الصانعة ، دون وجود أي مراقبة حكومية ، ودون توافر أي ضمانة للعامل .

ولقد تطوَّرت نظم العمل تطوراً كبيراً ، وزادت مشكلات العمال وقضاياهم، وفقد الملايين من العمال عملهم ، وإن وجدوا فرصة أخرى فبظروف أسوأ وأجور

(١) المصدر السابق ، ص (٢١٧) .

أقل . وانتشر مبدأ عجيب : " الرابح يحصل بمفرده على كل الثمار : The winner Takes all" . إن المحرّك الأساسي والوحيد لدى الشركات هو كيف يجنون أعلى ربح ولو كان على حساب اليد العاملة . فخفضت شركة "IBM" في الفترة ما بين ١٩٩١ - ١٩٩٥م تكاليف العمل إلى الثلث ، وأضاعت على(١٢٢) ألف عامل فرصة العمل ، وفي الوقت نفسه وكتقدير للمجرمين الإداريين الذين وفّروا للشركة هذه الأرباح الظالمة الحرام ، كافأ مجلس الإدارة الأعضاء الخمسة المسؤولين عن هذه الجرائم بمبلغ ٨,٥ مليون دولار لكل واحد منهم بالإضافة إلى راتبه (١) . وأصبح نظام فرص العمل للعمال هو " عمله عند الحاجة إليه فقط : Just in time"!

ولكن هذا الظلم المكشوف والفساد الواضح لا بدّ أن يثير بين حين وآخر رجالاً يعترضون على ذلك ، مثل " إدوارد لوتوك Edward Luttwak " الاقتصادي في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية الذي تحوّل ليكون من أكبر نُقّاد التوجه الاقتصادي الجديد ، حتى قال : إن المنافسة المعولمة تطحن الناس طحناً وتدمّر التماسك الاجتماعي ، فالرأسماليون يزدادون ثراءً والطبقة العاملة تزداد فقراً (٢) .

لقد كان هذا الظلم هو الذي أثار الحركة الشيوعية التي كانت تدّعي نصرة الطبقة العاملة ، ونادوا : " يا عمال العالم اتحدوا " ! ووجدت هذه الحركة تأييداً وتجاوباً واسعاً في مناطق كثيرة من العالم ، وكان من أثر ذلك الثورة الشيوعية في روسيا القيصرية . ولكنها كانت حركة تمثل ردّ فعل قوي لظلم واقع على قطاع كبير من الناس .

وكذلك رفع صوته " لستر ثاروا Tharow" الاقتصادي في معهد "MIT" . وامتدت موجة الاعتراضات إلى رجال أعمال وسياسيين أخذوا يشكون بالنظريات الاقتصادية السائدة المحافظة . إلا أن الحركة الشيوعية وقد قامت على

---

(١) فخ العولمة ، ص : (٢٢٢) .
(٢) المصدر السابق ، ص : (٢٢٥) .

النظرية المادية الجدلية والنظرية المادية التاريخية، يقودها " كارل ماركس، وفريدرك أنجلز، ولينين " وغيرهم، لم تهتد إلى السبيل القويم لرفع الظلم الذي أخذت تقاومه. ولعله ظهر مع الأيام أنها استبدلت ظلماً بظلم، وفساداً بفساد.

وحدث تحول جديد في ميدان الصناعة المنتجة للسيارات. فلم يعد المصنع الواحد ينتج جميع ما تحتاجه السيارة. فهنالك الموردون الذين يزوّدون المصنع بأجزاء متكاملة ومعدَّة للتركيب. وفي المصانع الأمريكية الحديثة لإنتاج السيارات، فإنها لا تنتج سوى ثلث المعدات اللازمة، تاركة إنتاج الباقي إلى الموردين. وكذلك في ألمانيا فكثير من السيارات ذات الطراز الفاخر يأتي ما يقرب من نصف معداتها من الخارج، وبعض المصانع تنتج خارج بلادها أكثر مما تنتج في بلادها.

وبعض الشركات يتم بينها الاتفاق على أن تنتج إحداها بضاعتها وتضع عليها علامة شركة أخرى، ولا يشعر المشتري بالتزييف المتفق عليه. وربما تتفق بعض الشركات فيما بينها فتشتري شركة شركة أخرى. فقد ابتلعت مؤسسة " فولكس فاجن " مؤسسة Seat " الإسبانية و "Skoda" في أوروبا الشرقية، وأمثلة أخرى كثيرة [(١)]. وأصبحت بعض الشركات تجري بينها "Joint Venture" تحالفات أو اندماجات. فنقصت بذلك فرص العمل وارتفعت أرباح المساهمين. وحتى في اليابان التي كان الأمن الاجتماعي له الأولية تغير فيها الحال. والمؤسسات الفرنسية تخفّض كذلك عدد عمالها، وترتفع البطالة إلى ١٢٪، وفي الوقت نفسه، فإنَّ ٤٥٪ من العمال العاملين مهددون دائماً. والشركات العملاقة في الصناعات الكيماوية في ألمانيا مثل " هوكست : Hoechst "و" باير : Bayer" و" باسن "، مع أن أرباحها سنة ١٩٩٥م تعادل مجموع أرباحها في السنين الماضية، ومع ذلك أذاعوا أنهم سيسرِّحون مجدّداً عدداً من العمال علاوة على (١٥٠) ألف فرصة عمل شطبت قبل عام. ولكنَّ الربح في نفوس المجرمين يدفع إلى طمع أكبر في ربح وجشع لا يشبع وظلم لا يُدْفع.

(١) فخ العولمة، ص: (٢٢٩).

ويتساءل " يورجن دورمان Juergen Dor man" أحد قادة " هوكست " : أهناك شيء في " هوكست " لا يزال ألماني الطابع ؟! ويجيب على ذلك بقوله : إن أكبر أسواقنا هي الولايات المتحدة ، والمساهم الكويتي يملك حصصاً تفوق مجموع حصص الألمان !

أصبح هنالك في أكثر من بلد تناقض بين بعض نصوص الدستور الذي وضع لحماية مصلحة المواطن والوطن ، وبين ممارسة الرأسماليين التي لم تعد خاضعة لرقابة الحكومة ، فالمادة (١٤) في الدستور الألماني والتي تنص على أنَّ الملكية مسؤولية اجتماعية وينبغي لها أن توجه لخدمة المصلحة العامة ، أصبحت أمراً غير قابل للتطبيق[١] .

إنَّ المشروعات وقياداتها أصبحت تواجه ضغوطاً قوية تأتيها من سوق المال متعدد الجنسيات . فهذه السوق متعدد الجنسيات هي مركز القوة للعولمة . فالتعامل من خلالها يلغي الروابط الوطنية ، ليس من أجل مثل إنساني أعلى ، ولكن من أجل المصالح المادية المشتركة ، والأطماع الموحّدة . فشركة دايلمز بنز " ثلث أسهمها في أيد أجنبية و٤٣٪ من أسهم المصرف الألماني المساهم الرئيس في " دايلمر بنز " في أيدي مستثمرين أجانب . وهؤلاء هم في الدرجة الأولى صناديق استثمار وتأمين معاشات تقاعد من الولايات المتحدة وبريطانيا .

وكمثال على هذا الجشع والطمع القاتل : " يورجن شرمب : Juregen "Schrempp" تسلم قيادة دايلمز بنز سنة ١٩٩٥م ، مع أنه سبب للشركة خسارة (٦) مليارات مارك ، وأعلن أنَّ المؤسسة ستسرّح في الأعوام المقبلة ستة وخمسين ألف عامل ، وهذا أدى إلى ارتفاع سعر سهم المؤسسة بمقدار ٢٠٪ وزادت ثروة مالكي الأسهم بحوالي عشرة مليارات مارك ، ذلك على حساب (٥٦٩) ألف عامل يسرّحون دون رحمة أو شفقة . وأشادت بعض الصحف بإدارته الثورية . وبلغ راتبه (٢,٧) مليون مارك سنوياً ، واستطاع أن يحصل من ممثلي المساهمين

(١) فخ العولمة ، ص : (٢٣٤) .

في مجلس الإدارة، لنفسه ولسبعين إدارياً كبيراً، على عقود خيارات بالأسهم تدرّ من خلال ارتفاع سعر الأسهم على كل واحد مبلغاً يعادل (٣٠٠) ألف مارك! بطون لا تشبع![1]

ومن خلال ذلك أخذ يدور الصراع والتنافس، واللجوء إلى وسائل وأساليب متعددة ليحمي كلٌّ مصلحته الخاصة على حساب الآخرين، في صورة قد تهدّد الجميع في لحظة ما. ناهيك عن صراع النقابيين ومحاولاتهم المتكررة التي تنتهي غالباً بالفشل. إنَّ قصة هذا الصراع والتنافس يحتاج إلى صفحات كثيرة أو كتب كلها تكشف حقارة الإنسان حين يملكه الطمع والجشع، والعدوان والظلم.

تحرير الأسواق جنون منظم:[2]

الحكومات الوطنية لها دور في المسؤولية. فكثير من المسؤولين في الحكومات الوطنية أصبحوا يرون أنه كلما تراجع تدخُّل الدولة في الاقتصاد على نحو كاف، فسيتحقّق الازدهار وتزداد فرص العمل بصورة عفويّة، فتُهْدَمُ بذلك مشروعاتٌ تديرها الدولة، وتصبح المنافسة هي كلّ شيء، ولا يعود هناك أهمية لفرص العمل. وحين تقوم الحكومات بخصخصة البريد والاتصالات الهاتفية ومشروعات الكهرباء والمياه والنقل الجوي وسكك الحديد، وتفتح المجال للتجارة الدولية بهذه الخدمات، وتمنح الأسواق حريّة اتخاذ القرار، فإنها في الواقع تسبب تعميق الأزمة التي قامت الحكومة لمعالجتها.

لقد كان هذا التناقض واضحاً في الولايات المتحدة وبريطانيا وفي غيرهما، حيث أصبح تخفيض الطبقة العاملة وتسريح أكبر عدد من العمال سياسة توفر أرباحاً طائلة لجيوب الرأسماليين. ولنذكر أمثلة واقعية على ذلك:

" لوفت هانزا " أعلن رئيسها " يورجن فيبر : " Jeurgen Weber" رفع الجدارة،

(١) انظر: فخ العولمة، ص: (٢٣٧).
(٢) المصدر السابق، ص: (٢٤١).

تسريح أعداد كبيرة من العاملين ، الامتناع عن زيادة الأجور ، زيادة ساعات العمل اليومي ، خفض مطالب العاملين بشأن العطلة السنوية .[١]

اعتباراً من سنة ١٩٨٨م ستتحرر المتاجرة بخدمات الاتصالات الهاتفية في داخل الاتحاد الأوروبي بالكامل ، مما أوجد جنَّة للمستثمرين والمؤسسات المتخمة برؤوس الأموال .

شركة " AT&T" الأمريكية ، بمستخدمين عددهم (٧٧) ألف عامل حققت عام ١٩٩٥م أرباحاً بلغت ٥,٤٩ مليار دولار . وبناء على اتفاقات مبرمة يجب على شركة الاتصالات الألمانية حتى عام ١٩٨٨م تسريح ستين ألف عامل كخطوة أولى في مجال الهاتف ، ولتكون هذه الشركة قادرة على المنافسة يتعين عليها تسريح ما يقرب من مائة ألف مستخدم حتى سنة ٢٠٠٠م .

وفي أمريكا في سنة ١٩٩٦م ، قرر الكونغرس الأمريكي تحرير سوق الاتصالات الهاتفية المحلية ، السوق الذي كان يتمتع حتى ذلك الوقت بالحماية .

أما شركة الاتصالات البريطانية فقد ألغت منذ انطلاق عملية الخصخصة سنة ١٩٨٤م (١١٣) ألف فرصة عمل ، وخطّطتْ إلى تسريح (٣٦) ألف عامل حتى سنة ٢٠٠٠م .

وبهذا الأسلوب لن يبقى في العالم إلا أربع أو خمس شركات عملاقة تستأثر وحدها بالعمل والربح والظلم . فإذا هذا الإجراء هو جنون حقيقي ، خاصة إذا كانت أهم هموم الدولة وأكبرها هي البطالة . فالشركات تلقي العمالة في الشوارع ليوجدوا أزمة البطالة الحقيقية .

وتزداد الأمور تناقضاً حين يدّعي الذين يؤمنون بالعولمة وصورها التي عرضناها أنها تمهّد الطريق أمام الثالث ، فسيكون بوسع ستة مليارات مواطن في العالم المشاركة في تلك الانتصارات التي لم ينعم بها حتى الثمانينات سوى (٦٠٠) مليون مواطن في البلدان الصناعية القديمة .[٢]

(١) المصدر السابق ، ص : (٢٤٤) .
(٢) فخ العولمة ، ص : (٢٥١) .

ونرى أنَّه ادعاء باطل ، لأنَّ هذه الدول الصناعية الكبرى لم يكن دورها إلا سرقة العالم الثالث ، ونهب خيراته بالعدوان والظلم ، والتجهيل والإفقار من خلال تاريخ مظلم لا يحمل من هذه الدول إلا الاستكبار والظلم والمآسي . وقد أشعلوا الأرض حروباً ليستعبدوا الناس ويسترقوهم ، أو يقتلوهم ويبيدوهم !

لا شكَّ أن التاريخ ما زال يدوّي بمآسي أفريقيا التي أوجدتها أوروبا وأمريكا ، ولا شك أن سكان أمريكا الحقيقيين يذكر من بقي منهم عمليات الإبادة التي ذاقوها من الغزاة المجرمين الأوروبيين ، ولا شكَّ أنَّ شمال أفريقيا ما زال يذكر المآسي التي أوجدتها إيطاليا وفرنسا في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب . ماذا يتذكر العالم من هذه الدول التي تزعم أنها متحضِّرة ، فبئس الحضارة !

الفصل الثاني
ضياع السلطة
واضطراب السيادة الوطنية ؟!

لقد برزت محاولات كثيرة للتهرّب من دفع الضرائب أو تقليصها قدر الإمكان بوسائل ومبتكرات كثيرة . ولم يقتصر هذا الأمر على المؤسسات الصناعية الكبيرة فقط ، فالمؤسسات المتوسطة تسعى إلى ذلك أيضاً .

يقول : " كورت توخولسكي : Kurt Tucholsky" سنة ١٩٢٧م : " إنَّ الإجرام والرأسمالية فقط هما المنظّمان في أوروبا تنظيماً عابراً للحدود " ، ويقول سنة ١٩٣٠م : " بعدما ينقل أصحاب المشروعات كل ما بحوزتهم من أموال إلى الخارج ، يتحدّث بعضهم عن تفاقم الحال " !

(٢٥٠) من موظفي الضرائب يفتشون في مارس ١٩٩٦م مصرف "Commerz bank" في فرانكفورت ، عن وثائق تدين المصرف . عند ذاك توتّرت أعصاب رئيس هذا البنك الذي هو رابع أكبر المصارف الألمانية ، وهو " مارتن كول هوزن " ، أحد رجال المال الكبار في العالم ، أصبح ضحيّة مؤامرة مدبّرة ضده من الدولة . وحرّر زميلاه في إدارة المصرف رسالة موجهة إلى دائرة الضرائب في فرانكفورت يعترفان فيها بارتكاب أعمال تخالف القانون الضريبي . ويبدو أن المخالفة هي أنهم طرحوا أو حذفوا الخسائر التي وقعت لهم خارج ألمانيا من أرباحهم في ألمانيا ، فنقصت بذلك قيمة الضرائب المترتبة . ومن خلال هذه المعارك يرى بعضهم أنه ليس هناك ما يدعو رجال الضريبة للفرحة . فمهما زادت الدوائر الحكومية من حملات التفتيش فإنها ليست قادرة على الانتصار في هذه الحرب المستمرّة منذ سنوات . والسبب أن قادة المشروعات الجسورين على نحو غير عادي ، هم أولئك الذين يتبعون الطرق غير القانونية . ولكنَّ المؤسسات الصناعية التي تدار بأسلوب محنك تستطيع أن تخفض قيمة الضرائب التي تدفعها دون اللجوء إلى طرق غير

قانونية . فشركة " BMW" استطاعت أن تخفض ما عليها من ضرائب ، وكذلك " سمينز " ، وكذلك شركة " دايلمز بنز " . فخبراء الشركات في شؤون الضريبة تعلّموا كيف يتملّصون من العبء الضريبي بشكل شرعي .(١)

والأساس في هذه الوسائل هو خلق اتحاد يضم شركات وفروعاً تابعة للشركة الأم ، وموزعاً على بلدان مختلفة ، لذا فإنَّ هذه الشركات والفروع قادرة على أن تحتسب لنفسها تكاليف اعتباطية ، وبمثل هذه الأساليب تمكنت الشركات الناشطة عبر الحدود أن تورّط خلال السنوات العشر الماضية كل دول العالم تقريباً فيما يسميه وزير الدولة للشؤون المالية في " بون " بـ " تنافس النظم الضريبية " ، فيما أنَّ الدول المختلفة تتنافس دوليّاً فيما بينها من أجل استقطاب الاستثمارات ، لذا لم يعد أمامها إزاء عجز دوائرها وموظفيها الضريبيين سوى العمل على جعل المعدلات الضريبية تتقارب عند مستوى متدنٍّ . وقد بدأت مسيرة الانحدار سنة ١٩٨٦م ، حين خفّفت حكومة الولايات المتحدة المعدّل الضريبي على عوائد الشركات المساهمة من ٤٦٪ إلى ٣٤٪ ، واضعة بذلك مستوى عالمياً جديداً ، تعيّن على غالبية الدول الصناعية اتباعه ومنح نفس الميزة .

إنَّ الظروف التي أوجدتها هذه العولمة ساعدت كثيراً على استنزاف أموال الدولة . لقد أبيح هناك أكثر من عامل يساعد على استنزاف أموال الدولة ، فالتنافس على دفع أدنى الضرائب يتزامن مع التنافس على الحصول على أسمى التبرّعات والمساعدات ، يضاف إلى ذلك أنَّ مدَّ الشوارع والطرق والسكك الحديدية وإيصال الطاقة الكهربائية والماء ، يتم بلا ثمن . وعندما تقيم شركة صناعية مصنعاً لها في أرض خارج بلدها ، فإنَّ الدولة تدفع لها مبالغ عالية من المال لقاء استثمارها هذا في أراضيها . فدافعوا الضرائب في ذلك البلد يتحمل قسطاً من هذه المساعدات ، يضاف إلى ذلك ما تتمتع به من إعفاءات ضريبية متوقعة ، وتبقى الطبقة المسحوقة في معاناتها ، تستغيث وتستغيث ! ولكن هل من مجيب ؟!

(١) المصدر السابق ، ص : (٣٤٧-٣٥١) .

ولما حاول " هلموت كول " أن يلقي خطاباً في ألمانيا الشرقية من دار الثقافة التابعة لمصنع " بونا : Buna" لكسب ثقة الناخبين ولنشر الآمال المشرقة ، لمس عن كثب الإحباط الذي عمَّ السكان بسبب ما أصابهم من فقر وإملاق ، حتى إنَّ أحد العمال صرخ عالياً : " فكروا في عائلاتنا " ! وفي داخل القاعة توسَّلت إليه رئيسة النقابة العمالية أن يسرع بالخصخصة من أجل المحافظة على(٨٠٠٠) فرصة عمل متبقية من أصل (١٨,٠٠٠) فرصة عمل كانت متوافرة سابقاً ، على الأقل : " إني أرجوك فلا تخيّب أملنا "(١).

وقال أحد موظفي الشرطة الدولية " Interpol" : «إنَّ ما هو في مصلحة التجارة الحرّة هو في مصلحة مرتكبي الجرائم " ! وحسب تقديرات مجموعة خبراء شكلتها الدول الاقتصادية السبع الكبرى سنة ١٩٨٩م ، فقد ارتفع حجم المبيعات في السوق العالمية من الهرويين حتى عام ١٩٩٠م إلى عشرين ضعفاً خلال العشرين سنة الماضية ، أما المتاجرة بالكوكايين فقد ارتفعت إلى خمسين ضعفاً ، ومن استطاع المتاجرة بذلك على هذا المستوى فهو قادر على أن يتاجر بأي شيء مخالف للقانون . السجائر المهربة ، الأسلحة ، السيارات المسروقة ، والنزوح على نحو غير شرعي ، إنها تجارة تنافس اقتصاد السراديب المظلمة .(٢)

(١) فخ العولمة ، ص : (٣٤٧- ٣٦٧) .
(٢) المصدر السابق ، ص : (٣٦٨) .

الفصل الثالـث

جنــــاة أم ضحــايـــا !

من ظروف العولمة ، ومن أحداثها ، يُزرع الخوف في أجواء تلك الأماكن التي تقوم بالأنشطة العالمية واجتماعاتها ، وخاصة تلك التي تنظمها الأمم المتحدة . فكل من يرغب في المشاركة لا بد أن يتعرض لتفتيش دقيق واستجواب دقيق على صورة مضنية ، والانتظار الطويل في طابور طويل لعمليات التفتيش ، كل ذلك خوفاً من أعمال عدوانية .

إن هؤلاء المجرمين الذين يقودون العالم في عولمته يرتعدون خوفاً من محاولات اعتداء عليهم . إنه شعور داخليّ عميق في أغوار النفس ، تبعثه كثرة الجرائم التي ارتكبوها والتي ملؤوا الأرض منها .

وكذلك فإن السياسة التي يتبعونها والأساليب التي يبتدعونها ، وروح التنافس العالي ، ونظريات التربية والاقتصاد ، كل ذلك يولّد في المجتمعات رجالاً يحترفون الجريمة ، وقد امتلأت قلوبهم بالأحقاد التي يولّدها الظلم الذي عانوا منه.

حياة خوف ممتدة من داخل الأماكن المحصنة والمحاطة بالحرس والجنود ، وأجهزة الحماية ، إلى خارجها ، إلى قلب المجتمعات التي تموج فيها الجرائم والفتن والمخدرات والفجور .

إن أمين عام هيئة الأمم المتحدة ، سواء أكان كوفي عنان ، أم سابقه بطرس غالي ، يعيش كل منهما في أجواء المخاطر الهائجة المائجة ، تولدها كلها أجواء العولمة ! فلم يعد هناك عولمة واحدة ، بل عولمات كثيرة ، فمن عولمة في ميدان المعلومات ، إلى عولمة في ميدان المخدرات والأوبئة والبيئة ، وميدان المال ، وغير ذلك . ولقد أخذت العولمة تتعاظم في ميادينها المختلفة بسرعة متباينة ، وكل سرعة بطيئة إذا قيست بتعاظم سرعة عولمة الجريمة .

إن كثرة التحولات التي تولّدها العولمة ، تعصف بالعالم ، وتزيد من تعقيد المشكلات . فتتضاءَل إمكانات تدخّل الدول ، ويتعاظم أكثر فأكثر تجاوز اللاعبين الدوليين حدود اختصاصهم من دون رقيب يُذكَر . ولكن هل يَعي الرؤساء حقيقة العولمة ، أم أنهم ما يزالون يتصورون أن السيادة الوطنية مازالت بيدهم ، وأن بمقدورهم السيطرة على العولمة . فهل هم حقّاً قادرون أم أنهم يتوهمون .

إن ارتفاع درجة حرارة المناخ المتزايد ، إما أن تكون تنبّؤات علمية على خطأ ، وهذا يدعو إلى الفرح ، وإما أنها حق ، فهذا يعني أننا لم نعد قادرين على وقف هذه النتائج ، لأن إصلاح الحال لو أمكن فإنه يتطلب تكاليف يصعب نفسيّاً تحمل المواطنين لها . ومن دون القوة العظمى ، الولايات المتحدة الأمريكية ، لا شيء يحدث . إلا أن الولايات المتحدة نفسها لا تنشط في هذا المجال أبداً . والمحاولات المتخاذلة التي قام بها كلينتون وإدارته لاتخاذ الخطوات الأولى على أدنى تقدير ، الرامية إلى فرض ضريبة لحماية البيئة ابتداءً من سنة ١٩٩٣م ، وبالرغم من أن " **آل غور** " كان سناتوراً أمريكياً خبيراً في هذه الأمور ، كان أمل ومحط أنظار المشاركين في مؤتمر " ريودي جانيرو " سنة ١٩٩٢م ، إلا أنه لم يفعل شيئاً على الإطلاق لتحقيق السبيل إلى التوازن الذي دعا إليه في كتابه الواسع الانتشار ، حينما تقلّد منصب نائب رئيس الجمهورية .

ولكن الأمر اختلف في مؤتمر الأمم المتحدة للسكان الذي عقد في القاهرة في سبتمبر ١٩٩٤م ، أي بعد خمس سنوات من انهيار جدار برلين ، حيث امتدح آل غور النظام الصحي العقلاني الذي تنتهجه الولاية الهندية الجنوبية " كيرالا Kerala" والتي يحكمها الشيوعيون أعداء النظام الأمريكي التقليديون منذ عشرات السنين . وهذا يمثل تطوراً واختلافاً بين هذا الموقف وموقف الحزب الجمهوري الأمريكي في مؤتمر ريودي جانيرو الذي أفشل فيه جورج بوش المؤتمر . وأخذت مواقف أمريكا تكشف عن اختلاف وتضارب بين موقف وآخر ، ليحمل هذا الاختلاف روح الانتهازية .

إن السياسة الدولية في ظل العولمة أصبح اتجاهها أن تنتظر وقوع الحدث بدلاً من اتخاذ المبادرة الحازمة لتفادي وقوع الأخطاء . والسياسيون يقولون لسنا نحن المسؤولين ولكنه السوق ، فالسلطة هي السوق [1] .

ويقول أحدهم : إن معظم الشركات الأوروبية الكبيرة قد صارت ترى في نفسها عجلات تسيرها العولمة الاقتصادية . وإلا فهل هناك فعلاً مؤسسة أوربية كبيرة تشعر بالاطمئنان حينما تفكر باستثماراتها في الصين ؟! لا أحد يشعر بالاطمئنان ، فكل واحد يرى أنه ليس هناك قانون يحمي حقوقهم .

وأخيراً ، فمن هم هؤلاء اللاعبون الدوليون في مجال السياسة والمال والإعلام والاقتصاد : أهم مسيَّرون دونما إرادة منهم ، أم هم جناة مع سبق الإصرار ؟! هل هم ضحايا أم جناة ؟! إنهم ضحايا وإنهم جناة في الوقت نفسه .

(١) المصدر السابق (ص : ٣٢٦ـ٣٤٥) .

الفصل الرابع

لينقذ نفسه من يستطيع ![1]

في فندق " الفيرمونت " في سان فرانسيسكو سنة ١٩٩٥م حيث أقيم احتفال تكريم لميخائيل جورباتشوف ، قال جورباتشوف : " **هل سيتحول العالم كله إلى برازيل كبيرة ، أعني إلى دول تسودها اللامساواة ، مع وجود أحياء مقفلة تسكنها النخب الثرية ؟!** إنكم بهذا السؤال تطرحون لبَّ المشكلة على بساط البحث. وإنها الحقيقة أنَّ روسيا نفسها ستصبح على شاكلة البرازيل " !

يتساءل عامل في شركة " باتنفيلد "Batten field" لماذا سرَّحت شركته منذ زمن قريب ربع عمالها ، مع أنَّ الشركة حققت أرباحاً عظيمة في مجال تصنيع المكائن والآلات ؟! ويتساءل كذلك : لماذا تعطي المبالغ الهائلة لروسيا ؟! والمساعدات للدول النامية ؟! ولماذا نستمرُّ في دفع أموال لليهود ؟! ثمَّ يعقّب على ذلك بقوله : " **إنه عمل جنوني** " !

مسافر تأخر عن موعد إقلاع رحلته بطائرة " لوفت هانزا " ، بسبب تغيير الإدارة لمواعيد الطائرات دون علم الركاب ، وقد شارك هذا المسافر مع ألف آخرين للاحتجاج على قرار تسريح (٨٦) عاملاً من الشركة .

بالرغم من قوة أمريكا ، فإنها مجتمع غير متجانس حقيقة ، ولا يقوم على مبدأ التكافل . فهناك هجوم على الطبقة الوسطى يشكِّلُ " باروداً " جديداً يشعل النار في المجتمع ، بالإضافة إلى مشكلات أخرى مثل : الصراعات العرقية المستمرّة ، المخدّرات ، الجرائم الكثيرة المعلنة في شتى الأشكال والأساليب ، تدهور المدارس الثانوية ومستوى التعليم فيها وانهيار الأخلاق ، واستخدام السلاح بين الطلاب ، والاعتداءات الجنسية بين الطلاب والطالبات ، وبين الطلاب والمدرّسات ، تدنّي رواتب المدرسين ، وقضايا أخرى معلنة أو مخفية ، تشكل ثورة من أعلى الهرم على من في أسفله .

---

(١) فخ العولمة ، ص : (٢٩٣) .

وأما أوروبا ، فهل تسير على الدرب المستقيم ؟! وإنه لأمر واضح أنه ما من أحد ما بين لشبونة إلى هلسنكي يستطيع أن يرفع أنفه ويشمخ . كيف تستطيع أوروبا أن تؤكد ذاتها ، وهي التي قذفت بمجموعات حققوا الحلم الأمريكي ؟! فإذا كان ما حققته أمريكا أصبح كابوساً ينعكس على أوروبا وينتقل إليها فجأة ؟![1]

لقد كان انعكاس ما حققته أمريكا على أوروبا ينعكس سلباً على أوروبا ويهدّد وحدة ألمانيا !

لقد أفرز التخلي عن البرنامج السابق الذي كانت تسير عليه الاقتصاديات الغنية ، والرامي إلى إتاحة فرصة للطبقة الوسطى العريضة لأن تشارك في جني ثمار الازدهار ، أفرز هذا التخلي تدهوراً اجتماعياً متزايداً !

كيف يستطيع كثير من الشبان في ألمانيا أن يتطلعوا إلى الرفاهية ؟! فالطبقات الدنيا من الطبقة الوسطى تزداد فقراً ، ويترك هذا البلد شبيبته الذين يعانون من الإهمال والإحباط. ويقول أحد الباحثين المتخصصين إنه لم يعد ميسوراً أمام الشباب أن يحققوا لأنفسهم مكانة تتفوّق على مكانة عائلاتهم في السلم الاجتماعي ، أو أن يحافظوا عليه . ومنذ سنة ١٩٨٩م أخذت حوادث الجنايات ترتفع يرتكبها الصبيان والشباب . مشاعر الشباب أصبحت تدفع إلى السعي والرغبة في متع الحياة بأسرع ما يكون . هكذا صورت إحدى الصحف الألمانية المشاعر الطاغية عند الشباب . ومنهم من يتّهم الآباء ويحملهم المسؤولية في الإهمال في تربية أبنائهم . ولكن هناك من يردّ على ذلك ويسأل : كم من الوقت يُترك للآباء كي يعطوا أبناءهم شيئاً من الجهد في التربية والبناء والتعهد ؟! وكم من الأبناء يتربّون في كنف عائلاتهم ؟!

إنَّ التدهور عصف بالملايين من أبناء الطبقة الوسطى الألمانية الموفورة الرزق ، وحولها إلى طبقة فقيرة متواضعة العيش ، لن تجدي معها وسائل تحسين التعليم ، فالهوّة بين الغني والفقير تزداد وتتعمّق .

---

(١) فخ العولمة ، ص : (٣٠٣-٣٠٤)

الغنيّ أفسده غناه ورماه في وحل المتعة واللهو وزهوة الحياة ، مما أشغله عن الوفاء بواجب تربية الأبناء وتعهدهم ، فأيّ جيل من الشباب سيخرج من هذا الجوّ ؟! والفقراء شغلهم السعي وراء لقمة العيش فما وجدوا وقتاً كافياً للوفاء بمسؤولية تربية الأبناء ! فأي جيل من الشباب سيخرج من هذا الجوّ ؟!

إنَّ الإنسان الذي كوّنته العولمة جرّدته من القدرة على التفكير القويم ، حتى لم يعد يدرك ما هي مسؤوليته في هذه الحياة الدنيا ، ولم يعد لديه وقت ليفكر في الموت الذي هو قريبٌ جداً منه ، ولا بما بعد الموت ! إنهم يعيشون هكذا ، تمر بهم الأيام والليالي على سنن لله ثابتة ، دون أن يؤمنوا بهذه السنن ، ودون أن يتّعظوا بأحداث الحياة وسنن الله فيها ، من فقر ومرض وموت ، وغنى ومتع ، انحلّت الأسرة في العالم الغربي انحلالاً واسعاً إلا من رحم ربك ، فلا الأبناء يعرفون واجباتهم نحو آبائهم ، ولا الآباء يعرفون مسؤولياتهم نحو أبنائهم ، ولا هؤلاء ولا هؤلاء يعرفون واجباتهم نحو أمتهم ولا نحو أنفسهم ولا نحو مصيرهم !

وتفشى الانحلال الجنسيّ ، والزنا والفاحشة ، بشكل مروّع مخالفاً لكل المذاهب الفكرية والدينية ، ومخالفاً لكل الشرائع ، إلا تلك الشرائع التي وضعها المجرمون في الأرض ليحموا بها مصالحهم وطغيانهم وفسادهم ! وغلّفوا ذلك بكل الشعارات المزخرفة التي تُغْري ولا تجدي ، غلافات الديمقراطية والحريّة ، وحقوق المرأة وحقوق الإنسان ، ولجان الطفولة ، والأمومة ، وأمثالها ، بما ليس لها من واقع الأمانة والوفاء إلا الشعار ، فإنهم سحقوا الإنسان ، وسحقوا الأمومة ، وسحقوا الطفولة .

وعزلوا الدين عن الحياة كلها تحت شعار العلمانية القاتلة ، إلا حين يحتاجون الدين ليتاجروا به وليَحْموا به مصالحهم وأطماعهم ، ويثيروا به الفتن بالإشاعات والافتراء والكذب .

أصبحت النظرة والتصور والفكر لدى الجميع ، حتى لدى المتدينين ،

تصورات ماديّة دنيوية ، لم تعد تغني معها الطقوس الكنائسية ، والأناشيد اللاهوتية، التي تتردّد في زحمة الشهوات المجنونة الثائرة ، وأمواج الوحول الهائجة ، والصراعات الدائرة ، كلها في الدنيا وللدنيا ومن الدنيا ، وانقطاع كامل عن حقيقة هذا الكون في مشهده وغيبه ، **وانقطاع عن الحقيقة الكبرى في الحياة والكون ، الحقيقة الكبرى التي تنطلق منها جميع الحقائق : حقيقة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله .**

فأيّ وحدة ترجى في أي مجتمع تمزّقه هذه الأهواء والشهوات ، وتمزّق العُرا التي تربط الإنسان بالإنسان ، وتمزق الأرحام ، وسائر الصلات الفطرية التي فطر الله الناس عليها . واعتبر كثير من المترفين والمنعمين أنَّ الجنَّة هي مدينتهم أو بلادهم بما يتوافر فيها من نعم الله التي يحسبونها نعم الطبيعة ، من مناظر جميلة وأشجار وأنهار وجبال وغير ذلك ، دون أن يشعروا بفضل الله عليهم ورحمته .

وللنظر إلى حياة النخب المرفهة في البرازيل ، كيف تعيش ؟!

فمدينة الفافيل " ALPHAVILLE" هو اسم الجنة التي تقع غرب مدينة " ساوباولوا " ، ويحيط بها سور شاهق مزوّد بأضواء كاشفة تفشي سر كلّ حركة ، حتى لو كانت حركة قطة لا غير . عائلات مُتْرفة تعيش داخل السور ، معزولة عن واقع المجتمع ، يحميها السور ، ورجال الحرس على مدار الساعة مستخدمين دراجات بخارية ، وعربات مزوّدة بالرصاصات المضيئة .

وبجوار هذه الأجواء الثريّة المنعّمة التي حسبها أهلها أنها هي الجنَّة ، يعيش كثير من المعدمين المحرومين . ولا يمكن للأبناء دون الثانية عشرة أن يتخطوا البوابة الحديدية والخروج إلى عالم المعدومين إلا برفقة وليّ الأمر ، أما بالنسبة لمن كان دون سن الرشد ، فإن الأمر يتطلب موافقة الأبوين الخطية . وعلى كلِّ زائر أن يثبت هويّته ، ولا يسمح له بالدخول إلا بعد الاتصال الهاتفي مع الساكن في الداخل . حراسة شديدة جداً ، وتفتيش لكل زائر أو عامل .

يقول أحدهم : " في أوروبا يعيش الجناة خلف جدران السجون ، أما هنا فإنَّ الأثرياء هم الذين يعيشون هناك " . ويقول بعضهم إن " الفافيل alphaville" ضرورة يحتّمها السوق» .

هل " الفافيل " هي النموذج الذي يتطلّع إليه العالم ؟! منذ أخذت العولمة تمزّق النسيج الاجتماعي في البلدان التي لا تزال تنعم بالرفاهية ، فإنَّ عدد الجزر الشبيهة بهذا الجو الانعزالي آخذ بالتزايد . هذه الظاهرة البرازيلية آخذة بالانتشار في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تقوم الأسوار العالية والحراسة الشديدة ، وفي فرنسا ، وساحل إيطاليا وإسبانيا والبرتغال ، ونيودلهي ، والعمارات السكنية المحمية في سنغافورة . (١)

كم من الناس أصبح ينادي : أنقذونا من هؤلاء بحقٍّ السماء !

ربما استطاعت شخصية "هلموت كول" أن تخفي في ألمانيا ما لم يعد ممكناً إخفاؤه في الدول الصناعية الأخرى . لقد أخذ يزداد عدد الناخبين الذين يشيحون بوجههم عن ممثليهم التقليديين . وأخذت تتقوّض المؤسسات التقليدية القديمة ، ويبدو ذلك في الولايات المتحدة أكثر وضوحاً . فلم يعد الأمريكيون يشاركون في الانتخابات مشاركة كبيرة . في انتخابات جون كيندي ، وريتشارد نكسون لم يشارك إلا ٧ , ٦٠٪ من الناخبين ، ولم يصوت لصالح الرئيس المنتخب بيل كلينتون سوى ٢ , ٢٤٪ ، واليميني روس بيرو لم ينل إلا ١٩٪ من أصوات الناخبين . ولم يعد لدى الحزبين الكبيرين في أمريكا القدرة على توحيد صفوف المجتمع ، فقد أصبح هنا في تراجع مستمر ، مما يهيِّء فرصاً لظهور مسؤولين لا يتمتعون بالعقلانية ، ولا تتوافر في قراراتهم الحكمة .(٢)

ويحذّر بعض المراقبين السياسيين من التحولات السائدة في أكبر ديمقراطيات العالم استقراراً . ويصرّح بعضهم : " إننا نمرّ في ظرف يسبق عادة المرحلة الفاشية " .

---

(١) فخ العولمة ، ص : - ٣٠٦-٣١١) .
(٢) المصدر السابق ، ص: (٣١٥) .

وكما حذّر كذلك الصحفي الأمريكي من " واشنطن بوست " " وليم جريدر William Grider " من النظام السياسي المريب في وطنه ومن النهج الذي يتبعه المصرف المركزي الأمريكي . وذلك في كتابه : " أسرار المعبد Secrets of the Temple وكتابه : " من سيُطْلع الشعب : " Who will tell the people، وفيه العنوان الجانبي التالي : " خيانة الديمقراطية الأمريكية " .[1]

ولقد تكونت طبقة من السياسيين يعادون الأجانب ، ويشنون الهجوم على رجالات المال الكبيرة ، وإطلاق مشاعر ضد اليهود ، مثل " بات بوكانان: "Bat Buchanan ذي النزعة القومية ، الذي بدأ أول أمره يحقق انتصارات في الانتخابات الأولية ، ولكن برامجه اعتبرها بعضهم تعود بجذورها إلى الصيغ الفاشية ، مما لم يرق لأولي الأمر الجمهوريين ولحركة " الائتلاف النصراني : " "Christian Coalition"، فتناقص تأييده وتوقّف ترشيحه لرئاسة الجمهورية.[2]

(١) المصدر السابق ، ص : (٣١٦) .
(٢) المصدر السابق ، ص : (٣١٤-٣١٩) .

الباب الخامس

وقفات وصور مع الكتابين : «فخ العولمة» و«سيارة لكساس وشجرة الزيتون»

الفصل الأول : وقفة قصيرة مع كتاب : " فخ العولمة " .

الفصل الثاني : جولة في كتاب : " السيارة لكساس وشجرة الزيتون " .

الفصل الأول
وقفة قصيرة مع كتاب : " فخ العولمة "

لقد عرضنا في الأبواب السابقة صوراً وأحداثاً ومواقف يعرضها المؤلفان في كتابهما هذا : " فخ العولمة ـ الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية " ، كما يعتبرانها ، وأشرنا إلى ذلك في مواضعها ، ونعرض صوراً أخرى في صفحات مقبلة .

ودراسة العولمة تقتضي فهم جذور نشأتها وتطورها وفلسفتها ، وتقتضي كذلك دراسة تطبيقها في واقع الحياة وفي ميادينها المختلفة .

ولقد عرضنا في الأبواب السابقة دراسات متنوعة حول العولمة ، وعرضنا موقف الإسلام منها ، ولكن كتاب : " فخ العولمة " يتميز بأنه يتابع العولمة في نواحٍ متعددة من الأرض ، في صورها التطبيقية وآثارها على الإنسان ، ويحشد صوراً وأحداثاً كثيرة .

ومن عنوان الكتاب يرى المؤلفان أنَّ العولمة فخٌّ فيه اعتداء على الديمقراطية والرفاهية . ولكن باستعراض الكتاب واستعراض التاريخ نحار أين نجد ما يسمّى الديمقراطية ، و أين ما يسمّى بالرفاهية ؟!

التاريخ البشري ـ إذا استثنينا رسالات الأنبياء والمرسلين ـ كله صراع أهواء ورغبات ، كلٌّ يريد الكسب الكبير لنفسه ، ويريد أن يمتدّ سلطانه ونفوذه على قدر ما يستطيع ، أو على قدر ما تقتضي به سنن الله الثابتة في هذه الحياة الدنيا ، السنن الثابتة الماضية سواءً آآمن بها الناس أم لم يؤمنوا ، إنها مثل شروق الشمس وغروبها ، حقيقة ثابتة ، وجزء من سنن أعم وأوسع تمضي على قدر غالب وقضاء نافذ وحكمة بالغة .

هذا الكتاب لا يتعرّض لهذه السنن ولا للتصورات الإيمانية ، وإنما يعرض الأحداث كما هي من خلال نظرات المؤلِّفين والتصورات العامَّة ، ليس هناك ميزان محدد يُحتكم إليه في دراسة المواقف .

ومن استعراض الكتاب كله نتساءل : أين هي الديمقراطية التي اعتُدي عليها ؟! وأين هي الرفاهية التي اعتُديَ عليها ؟! هنالك خط واضح : طبقة فقيرة مسحوقة وطبقة غنية مترفة مجرمة لا تشبع ولا تقنع ! لا ديمقراطية ولا رفاهية هذا هو الخطر الأول .

ونحن حين ندرس العولمة لنا ميزان أمين دقيق نحتكم إليه ونردّ قضايانا كلها صغيرها وكبيرها إليه ، إنه الإسلام ، إنه الكتاب والسنة واللغة العربية التي اختارها الله لغة كتابه وسنة نبيه ﷺ ، لغة الإسلام الذي يحمله منهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ ، يحمله للإنسان ، للبشرية كلها ، لكل زمان ولكل مكان .هو نورٌ وهدى ، وموعظة وبيان ، وحُجّةٌ على الناس كلهم .

إن كتاب فخ العولمة يعرض صوراً متعدّدة من الظلم في الأرض ، وأحداثاً من الإنسان الظالم ، ومواقف مؤلمة ، كلها تنبع من إيثار المصالح الخاصة والتنافس عليها ، ليُسْحَقَ الملايينُ تحت أقدام هذا التنافس ، والناحية الأخرى هي امتداد الصور المؤلمة على مساحة الكرة الأرضية ، وفضح المراكز المالية ودورها الظالم في الاستغلال والظلم ، وما ينتج عن ذلك من زيادة البطالة ونموّها المطّرد مع العولمة ، والسعي لتخفيض كلفة الإنتاج وزيادة الأرباح ، والتهرّب من الضرائب ، واختلاس الأموال . صور مؤلمة من فساد الخلق وانهيار معاييرها .

لقد نجح المؤلفان في عرض كثير من مآسي الإنسان التي يُسبّبُها له أخوه الإنسان ، ولكن لم أشعر أنهما عرضا حلا سليماً أو مخرجاً أميناً ، أو منهجاً ينقذ البشرية من خطر زاحف محقَّق .

ولن تجد البشرية سبيلاً للنجاة أبداً إلا بالإسلام ، ولكن ليس بالانتماء الاسمي للإسلام ، وإنما بالبناء الحق ، والالتزام الحق بالإسلام و التوبة إلى الله ، والإنابة إليه ، والخشوع بين يديه ، وممارسة منهاج الله ممارسةً أمينة في الواقع البشري ، عن إيمان ويقين ، وعلم راسخ أمين .

إن الذي يجب أن نؤكده أن منهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ هو منهاج حياة كامل متكامل متماسك متناسق للبشرية كلها ، لجميع الأزمنة وجميع الأماكن والظروف والأحوال . إنه يقدم الحلول لجميع مشكلات الإنسان على الأرض في هذه الحياة الدنيا . ولا تصلح هذه الحلول ولا تصدق إلا إذا اتُّبع منهاج الله كله في ممارسة إيمانية صادقة في واقع الحياة الدنيا ، ممارسة إيمانية صادقة يقوم بها كل إنسان وكل أسرة وكل شعب وكل مجتمع ! كيف يمكن أن يقدّم منهاج الله حلولاً لمشكلات الإنسان إذا لم يُمارَسْ كلُّه ممارسة صادقة ؟! فإن ظنَّ بعضهم أن الإسلام بمنهاج الله لا يقدم الحلول ، فالنقص ليس في منهاج الله ، ولكنه في الجهد البشريّ المبذول ، وفي مدى التزام منهاج الله ومدى الإيمان بالله الواحد الأحد. إنه الإيمان والتوحيد ، والصدقُ واليقين ، والعلم الصادق بمنهاج الله كله ، والالتزام الأمين والممارسة والتطبيق ، عندها تتفتّح الحلول ، ويشرق النور ، ويمتد الصراط المستقيم ، ويسعد الإنسان على الأرض ، وينال رضا الله في الآخرة ، في جنة عالية ، في نعيم دائم . إن الإنسان عندئذ ينجو من فتنة الدنيا ومن عذاب الآخرة . ولكن هذه الممارسة لمنهاج الله في الواقع تحتاج إلى دراساتٍ ومناهجَ وخُطط .

إنَّ أهم ما نلاحظه في هذه الصور والأحداث التي برع المؤلفان في عرضها أنَّ أمريكا هي الدولة الأقوى والمشاركة في مآسي العالم كله ، وخاصة في لحظاتنا الحالية .

إنَّ أمريكا لا تفكرِّ إلا بشيء واحد أعلنته مراراً ، ألا وهو مصلحة أمريكا وحدها فقط . واليوم تخوض أمريكا مشكلة مع كوريا الشمالية والصواريخ التي تطلقها لسبب واحد ، وهو أنها تهدد أمريكا فقط ، وأمن أمريكا ! وتثير الحرب هنا أو هناك من أجل ما يتوهمه القادة أنه مصلحة أمريكا . لا شك أنهم كلهم لا يعرفون مصلحة أمريكا ، وإنما يمهِّدون لسقوطها .

إنَّ جميع قادة أمريكا اليوم ، من رئيس الجمهورية إلى الوزراء والمستشارين ،

كلهم رجال أعمال لهم مصالحهم الخاصة . فهم حريصون على مصلحة أمريكا التي توفّر لهم مصالحهم الخاصة ! إنهم رجال أعمال على مستوى دولي ، يريدون العولمة لتمتدَّ معها مصالحهم وأموالهم . إنها هي قضيّتهم الحقيقية، وليس لديهم أيَّ قضايا إنسانية أو خلقية .

وبمتابعة الصور والأحداث التي اقتبسناها من كتاب " فخ العولمة " ، ينكشف لنا فساد الضمائر والنفوس ، والاستعداد الواسع للكذب والغش والخداع . إنَّ الوطنية هي مقدار ما يجد المواطن في بلده من حماية مصالحه الخاصة . وهو مستعد للكذب والغش والخداع ما دام هذا يعينه على حماية مصالحه المادية الخاصة حسب توهّمه !

وبذلك امتدَّ الفساد في المجتمع في جميع ميادينه . فبعد أن أطلقوا للجنس عنانه وللفاحشة والخمور والمخدرات عنانها أفلتت النفوس من عُقُلها ، ولم يعد لها ضابط فهي مستعدة أن تخون وتظلم وتسرق وتقتل . فأول نتائج ذلك هو انتشار الجرائم في المجتمعات وفي الساحة الدولية ، وتفلّت الأسرة من روابطها . إنَّ الإنسان أصبح بذلك متفلتاً تائهاً تشُدُّه قوى من هنا وقوى من هناك ، كأنه ريشة في الفضاء تتقاذفها الرياح .

والمجتمعات كذلك أرخت ضوابطها إلا بمقدار ما تحمي الضوابط مصلحة المجرمين المتنفذين الظالمين المعتدين .

ثبت أن شعار الديمقراطية التي يعلنها الغرب ، شعار خاو لا يحمل قيماً جادة تحمي الإنسان ، والحريّة التي يدّعونها حريّة كاذبة ، تعطي الإنسان حريّة الجنس ، الزنا واللواط ، وحرية شرب الخمر ، ليكون هذا كلّه مُخَدِّراً ، وممارسة سائر الموبقات وحريّة إبداء الرأي المتفلّت دون بيّنة أو حجّة ترافق الرأي ، أو حرية الشتائم والقذف والاعتداء على الآخرين دون أيّ ضابط . حريّة تظهر في الصحف أو المجلات إلا أنها لا علاقة لهذا الرأي أو ذاك بالنسبة لاتخاذ القرار .

القرار يؤخذ هناك في عتمة الكواليس ، تتخذه العصابة المجرمة ، لا رقيب عليهم، إلا من عصابة مجرمة أخرى ، تنتظم هذه العصابات فيما يسمى نظاماً إدارياً .

الديمقراطية نظام وضعه الرأسماليون ليحمي مصالحهم ، ولينشر الخدر في الناس ، ولتمتدَّ به المظالم .

فالعولمة في حقيقتها عولمة الظلم والفساد في الأرض ، عولمة فساد البيئة وعدم حمايتها . وما يظهرُ من زُخرف الشعارات ليس أكثر من مخدّر !

إن العالم كله يواجه أخطاراً حقيقية شديدة ، سببها كله ما يدّعيه الغرب من حضارة وعلم وديمقراطية ، لأنهم حوّلوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم كفراً ، فأفسدوا شعوبهم وأفسدوا الحياة والأرض والهواء والبيئة ، وأشعلوا التاريخ البشري حروباً أفنت الملايين من بني البشر ، لا تكاد تنتهي حرب إلا وحروب أخرى تنتشر !

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾
[إبراهيم: ٢٨]

العولمة اليوم هي عولمة التنافس الشرير ، تنافس الكيد والمكر ، تنافس الأنانية ، تنافس استغلال الشعوب الضعيفة ، تنافس استغلال المرأة في الفتنة والفساد والتآمر ، تنافس استغلال الأطفال البريئين وإلقائهم في أحضان التشرّد والفقر والرذيلة !

العجيب المؤلم أنَّ هذا الخدر الذي صنعه الغرب لتخدير الشعوب ، كان له مفعول تخدير آخر ، فإنه خدَّر المجرمين الظالمين الذين صنعوا الخدر ، فلم يعد لديهم أي إحسّاس بالإنسانية أو الرحمة أو القيم التي دعت إليها الرسالات السماوية. لقد قست قلوبهم فغاب عنها إشراقة الإيمان فأظلمت النفوس .

السوق والديمقراطية يراها بعضهم نهاية المطاف ، وهي صورة مناقضة لما هو سارٍ في بعض بلاد المشرق ، حيث يكون الزخرف والخدر من نوع آخر .

كان من المتوقع أن تقيم الحضارة الغربية وبعض بلاد الشرق موازنة عادلة بين ما يُسمَّى اقتصاد السوق (الظالم اللاخلقي) وبين الرعاية الاجتماعية ، لتوفير الحد الأدنى من حقوق الإنسان ، وتقريب الفجوة بين الأثرياء والفقراء . إلا أن هذا لم يحدث ، وإنما تمَّ عكسه !

لا أرى في التاريخ البشري أن الرعاية الاجتماعية تمّت في المجتمع البشريّ على أساس من عقيدة ونظام قائم عليها ، مطبّق في الواقع ، إلا في عهد النبوة الخاتمة محمد ﷺ وعهد خلفائه الراشدين . والناحية الهامة أن ممارسة هذه العقيدة وذلك النظام كان أولاً برعاية مباشرة من الله سبحانه وتعالى ، يَنزل الوحي الكريم على نبيّه وعبده محمد ﷺ ، ليوجّه الممارسة ويقوِّمَ أي خطأ قد يقع . وكان رسول الله ﷺ يشرف على ممارسة أصحابه في مدرسة النبوة الخاتمة ، وما انتقل النبي الخاتم إلى الرفيق الأعلى حتى كان هنالك من استكملوا الدرس وأصبحوا قادرين على متابعة المسيرة ، وتقويمها ، ومعالجة الخطأ حين يقع ، ففي أيديهم ميزان حق أمين ، يزنون به الأمور كلها ، وأمامهم النموذج الأعلى في سيرة النبيّ الخاتم محمد ﷺ أسوة حسنة على مدى الدهر :

﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** (٢١) ﴾ [الأحزاب: ٢١]

وكذلك الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه :

﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (١٠٠) ﴾ [التوبة: ١٠٠]

راجع المسيرة الأوروبية ، وإن شئت الأمريكية ، وقارنها بمسيرة المؤمنين في عهد النبوة الخاتمة والخلفاء الراشدين ، تشعر بالفرق الهائل بين هاتين المسيرتين

وهذه المسيرة الربانية العظيمة ، التي تبقى نموذجاً متفرّداً في حياة البشرية ليُقْتدى بها على مرِّ الزمان ، يرافق ذلك كلّه الدعوة الربانية يحملها الدعاة المؤمنون الصادقون ليبلّغوا رسالة الله كما أُنزلت على محمد ﷺ للناس كافة ، حتى يعذروا أنفسهم بين يدي الله سبحانه وتعالى ، وليمضوا على ذلك لتقوم الأمة المسلمة الواحدة في الأرض ، الأمة التي تكون فيها كلمة الله هي العليا ، الأمة التي يريدها الله أن تكون خير أمة أُخْرجت للناس ، وتكون البشرية كلها بحاجة إليها .

الإسلام بجنوده الصادقين وأمته الواحدة الملتزمة خير التزام ، هو الحل الوحيد لما تعانيه البشرية من مآسٍ وفواجع ونكبات .

لا نقول " **الإسلام هو الحل** " ، نطلقه شعاراً خالياً من النهج والخطة ، خالياً من دقّة الالتزام ، خالياً من جنوده الصادقين الواعين المتقين أمة واحدة .

لا نقول الإسلام هو الحل شعاراً فحسب ! ولكننا ندعو إلى نهج محدّد مفصّل بالدراسات والمناهج ليكون قاعدةً للقاء المؤمنين الذين تموت فيهم العصبيات الجاهلية والأهواء والمصالح الخاصة المتصارعة ، مما يولّد العنف الطائش والإرهاب الجنوني .

إنّ التوترات بين الأثرياء والفقراء وعدم وجود توازن اجتماعي وموازنة عملية ، يصعّد العنف في النفوس إن عاجلاً أو آجلاً !

ولقد لاحظ مؤسس المنتدى الاقتصادي في " دافوس " ورئيسه " كلاوس شواب : Claws Chwab " أنَّ العلامات والإشارات التي تلوح في الأفق بلغتْ مستوى يشكل على نحو لا مثيل له تحدّياً لمجمل البناء الاجتماعي الذي تقوم عليه الديمقراطية .

ولكن لا بدَّ أن نبيّن أنَّ التحدي الأكبر لما يسمّونه الديمقراطية هو الديمقراطية نفسها التي تتناقض مع سنن الله في الحياة ، وتصطدم مع الحقائق الكونية ، وتعتمد

على أسس من التفلت من القيم ، ويسودها المكر والكيد ، والكذب والخداع ، والغش والتزوير والافتراء والظلم ، وغير ذلك .

كل محاولات الفلاسفة والمفكرين لإصلاح السوق المالي وحماية المجتمع والرعاية الاجتماعية ، فشلت في بلوغ شيء من أهدافها ، وظلّت البشرية تتخبَّط في ظلمات بعضها فوق بعض .

لا يوجد من يتصدَّى لمسؤولية الإصلاح الحقيقي : فشلت الشيوعية والاشتراكية ، وفشلت الديمقراطية ، وفشلت العلمانية ، ولم يبق أمام البشرية إلا المؤمنون الصادقون الذين رضي الله عنهم بصدقهم ورضوا عنه فأرضاهم ، إذا حرصت مدرسة الإسلام على صدق البناء والإعداد ، وإذا نجحت في ذلك .

لقد كتب الاقتصادي الأمريكي مدير مجلس العلاقات الخارجية : " Council of foreign affairs " سنة ١٩٦٥م : " إن العالم يتجه دون هوادة إلى تلك المأساة التي ستقف حيالها الأجيال القادمة من المؤرخين حيارى يتساءلون عن سبب عدم تدبير إجراء ما بحقّها في الوقت المناسب . ألم تلمس الطلائع الاقتصادية والسياسية العواقب الوخيمة التي أفرزها التطور الاقتصادي والتكنولوجي ؟! وما هي العوائق التي حالت دون اتخاذهم الخطوات اللازمة لتفادي أزمة اجتماعية شمولية ؟ " (١).

يقترح المؤلفان في نهاية كتابيهما " فخ العولمة " عشرَ أفكار تحول دون قيام مجتمع الخمس الثري والأربعة الأخماس الفقراء . ونحن نوجز هنا الأفكار العشر بعناوينها ، كما وردت مع يقيننا أنها لا تغيّر شيئاً (٢).

أولاً : اتحاد أوروبي ديمقراطي وقادر على النهوض بالتحوّلات المطلوبة .

ثانياً : تقوية المجتمع المدني وتعزيز مشاعره الأوروبية .

---

(١) انظر : فخ العولمة ص : (٣٩٧) .
(٢) انظر المصدر السابق ، ص : (٤٠٢) .

ثالثـاً : الاتحاد النقدي الأوروبي .

رابعـاً : توحيد القوانين الضريبيّة الأوروبية .

خامساً : معايير اجتماعية وبيئية

سادساً : إصلاحات ضريبيّة ذات أبعاد أوروبية لحماية البيئة .

سابعاً : فرض ضريبة مبيعات على المتاجرة بالمشتقات (ضريبة تولين) وعلى القروض الأوروبية الممنوحة إلى مصارف غير أوروبية .

ثامنـاً : فرض ضريبة أوروبية على السلع الكماليَّة .

تاسعاً : النقابات العمالية الأوروبية .

عاشراً : التوقف عن تحرير الاقتصاد من دون تعزيز للرعاية الاجتماعية .

ومن الواضح أن هذه الأفكار العشر غير قادرة على تحقيق الهدف الذي يريده المؤلفان من عدم قيام مجتمع الخمس الثري .

إن أول نقص في هذه الأفكار أن الكاتبين يريان أن العالم كله أوروبا ، وأن الحل يتم في أوروبا ، مُسِح باقي العالم وشعوبه كأنه غير موجود .

الحل المطلوب هو الحل الذي ينطلق من نظرة إنسانية شاملة تجمع البشرية كلها في ظلالها ، وتُرْسي لها قاعدة تجمعها ، ويحملها المؤمنون الصادقون المتقون ، يجاهدون بالدعوة إليها وجمع الناس عليها .

ولا شيء لدى البشرية يقوم بذلك إلا الإسلام وأمة الإسلام الواحدة ! فالإسلام قائم موجود حقاً تعهّد الله بحفظه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]

ولكن الأمة المسلمة التي تحمل هذا الذكر ـ قرآناً وسنَّة ولغة عربية ـ أين هي ؟!

إن الجهود يجب أن تنصبَّ على قيام هذه الأمة لحاجة البشرية كلِّها

إليها! وإنها مسؤولية الدعاة أو الذين يعلنون عن أنفسهم أنهم دعاة ، فهل صدقوا الله بتبليغ رسالة الله كما أُنْزلت على محمد ﷺ إلى الناس كافة ، كما أمر الله ، ولم يشغلوا أنفسهم بما يُلْقي إليهم أعداؤهم من زخارف ومغريات تصرفهم عن هدفهم الأكبر والأسمى وسائر الأهداف الربَّانيَّة التي حدَّدها الله لعباده المؤمنين ؟! فهل صدق الدعاة وأوفوا بالأمانة ونجحوا في تحقيقه .

لا بدَّ من أن نؤكد أن واقعنا المعاصر شهد انشغال الدعاة المسلمين بأمور صرفتهم عن حقيقة الدعوة الإسلامية الربانية . وقد أُعْطيَ الجميع فرصة وافية كافية ليوفوا بالأمانة التي في أعناقهم مدة قرنين من الزمن ، أَو على الأقل مدة قرن ، فماذا كانت النتيجة ؟! كانت هزائم تلو الهزائم ، وفتناً تلو الفتن ، وضياع الديار والحرمات ، والهوان الذي لا هوان أكثر منه ! ومع كل المواعظ والنذر في منهاج الله ، وفي أحداث الواقع ، ما زال بعض المسلمين يسعى جاهداً ليُخدّر الناس ، ويقلب الهزيمة إلى نصر ، والهوان إلى عزّة ، لا يريدون لأحد أن يُفيق ويستيقظ ، ولا أن يعرف أخطاءه وانحرافاته ، ولا أن تعالج الأخطاء الأمراض .

لقد شُغل كثير من المسلمين بالعلمانية والديمقراطية وأمثالهما من مخترعات الحضارة الغربية ، وتفرّقوا على ذلك شيعاً وأحزاباً ، تاهت في زخارف الغرب ، دون أن يأخذوا منه عزيمة العلم الضروري ، والصناعة الضرورية .

إنَّ أكبر معصية وخطأ يرتكبه المسلمون هو الفرقة والتمزّق الذي يغضب الله ، والذي استكان إليه المسلمون ، كأنهم يريدون أن يظلوا على فرقتهم وتمزقهم. حتى أخذ بعضهم يقول : إن الخلاف سنة الله في الحياة ، يريد أن يُخدّر النفوس حتى تظلَّ في تمزُّقها وأمراضها ، ويفتري على الله ! فهناك خلاف جائز ، وهناك خلاف مرفوض لا يقبله الله ! وغرق الجميع في الخلاف المرفوض ، الخلاف الذي مزَّق الأمة !

ونعود لنقول إنه مع أهمية القضايا التي طرحها المؤلفان ، فما زالا يريان أن

الحل هو في بقاء الرأسمالية وتحسينها ، وبقاء الديمقراطية وتحسينها ، وبقاء العلمانية وتحسينها ، ثم يشكوان من العولمة ، والعولمة هي أسوأ ثمار الرأسمالية والديمقراطية والعلمانية .

إن مصدر الخلل كله في حياة الإنسان هي الوثنية التي انطلقت منها العلمانية التي أنبتت الرأسمالية ، وفي الرأسمالية التي أنبتت الديمقراطية ، والديمقراطية التي كونت النظام الإداري والسياسي ليحمي مصالح الطبقة الرأسمالية ، وطبقة الأثرياء ، من ناحية ، وليخدّر طبقة الفقراء المسحوقين من ناحية أخرى .

والإسلام جاء ليوقظ الغافلين جميعهم من أثرياء مترفين وفقراء مسحوقين ، وليُعَرِّفَ كلَّ إنسان بحقوقه وحدوده ، وليضع الأسس التي تلتقي عليها الشعوب وتَتعارف عليها لا على سواها ، أسس الحق والعدالة الأمينة . وستَظلُّ البشرية تعاني من ويلات الظلم والنكبات والعدوان والتفاوت الواسع بين الناس ، وامتداد الجرائم والتفلّت الجنسي ، حتى يفيئوا إلى أمر الله .

إن أعداء الله ما زالوا يحاربون الإسلام لأنهم عرفوا أنه الحقُّ الذي لا يساوم ، والذي لا يرضى بالظلم والعدوان وجميع ما تقترفه الرأسمالية والديمقراطية والعلمانية من جرائم بحقِّ الإنسان . وما زال أعداء الله يحاربون الإسلام بمختلف الوسائل ويكيدون له وللمسلمين ، ويُجْرُون أشد المجازر في العالم الإسلامي وأشد وسائل التدمير ، وسيظل الإسلام صامداً لأنه دين الله ، ولأن الله تعهّد بحفظه ليظهره على الدين كله :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]

ولا نضع اللوم فيما أصاب المسلمين على المجرمين وحدهم ، فالمسلمون مسؤولون عن ذلك ومحاسبون بين يدي الله يوم القيامة عن تقصيرهم بحق هذا الدين العظيم الذي ينتسبون إليه ، وعن انصرافهم عن الوفاء بالدعوة الإسلامية لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله !

الفصل الثاني
جولة في كتاب
" السيارة لكساس وشجرة الزيتون "

أغلقت حكومة تايلند في ٨/ ١٢/ ١٩٩٧م ستة وخمسين بيتَ تمويل من أصل ثمانية وخمسين بيتاً ، وسبب ذلك إفلاس تلك البيوت بين ليلة وضحاها ، بسبب انهيار عملتها " الباهت " ، نتيجة الإفلاس بسبب الاقتراض من أمريكا ، والإسراف في مشروعات من مثل الفنادق ، ثمَّ تعذّر سداد الديون ، وفقد أكثر من عشرين ألفاً وظائفهم .

على أثر انتهاء الحرب الباردة ، كان هناك أزمة عالمية ، وكانت تايلند أول ضحية من ضحاياها . وأعقب ذلك هروب كثير من رؤوس الأموال من جميع الأسواق الناهضة في جنوب شرق آسيا ، وتلا ذلك هبوط أسعار جميع العملات في كوريا الجنوبية ، وماليزيا ، وأندونسيا وغيرها . وآسيا غالباً مستهلكة محرّكة، وعندما توقّفت هبطت أسعار الذهب والنحاس والألمنيوم وسلع أخرى . ثمَّ انتقلت الأزمة من آسيا إلى روسيا .

لقد جابهت روسيا أزمة اقتصادية ، حاولت الخروج منها بمساعدة صندوق النقد الدولي . وكانت صناعة روسيا سيّئة ، فقيمة " الجرّار " بعد صنعه كان أرخص من حديده قبل صنعه ! وكان هنالك نقص في السيولة النقدية لدى الكرملين . وانخفاض سعر البترول آنذاك بفعل الأزمة الأسيوية ، وصندوق النقد الدولي أهمل مساعدة روسيا لانشغاله بمساعدة كوريا وتايلند وأندونسيا .(١)

رؤوس الأموال الخاصة تبحث عن أفضل استثمار ، فانتقلت آلية الاستثمار إلى جميع الأسواق الناهضة في العالم ولا سيما البرازيل .

ما بين السندات والأسهم وتغير الفائدة هنا وهناك ، والتنقُّل أو الهروب من

---

(١) انظر : السيارة ليكساس وشجرة الزيتون ، توماس فريدمان ، ص : (٥-٨) .

سوق إلى سوق أدى ذلك إلى انفجار مع الانهيار الروسي مما دفع الذعر إلى عالم الاستثمارات بأسره فجأة ، فكان الاندفاع على شراء الأسهم وسندات الخزانة الأمريكية ، فارتفعت أسعارها ، وانهارت الأسهم والسندات الضعيفة .

انهار سور برلين سنة ١٩٨٩م . وأخذ اقتصاد العالم يبحث عن طريقه . وقد تحرر كثير من الأسواق المالية من قبضة الدول ، فانتشر اقتصاد " الأسواق الحرَّة " في أجزاء ما يسمى بالديمقراطية .

الفترة من منتصف القرن التاسع عشر حتى أواخر القرن العشرين كانت تمثل حقبة من العولمة . كانت بريطانيا هي المسيطرة ، وكانت تستثمر استثمارات ضخمة في أسواق العالم .

وصل الكابل العابر للأطلنطي سنة ١٨٦٦م ، مع امتداد الأزمة المالية من نيويورك إلى لندن إلى باريس .(١)

أدَّى اختراع السفينة البخارية ، والتلغراف ، والسكك الحديدية ، والتلفون إلى ظهور **العولمة الأولى** ، فتقلص حجم العالم كله من المقاس الكبير إلى المتوسط .(٢)

ثمَّ تلا ذلك ضربات متتالية في الساحة الدولية : الحرب العالمية الأولى ، الثورة الروسية ، الكساد العظيم ، تجميد تقسيم العالم إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية بسبب الحرب الباردة ، قيام نظام دولي ما بين سنتي ١٩٤٥-١٩٨٩م ، ثمَّ نشأ نظام آخر بعد سقوط سور برلين ، ثمَّ نشأت العولمة الثانية .

العولمة الثانية جعلت العالم سوقاً عالمية ، أصبح حجم التعامل اليومي بالمليارات : فقد بلغ سنة ١٩٩٢م (٨٢٠) مليار دولار ، وفي سنة ١٩٩٨م بلغ ١,٥ تريليون دولاراً يومياً إجمالي تدفق رؤوس الأموال الخاصة من العالم المتقدم إلى الأسواق الناهضة .(٣)

---

(١) المصدر السابق ، ص : (١٣) .
(٢) المصدر السابق : ص (١٤) .
(٣) المصدر السابق : ص (٢٠) .

وظهرت شذرات الكمبيوتر الدقيقة ، والأقمار الصناعية ، بصريّات الألياف والانترنت ، مما جعل العالم نسيجاً جديداً ، في اتصالاته وعلاقاته ، وفي حركة الاقتصاد والسياسة ، والحياة الاجتماعية . ويتم التشاور والاتصال بين الكثيرين بوسائل الاتصال الجديدة كأنهم في مكان واحد ، ويتم تبادل الخدمات والاستشارات الطبيَّة ، ومعالجة البيانات بسرعة لم تُعْهد من قبل . كانت المكالمة الهاتفيَّة من قبل لمدة ثلاث دقائق تكلف (٣٠٠) دولاراً سنة ١٩٩٦م أما الآن فإنها لا تكلف شيئاً عن طريق الانترنت . فالعولمة الثانية حولّت العالم من المقاس المتوسط إلى المقاس الصغير، وأصبحت هذه العولمة الثانية تحل محلّ الحرب الباردة ، وتشكل العلاقات الدولية، وتبني السياسات الداخلية .(١)

لو نظرنا في تاريخ البشرية لوجدنا أنَّ كلَّ أمة ظهرت فبلغت أوج سلطتها، وظلمت وأفسدت ، سقطت ، وانتهت وطواها التاريخ . وهذه سنة الله في الأمم والدول :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٤]

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤]

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام: ١١]

وانظر إلى الزمن القريب ـ العصور الحديثة ـ لقرنين أو ثلاثة قرون خلت . فلقد قام لإسبانيا سلطان علت به ثم هوت ـ وكذلك فرنسا ، وكذلك انكلترا، واليوم نرى أمريكا وكأنها بدأت في دور انهيارها لشدّة ما ظلمت واستكبرت وأفسدتْ .

---

(١) المصدر السابق : ص ، (١٦-١٧) .

وكان الاتحاد السوفياتي العدوّ الأول لأمريكا ، فلما انحلّ الاتحاد السوفياتي، بحثت أمريكا عن عدو جديد قديم ، فحسبته " المسلمين " ، فاستدارت إليهم ، تفسد فيهم وتظلم وتبيد ! وسوف تأتي عليها سنة الله التي خلت والتي لا تتخلف !

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٢]

لا يمكن لظالم إلا أن يأخذه مصيره الأسود والانهيار الأشد ، وإنما يملي الله لبعض الظالمين ثمّ يأخذهم أخذاً شديداً :

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

[هود: ١٠٢]

ويرى " فوكو ياما " الياباني الأمريكي أن الانتصار لليبرالية والديمقراطية عندها ينتهي التاريخ . وسبقه كارل ماركس وفريدريك أنجلز وأمثالهما من الشيوعيين حين رأوا أن الشيوعية هي نهاية العالم . وربما يظهر غير هؤلاء وغير هؤلاء ليروا نهاية أخرى للعالم . إلا أنه واضح أن هذه التصوّرات ظنون لا تقوم على حق ولا علم . فأنَّى لأحد من البشر أن يعلم الغيب من عند نفسه إن الغيب لا يعلمه إلا الله وحده :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

[النمل: ٦٥]

ولذلك قدَّر الله أن نهاية الحياة الدنيا في قيام الساعة والبعث والحساب ، ثمَّ يمضي بعض الناس إلى لهيب جهنم وهم الكافرون والمنافقون ، الظالمون المجرمون ، ويمضي فريق آخر إلى الجنة في نعيم خالدين فيها ، وأولئك هم المؤمنون . وهذا العلم ليس من عند الرسل والأنبياء البشر ، وإنما هو علم من عند الله وحده ، أوحى به إلى الأنبياء والرسل الذين خُتموا بمحمد ﷺ ، و خُتمت الرسالات كلها بالكتاب المبين وسنة محمد ﷺ حقاً مطلقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]

ولذلك عندما تسمع آراء أولئك من أمثال فوكوياما ، وهنتغتون تشعر باضطراب الفكر وتناقض الآراء وغلبة الظنون والوهم وفقدان العلم . وعندما تدرس منهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ تجد التكامل والتناسق والترابط ، وتجد العلم الحقَّ من عند الله . وهذه ناحية واحدة من نواحي الإعجاز في كتاب الله ، إعجازاً يجعلك تدرك أنه ليس من عند البشر ، ولكنه من عند رب البشر ، ورب السموات والأرض ، وخالق كلّ شيء !

يحسب فوكوياما أن " القديم كان يمثل سياسة القوة والفوضى ، وأن العولمة والنظام الجديد يمثل النظام " . ولكنه لو يرى ما نراه اليوم لرأى الظلم والبطش والقوة والفوضى في أشدّ حالاتها .

لما انتهت الحرب الباردة في ١/ ١/ ١٩٩٥م ، وانهار سور برلين والاتحاد السوفياتي ، وأزاح يلتسين جورباتشوف الذي انتهت مهمته ، وطوي العلم الأحمر وعليه المطرقة والسندان ، بدأت مرحلة جديدة في العالم كله ، مرحلة العولمة .

الحرب الباردة تُعْرفُ بالثّقل ، كما يقول : " فريدمان " ، ثقل الصواريخ ، أما العولمة فإنها تتميز بالسرعة . ولقد أخطأ فريدمان ، فما زالت الصواريخ وما هو أثقل من الصواريخ تنهال على نواح متعددة من الأرض ، وفاق الثقلُ في العولمة ما كان من ثقل في الحرب الباردة .

كثيرون أولئك الذين كتبوا عن العولمة ومرحلتها الجديدة ، وقارنوها بفترة الحرب الباردة . ولكن المقارنة لم تكن دقيقة ، فالعولمة بالرغم من شذرات الكمبيوتر ، فإنها حملت معها الصواريخ متطورة ومستفيدة من كلٍّ شذرات الكمبيوتر ، ليكون التدمير أشد وأقسى ، والظلم أشدَّ وأعتى . ولقد صدق بعضهم حين قال ما معناه إنَّ الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية تتجه كلها إلى جوهر

الرأسمالية الذي هو عمليَّة التدمير الواسع الخلاق . ويقول بعضهم : لن يكتب البقاء إلا للمجنون بالاضطهاد والتدمير . وسيكون الازدهار فقط للدول التي تسمح أكثر من غيرها للرأسمالية بالقضاء على الشركات المتعثِّرة .

ويقول " هنري تيري " مدير الموارد البشرية في شركة " طومسون سي إس إن " للاتصالات في ضاحية باريس ، لصحيفة واشنطن بوست : " إننا في منافسة تشمل العالم " .

فالعولمة حوَّلت الجميع إلى متنافسين تنافساً لا يمنعهم عن ارتكاب أيّ جريمة وأعظم ظلم . فالحرب الباردة كانت تثير الخوف من عدوٍّ واحد معروف . أما في العولمة فالخوف من تغيُّر سريع من عدو لا تراه ولا تلمسه . إن الإنسان يحمل إحساساً بأن وظيفته أو مكان عمله يمكن أن يتغير في أي لحظة بفعل قوى اقتصادية وتكنولوجية مجهولة صفتها الوحيدة عدم الثبات .(١)

ونقول إن هذه القوى الخفية هي التي كانت تحكم العالم وما زالت تحكمه وستظل تحكمه ابتلاءً من الله سبحانه وتعالى ، ما دام الإيمان بالله ليس هو العامل الذي يحرّك القوى ، وما دام الإسلام ليس هو الذي يحكم .

أصبح العالم متعدد الأبعاد والارتباطات ، لا بدَّ من أجل فهم العالم فهم هذه الأبعاد والارتباطات التي يشكلها من حيث الأساس التجارة والمال والنظرة المادّية للحياة ، أهم ما فيها : السياسة ، الثقافة ، التكنولوجيا ، المال ، الأمن القومي ، البيئة ، لكن لا ترى في أيٍّ من الدراسات الالتفات إلى " **سنن الله الثابتة** ، في الحياة والكون " .

السؤال الذي يجب أن يُثار ويدور في الذهن هو ما نفسية هؤلاء المجرمين وما هي عقليتهم التي توصّلت بفضل من الله إلى اختراع الصواريخ والحاسوب واختراق الفضاء ، ثمَّ إذا هم يقومون بأسوأ جرائم عرفتها البشرية : إفساداً بالجنس

(١) المصدر السابق ، ص : (٣٥) .

والخمر ، وتدمير أو إبادة للبشر بشكل مفزع مريع ! **ما هي مناهج التربية التي أخرجت هؤلاء القادة المجرمين** ؟! هناك خلل يجب دراسته في الحياة الغربية وحضارتها وأفكارها وممارساتها ! هناك خلل كبير أوله وأعظمه في مناهج التربية التي تخرج للعالم أمثال هؤلاء المجرمين . والخلل الآخر الكبير أن الأسرة تحللت وفقدت دورها في التربية والبناء . الخلل هو خلوّ الإيمان من مناهج التربية ومن القلوب ومن الثقافة والعلوم ، ومن الأسرة خلوّاً جعل القلوب قاسية :

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤]

هذه العقول التي صنعتْ سيارات المرسيدس وبي أم دبليو ولكساس وغيرها، كيف عجزت عن لجم عواطفها عن الفساد والفتنة والجريمة ؟! وكيف عجزت عن لجم شهواتها وأهوائها وتحاسدها ، وظلَّت تلهث في حمى التنافس والتحاسد القاتل : ولنذكر حديث رسول الله ﷺ لندرك خطورة التحاسد والتنافس على الدنيا في حياة البشرية :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال :

(لا تحاسدوا ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبعْ بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ....)(١)

وقد أخذ التنافس والتحاسد والتناجش والتباغض منحى خطيراً حين أصبح كلُّ واحد يسابق الآخر في صناعة أسلحة الدمار والهلاك .

ويرافق هذا التنافس والتسابق المهلك إلى أزمات حياتية واقتصادية . ففي البرازيل حيث استمر الحكم الديكتاتوري واحداً وعشرين عاماً، أضرب عمال الصلب في نوفمبر ١٩٨٨م واستمر الإضراب أربع سنوات ، وزاد من هذا

(١) الجامع الصغير وزيادته رقم : (٧١١٩) .

الإضراب انهيار سور برلين ، وأصبح عمال شركة الصلب أنفسهم يطالبون بخصخصة مصنع شركة الصلب الوطنية. وبسقوط أسوار بعد أسوار ، **وبسقوط الأسوار كلها ظهرت العولمة** . ويمكن استعراض أهم المراحل التي أدت إلى ظهور العولمة الحالية الأخيرة :

١ – **الحرب الباردة :** وما كان فيه من سور برلين ، الستار الحديدي ، حلف وارسو التعريفات الجمركية ، نظم اقتصادية متنوعة ، نظم سياسية متنوعة . وكأن فترة الحرب الباردة سهل فسيح ينمو ويتسع كلما انهار فيه سور .

٢ – **ديمقراطية التكنولوجيا :** انتشار الهاتف الجوال ، حاسوبات منزلية ، مودم ، نظام الكابلات ، ثورة الرقميات (digital) فتايلند كانت على مدى (١٥) عاماً دولة منتجة للأرز ، ثمَّ أصبحت ثاني أكبر منتجة في العالم لسيارات نصف النقل ، ورابع أكبر دولة في صناعة الدراجات النارية .(١)

وهنا نتساءل : أين العالم الإسلامي كله من ذلك . الهند تصنع طائرات وسيارات وكما يقولون من الإبرة حتى الصاروخ . لماذا لم يصنع العالم الإسلامي قوة تحميه وتدفع الأعداء عنه ؟!

إذا أردنا أن نجيب على ذلك . نقول : إن الله تعالى سخَّر السموات والأرض للناس جميعاً كافرهم ومؤمنهم . فمن نهض وسعى بلغ ووصل ، ومن نام وغفل خسر وهان . وهنا يأتي السؤال الثاني : لماذا غفل المسلمون وهانوا ؟! لأن قوتهم كانت بإيمانهم ، بدينهم ، بنصر يأتيهم من عند الله ، فلما ضعف إيمانهم وجهلوا دينهم ، أمكن لأعدائهم أن يثبوا عليهم فيمزّقوهم ، ويخدّروهم ، ويلهوهم بالفتن وصغائر الأمور ، ويصرفوهم عن طلب العلا ورضا الله ، ورضوا بالهوان والدنيا الرخيصة ومتعها ، حتى حَقّتْ عليهم كلمة الله . والمجرمون ، وقد بلغوا قوة كبيرة ، لم يشعروا بنعم الله عليهم وفضله ، وإنما اعتبروا ذلك فضلاً منهم ومن عبقريتهم ،

---

(١) المصدر السابق ، ص : (٨٠) .

فكفروا بأنعم الله ، فهم ينتظرون أن يحلَّ عليهم عذاب الله ، وعسى أن يجعل القوّة بأيدي المؤمنين الذين يتوبون ويعودون إلى ربّهم صفّاً واحداً وأمة واحدة ، وقلباً واحداً ، فيوفي لهم الله وعده .

٣ - **ديمقراطية التمويل** [١] : سوق الورقة التجارية ، السندات التي تصدرها الشركات للجمهور لجمع رأس المال لهم ، التعددية في البنوك والمؤسسات والبنوك الاستثمارية ، وهذه سهلت قيام صفقات وقروض ، مثل القروض التي أعطيت للمكسيك وغيرها . وظهور صناديق الأموال . ويقول خبير الأسواق الاقتصادي " هنري كاوفمان " : إنَّ إجمالي الأرباح وصناديق السندات بلغت سنة ١٩٨٥م مائة مليار دولار .[٢]

٤ - **ديمقراطية المعلومات** : بالقنوات الفضائية ، والأقمار الصناعية ، والتلفاز متعدد القنوات والرقمي ، جهاز استقبال الأقمار الصناعية ، الانترنت ، أقراص فيديو DVD . وأصبحت ٧٠٪ من عمليات التبادل تتم من أناس في بيوتهم بالحاسوب والشبكة الإلكترونية (الانترنت) ، فهي تحمل إليك تقارير الحالة المالية للشركات ، والأخبار الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .[٣]

فأخذت تظهر شركات تقدّم خدمات بالهاتف والكابل مثل شركات " ستار باور " التي أخذت تنافس شركة " بل أتلانتك " .

يقول " فريدمان " مؤلف كتاب " سيارة لكساس وشجرة الزيتون " : إنَّ ٣٠٠ ألف مستخدم جديد للشبكة الإلكترونية يظهر كل أسبوع .

لا شك أنَّ هذا التقدم مادّي هائل ، ولكن ماذا يفيد هؤلاء يوم القيامة بين يدي الله إذا كان مجرّد تقدّم مادي فاقد للإيمان بالله والعمل بشريعته ؟!

(١) المصدر السابق ، ص : (٨٩) .
(٢) المصدر السابق : " السيارة ليكساس " ، ص (٩٧) .
(٣) المصدر السابق ، ص : (٩٠) .

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٢ - ٣٥]

وهنا نتساءل هل حاجة الإنسان في هذه الدنيا هي هذا الزخرف المنقطع عن الإيمان ، الزخرف الذي جعله الله ابتلاءً وتمحيصاً للإنسان؟ ولكن هذا لا يكون عذراً للمسلمين في تخلّفهم وهوانهم وضعفهم . فالنصوص ثابتة في كتاب الله أنَّ على المؤمنين أن يُعدّوا لأنفسهم جميع أسباب القوة والمنونة ، وأن يأخذوا من الدنيا زاداً كافياً يوصلهم إلى الدار الآخرة . ولكنَّ هذا الكلام لا يمكن أن يصل إلى آذان العلمانيين وعبيد العولمة . إنهم نزعوا من قلوبهم الدين الآخرة وغرقوا في وحول الدنيا وشهواتها وأهوائها ، ونسوا لحظة الموت ، حين يغادرون هذه الدنيا ، تاركين وراءهم كل زخرف لهثوا وراءه لينهال عليهم التراب ا ويطويهم القبر ، لا يجدون مؤنساً من قريب أو صديق ، أو عمل صالح .

وأكثر من ذلك ، فإنَّ جميع هذه الأنظمة العلمانية المعولمة ستنهار واحداً بعد الآخر ، لأنهم سيصابون بمرض قاتل لا علاج له عندهم . هذا المرض القاتل هو عجز الدولة أو الشركة عن زيادة الإنتاج أو رفع الأجور ، أجور العاملين الذين سُرِقت جهودهم لتتكدَّس ثروات كبيرة في جيوب المجرمين . يظهر المرض عندما تصبح الاستجابة للتحدّيات السريعة بطيئة تؤدي إلى المواءات ، كما حدث في الاتحاد السوفياتي ، أو ألمانيا الشرقية وغيرهما .

الديمقراطيات الثلاث لم تترك فرصة لمن لم يستطع اللحاق أو التجاوب أو المشاركة في جرائم وحشية عنيفة .

ونشأت مهنة السمسرة ، سمسرة الأوراق المالية . وتداخلت الخطوط

والاختصاصات . شركات توقف بيع الحاسوب ، وتبيع بدلاً منه الحلول . بعض باعة الملابس أخذوا يدخلون بيع الكتب .

٥ - **ديمقراطية العولمة :** سرعة فائقة ، تركيب هائل ، حجم كبير ، وتتركز المعلومات للتصدي لمعظم المشاكل بأيدي أناس على الحدود الخارجية لأي تنظيم وليس في مركزه . فتجد من يقول : ليس فينا من هو أكبر عبقرية من مجموعنا . ويقول آخر : إن ديمقراطية القرار فرصة أكبر لحلول أفضل .

يتغيّر هنا مفهوم القيادة ودورها . فالرئيس يضع الاستراتيجية العريضة ، والجميع متصلون على المسار نفسه ، وأما العامل فيجمع المعلومات ويتبادلها . ثمّ يجري اتخاذ أكبر قدر من القرارات بسرعة على أن تكون القرارات وثيقة الاتصال بالسوق (١) . إنها ديمقراطية اتخاذ القرار ، فلا مركزية للسلطة والمعلومات .

وفي الصين مثلاً يرون أن السبيل الوحيد لمواجهة المشكلات الاقتصادية للريف الصيني هو السماح للقرويين بتنظيم أنفسهم وانتخاباتهم الخاصة لاختيار رؤسائهم .

إن اجتماع هذه الديمقراطيات نسف جميع الأسوار ، ونسف البدائل الأيديولوجية الرئيسة للرأسمالية والسوق الحرّة . ولا بقاء لمن لا يستطيع المنافسة القذرة .

في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت الثورة الصناعية ورأسمالية التمويل العالمي واجتاحت أنحاء أوروبا فأمريكا . وكان من ردود الفعل قيام كارل ماركس وفريدريك أنجلز يصفان هذه المرحلة في " البيان الشيوعي " بأنها ثورة مستمرة في الإنتاج والاضطراب والشكوك والمشاعر كظواهر تميّز عصر البرجوازية .

لقد ظهر ثائرون كثيرون على البورجوازية : ماركس ، أنجلز ، لينين ،

---

(١) المصدر السابق ، ص : (١٢٩) .

موسوليني ، الشيوعية ، الفاشية ، خلال الفترة ١٩١٧ - ١٩٨٩م . ولكنها كلها لم تنجح ، وسقطت الأسوار كلها ، ولم يعد إلا السوق الحرّة طريقاً واحداً .

فقَيد الاعتراف والالتزام أصبح يُمثّل " قميص القيد الذهبي " . وبدأت به مارغريت تاتشر سنة ١٩٧٩م في إنجلترا ، ورونالد ريجان في أمريكا في الثمانينات من القرن الماضي . وأصبح هذا القيد عالمياً بهاتين الثورتين : ثورة تاتشر وثورة ريجان ، واقتطعا أجزاءً كبيرة من الصلاحيات لاتخاذ القرار الاقتصادي وأعطياها للسوق الحرّة ، وأصبح هنالك : معدل منخفض للتضخم ، تقليص بيروقراطية الدولة ، الميزانية متوازنة ، إلغاء التعريفات الجمركية أو خفضها ، إزالة القيود على الاستثمارات الأجنبية ، التخلص من نظام الحصص والاحتكارات المحلية ، وزيادة الصادرات ، خصخصة الصناعات وخدمات الدولة، تخفيض القيود على رؤوس الأموال ، هذه الأجزاء جميعها أصبحت تمثل " قميص القيد الذهبي "(١).

أثناء اجتماع البنك الدولي في هونج كونج في سبتمبر ١٩٩٧م اعترض د. مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا على العولمة وندَّد بشرورها ، واعتبر اليهود وراءها . ردَّ عليه توماس فريدمان مؤلف كتاب : " السيارة ليكساس وشجرة الزيتون " : " ما هو الكوكب الذي تعيش فوقه ... هناك خط واحد " .(٢)

إنه القطيع الإلكتروني يساق في بيع وشراء الأسهم والسندات ، وهؤلاء يمثلون قطيعاً قصير القرون ، أما القطيع طويل القرون فتمثله الشركات الكبيرة متعددة الجنسية .

المنتجات أصبحت في تنوّع مذهل ، وزادت وفرة الأسهم والسندات ، ورافق ذلك تغيّرات في الطقس تؤثر في الاقتصاد ، عواصف وانهيارات أرضية . أسواق كثيرة ومعلومات كثيرة ، وربح قليل ، فلا تتصل بسِمْسارك ، اتصل بخبير الأرصاد الجوية .(٣)

(١) السيارة ليكساس ، ص : (١٦١-١٦٤) .
(٢) المصدر السابق : ص (١٥١) .
(٣) المصدر السابق : ص (١٧٤) .

سنة ١٩٨٠م كان هنالك ٦,٤ مليون أمريكي من أفراد الأسر الأمريكية يمتلكون أسهماً في الصناديق المشتركة . ثم زاد ذلك حتى أصبح ٦٠ مليون أمريكي ينتمون إلى ٣٧ مليون أسرة يستثمرون أموالهم في الصناديق المشتركة .

أما القطيع طويل القرون فهم الشركات متعددة الجنسيات التي تعمل فيما يعرف باسم الاستثمار الأجنبي المباشر في بلدان مختلفة ، وتبني مصانع في دول خارجية ، فالسوق الواحدة مفتوحة ، الفضاء المعلوماتي مفتوح ، يمكن بيع أيّ شيء في أيّ مكان . وهذا جعل المنافسة أشدَّ مع ربح أقل .

من أهم الآثار في مختلف المجتمعات المتفلّتة من الإيمان والتوحيد ، ومن الإسلام وشريعته ، الفساد المنتشر حتى أصبح التزام القانون استثناء وليس القاعدة. أما القاعدة فهي الرشوة والفساد . المسؤولون في مختلف المستويات يستغلون نفوذهم لانتزاع ما يستطيعون من نقود المواطنين أو المستثمرين أو حتى من الدولة نفسها ، وقد تصبح القاعدة أحياناً أنه من أجل الحصول على الخدمات لا بدَّ من الرشوة . وقد أخذت هذه القاعدة تمتدُّ وتتسع في مساحة الكرة الأرضية ، حيث ينحسر الإيمان وتفسد الأخلاق وتطغى النظرة المادية في الحياة إلا من عصمه الله ببقية باقية من فطرته التي فُطِرَ عليها .

إنَّ الابتزاز بالرشوة وغيرها ممتد في مثل : نيجريا ، الهند ، روسيا ، الصين ، أندونسيا وبخاصة أيام سوهارتو . ورافق ذلك أحياناً انتشار الجريمة وسرقة السيارات . وأحياناً فإنَّ واضعي القوانين لا تسري عليهم القوانين . اللصوص الكبار في روسيا يستثمرون أموالهم في أمريكا ، فيُفْقِرون بلادهم .

كان سابقاً لكل دولة جهازها ، ومع العولمة أصبح للجميع جهاز واحد هو رأسمالية السوق الحرة ، التي تمثل في حقيقتها أشد أنواع الظلم والسرقة والفساد . ولا تجد أحياناً القانون العادل الذي يمكن تطبيقه لحماية الناس من جرائم الرأسمالية التي تحرَّرت من قيودها وانطلقت في مفاسدها وانتشر الفساد وعمَّ

وطمَّ في كثير من البلدان في الكرة الأرضية ، في جميع المستويات ، وعند كل من له نفوذ أو سلطان يُمكّنه من الابتزاز والاستغلال ، والظلم والنهب : ولقد اشتهرت بعض الدول بالفساد لانتشار رائحة الفساد في المسؤولين ورجال الدولة .

ويضرب توماس فريدمان أمثلة على أشكال الفساد في عدد من البلدان . والظاهرة الملفتة للنظر أن أساليب الفساد تتجدّد وتتطور ، وكذلك أشكال الجريمة ونماذجها وأساليبها ووسائلها ، كل ذلك آخذ بالنّمو والتطور في ظل العولمة والعلمانية والديمقراطية التي يحتمي في زخرف شعارها كبار المجرمين وكبار اللصوص في الأرض .

يضرب " فريد مان " في كتابه أمثلة عن الذين يحاربون العولمة والفساد في الأرض . مراسلة نيويورك تايمز " جوليان بريستون " تتحدّث عن اجتماع غير عادي في " مكسيكو سيتي " لجماعة " زاباتستا " التي تحارب التجارة الحرّة والعولمة ، وفي ختام المؤتمر أعلنوا : " **أن العدوّ الأكبر للبشرية هو منظمة التجارة العالمية في جنيف التي تُروِّج لحريّة التجارة في العالم** ".(١)

ما هي حقيقة الديمقراطية التي يتاجر بها كبار اللصوص في الأرض وكبار المجرمين ، وينساق في تيارها قطيع واسع من الضعفاء والمغفّلين ، الذين رضوا بأن يركنوا إلى الظالمين ؟!

هذه الديمقراطية هي النظام الإداري والقانوني والسياسي الذي ابتدعته عبقرية المجرمين في الأرض ، ليمحوا به سرقتهم لعرق العاملين وأموال المستضعفين ، فيُثروا بذلك ويملؤوا جيوبهم وحساباتهم في البنوك ، ويلقوا بالفتات للمستضعفين بعد أن يُخدِّروهم تخديراً شديداً بالجنس المتفلّت والفاحشة تحت شعار الحريّة الفردية ، وبالخمور وأمثالها ، وبساعات العمل التي لا تترك لأحد وقتاً ليفكر بالموت والدار الآخرة ، والحياة ، ورب السموات والأرض ، الله الذي

---

(١) المصدر السابق ، ص : (٢٦٢) .

لا إله إلا هو سبحانه ، له الأمر كله ، وله الملك كله ، وله الحمد كله . فيغيب هؤلاء المستضعفون المخدرون في غفوة عميقة ، ويصبح الجو مفتوحاً لعصابة المجرمين ، والميدان خالياً لهم ، ليمضوا في ظلمهم وإجرامهم ، ولصوصيتهم ، ويظنون أن الله غافل عنهم ، ولكن الله الذي لا إله إلا هو يمدُّ لهم ليبتليهم ويمحصهم ولتقوم عليهم الحجة يوم القيامة ، حين يجدون كلَّ ما عملوه في الكتاب:

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٨، ٤٩]

وكذلك :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٤]

وكذلك :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

ومن ناحية أخرى ، فإنَّ الديمقراطية هي النبتة الخبيثة من الوثنية اليونانية، فمن هناك نبتت ، هناك جذورها ، وانتقلت بكل خصائصها الوثنية من اليونان إلى روما ثمّ إلى أوروبا . ثمَّ التقت وانسجمت مع الفلسفات المادية التي انتشرت في أوروبا تحت مسميات مختلفة أهمها العَلمانية " Secularism" والعِلْمانية "Scientism"، والرأسمالية " Capitalism "!

وأصبحت الديمقراطية والعلمانية والرأسمالية متداخلات بقوة ، وتعود كلها

إلى جذورها في الوثنيَّة اليونانية الرومانية . فالرأسمالية تمثل السلطة الاقتصادية وما يتبعها من سلطان ونفوذ ، والعلمانية هي الفلسفة الدنيوية اللادينية للرأسمالية ، ومن أجل حماية أصحاب رؤوس الأموال ومجرمي العلمانيّة ، وضعوا النظام الديمقراطي ليحافظ على كل صلاته القديمة (الوثنية اليونانية) والجديدة(العلمانية) ، ويوفّر الحماية لأكابر مجرميها وليسحق المستضعفين والفقراء ويخدّرهم ، ليصبحوا قوة مساعدة لهؤلاء المجرمين .

فهذا الثالوث الملتحم هو الذي ملأ الأرض حروباً وفتناً ، ودماراً وأشلاءً ، وجعل من المؤسسات الدولية ولجانها : مثل لجنة حقوق الإنسان التي أماتت الإنسان وسحقتْ حقوقه ، ومثل لجان الأمومة والطفولة وغيرها . لقد كانت هذه كلها لا تمثّل إلا وسائل تخدير للنفوس . وأخطر ما أطلقوه هو تفلّت الجنس تفلّتاً كلياً تحت شعار الحرية الفردية ، بصورة تلهب الشباب والشابات والكبار والصغار ، وتدفعهم دفعاً إلى الفاحشة والزنا والخمر واللواط ، حتى أُقرَّ ذلك كله قانوناً في المجتمعات الغربية . وقام هذا الثالوث الإجرامي بجريمة أخرى خطيرة جداً حين **بنى نظامه الاقتصادي كله على " الربا " وعلى " أكل أموال الناس بالباطل "** . ولم يحرّم الله شيئاً على عباده جميعاً مثلما حرّم : الفاحشة كلها ، والربا كله . وكذلك حرّم الكذب والغش والخداع والنفاق ، فكانت هذه من أهم وسائل هذا الثالوث الإجرامي : الرأسمالية ، الديمقراطية ، العلمانية . وهذه متفاعلة فيما بينها في الواقع البشري دفعت إلى الخطر الرابع الجديد : " العولمة " . فالعولمة تجمع كل شرور الوثنية والرأسمالية والديمقراطية والعلمانية !

إنَّ هذه كلها تهدّد حياة البشرية كلها تهديداً شديداً ، بافتعال الحروب ، ومداومة العدوان ، والظلم بجميع أشكاله ، وانفجار الفتن والفساد انفلاتاً لا يقف عند حد .

الباب السادس

العولمة والإسلام

الفصل الأول : الإسلام وحده هو الذي يجمع البشرية على الحقِّ والحريَّة والعدالة

الفصل الثاني : يحاربون الإسلام بالافتراء والمكر والدسائس

الفصل الثالث : أهم نواحي الخلل في واقع المسلمين وأثر الديمقراطية في ذلك ! .

الفصل الأول

الإسلام وحده هو الذي يجمع البشرية على الحقِّ والحريَّة والعدالة

الإسلام دين من عند الله ، وليس ديناً صنعه البشر ، حتى يحقَّ لأحد من البشر أن يغيِّر أو أن يبدِّل فيه . إنه دين الله بصياغته وكلامه وأفكاره ومبادئه . ولهذا الثبات جعله الله منهاجاً ربانياً متماسكاً متكاملاً يصلح للبشريَّة كلها ، وللأزمنة كلها ، ولكل واقع وحدث . ويعالج مشكلات الإنسان كلها مهما تنوعت وتعدَّدتْ ، فإن ظهر قصورٌ أو عجزٌ فإنَّه في مستوى الطاقة البشرية التي تقوم بممارسة منهاج الله في الواقع البشريِّ ، وليس في منهاج الله . إنه ضعف الإنسان الذي يظهر في ميادين عدة ، ثمَّ ينفي الضعف عن نفسه ويلقيه على غيره جهلاً وظلماً .

للعولمة معنيان واضحان من مسيرتها في الواقع : الأول : هو الذي يدَّعيه الإعلام بشعاراته وزخارفه بأنَّه **يجمع العالم على ثقافة واحدة كالديمقراطية اليوم** ، والشيوعية سابقاً عند كارل ماركس وجماعته . والثاني : **هو استغلال العالم شعوباً وثروات وتسخيرها لمصلحة القوة المسيطرة** التي تبرز في مرحلة من مراحل حياة الإنسان . كما برزت أمريكا اليوم ، وكما برزت قوى أخرى سابقة . هذان المعنيان باطلان في ميزان الإسلام .

فلا يُعقل أن يُجْمع العالم كلُّه على باطل أو زخرف كاذب ، ولا يُعقل أن يترك العالم فريسة لمجرم أو عصابة من المجرمين . ولكن هذه الحالة أو تلك مرحلة ابتلاء من الله سبحانه وتعالى ليمحّص الناس تمحيصاً ولتقوم الحجة على كل إنسان يوم القيامة ، أو تقوم له ، على ضوء موقفه وكلمته وسعيه .

ولكنَّنا نسأل أنفسنا سؤالاً محدِّداً : ألا يمكن أن يُجْمَعَ العالم على الحقّ ؟! نعم ! فذلك ممكن ، وهو ميدان الابتلاء والتمحيص للأفراد والجماعات والشعوب. ابتلاء من الله سبحانه وتعالى بأن أنزل الحقَّ على رسله وأنبيائه

جميعهم الذين ختموا بالنبيّ الخاتم محمد ﷺ ورسالته الخاتمة المهيمنة الجامعة للحق كله . ويقوم الأنبياء والرسل ، كلٌّ يبلّغ شعبه وأمته ، على مدار واسع من التاريخ ، بحيث أن كان في كل أمة رسول يبلغ رسالة ربِّه ودينه الواحد ـ الإسلام :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل: ٣٦]

فطرة فطر الله الناس عليها ، لا يغيب عنها الإيمان والتوحيد إلا إذا انحرفت وفسدت بالآثام والمعاصي والظلم ، ورسل وأنبياء يملؤون الدهر كله ، لكل أمة رسول ، بدين واحد هو الإسلام مع جميع الأنبياء والمرسلين ، جمعت رسالاتهم في رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ، كلهم يدعون إلى عبادة الله الواحد الذي لا إله إلا هو ، وكلهم جاءوا بالحق الذي لا يخالطه باطل أبداً ، بيِّنٌ مفصَّلٌ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]

إذن الحق بين أيدي الناس جليٌّ مفصَّل لا عذر لأحد بجهله أو إنكاره ! هذا الحق البيّن ، هذا الدين الحق ، هو وحده يمكن أن يجمع الناس أمة واحدة ، ويجمع العالم كلَّه على الحقِّ ، لا يَصُدُّ عن ذلك إلا الأهواء والشهوات ، وشياطين الإنس والجن .

فالله سبحانه وتعالى يريد من خلقه وعباده أن يتعارفوا على الحق ، ويتنافسوا في اتباعه ، فيكون خيرهم من كان أكثر تقوى وأشدَّ التزاماً :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات: ١٣]

وكذلك :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٥]

وكذلك:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]

ولم يأت هذا الدين إلى شعب محدَّد واحد، ولكنه رسالة للعالمين، وبعث الله محمداً رسول الله للعالمين، ﷺ:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

وكذلك:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨]

وفي حديث رسول الله ﷺ يرويه جابر بن عبد الله رضي الله عنه:

(أُعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرُّعْب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلّت لي الغنائم ولم تحلَّ لأحد قبلي، وأعطيتُ الشفاعة، وكان النبيُّ يُبْعثُ إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى الناس عامَّة)
[رواه الشيخان والنسائي](١)

وجاءت هذه الرسالة الربانية والدين الحق على صورة متكاملة، مستكملة كل مبادئها وقواعدها ونهجها:

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته: رقم: (١٠٥٦).

﴿ ..... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣]

وأمر الله إلى عباده أن يقوموا بالقسط مع الناس كافة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨]

وكذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٥٨]

وربط الله سبحانه وتعالى الناس بأعظم رباط وأوثق عروة وأصدق عهد . إنها إخوة الإيمان ، والعهد الموثّق مع الله :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ١٠]

وهذا باب ابتلاء من الله للناس ! هل يقومون بهذا الشرط وهذا العهد وهذا الأمر من الله ، أم تعصف بهم الأهواء الهائجة والمصالح المادية المتضاربة ، والحسد ، والحقد ، والعصبيات الجاهلية ؟! وأكد الله سبحانه هذا الرباط الإيماني ، الإنساني العالمي بآيات وأحاديث شريفة :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : (**المسلم أخو المسلم ، لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كلُّ المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى هاهنا ، ـ وأشار إلى القلب ، بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم**) [الترمذي][(١)]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ قال : (**المسلم أخو المسلم ،**

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : رقم (: ٦٧٠٦) .

لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة) [أخرجه أحمد والشيخان](1)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : **(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم)** [أخرجه أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وابن حبان](2)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ قال : **(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى عنه)**
[أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي](3)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ قال : **(المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم . لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده)** [أخرجه أبو داود وابن ماجه ، حديث حسن](4)

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : **(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً)** [أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي](5)

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : **(المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى رأسه اشتكى كله ، وإن اشتكى عينه اشتكى كله)**
[أخرجه أحمد ومسلم](6)

الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مما ذكرنا ومما لم نذكر ، كلها تدعو إلى جمع البشرية على دين الله ، إيماناً وعلماً وممارسةً ، حتى تتحقق العدالة الأمينة في

(١) المصدر السابق : رقم : (٦٧٠٧) .
(٢) المصدر السابق : رقم : (٦٧١٠)
(٣) المصدر السابق : رقم : (٦٧١١) .
(٤) المصدر السابق : رقم : (٦٧١٢) .
(٥) المصدر السابق : رقم : (٦٦٥٤) .
(٦) المصدر السابق : رقم : (٦٦٦٨) .

حياة البشرية ، وتمتد معاني الإنسانية الصادقة فيها ، والحريّة المنضبطة ، والتعاون والسلام ، و توفي حقوق الإنسان بصورة أمينة صادقة . واستمع إلى قوله سبحانه

﴿ .....وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢ ﴾
[المائدة: ٢]

إنَّ هذه المبادئ السامية الكريمة ، المبادئ الربَّانية هي زاد التاريخ البشري بما حمله الأنبياء والمرسلون في تاريخ طويل خُتِمَ بمحمد ﷺ :

فعن جابر وعن أُبيّ وعن أبي هريرة وعن أبي سعيد عن الرسول ﷺ قال: (**مَثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ، ويعجبون منه ، ويقولون : لو تمَّ موضع هذه اللبنة ، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة**) [أخرجه أحمد والشيخان والترمذي][1]

الوثنية اليونانية الرومانية التي انطلقت في أوروبا وصارعت رسالة عيسى عليه السلام ، فحرَّفتها وخرجت منها العلمانية ، والديمقراطية ، والعولمة ، متلبسة كلها بروح الوثنية في كلِّ نبضة من نبضاتها . ولم يكن من دافع إلى هذا الجهد والمثابرة في الدعوة إلى الديمقراطية إلا نوازع دنيوية ومصالح مادية ، حتى جعلها «فرانسيس فوكوياما» نهاية التاريخ ، كما جعل «ماركس وفردريك أنجلز ولينين» الشيوعية هي نهاية التاريخ . ولكنَّ نهاية التاريخ الحقيقية هي كما أنبأنا الله يوم تقوم الساعة يومئذ يُبْلِسُ المجرمون .

والسؤال هنا لماذا لم يكن الإسلام هو الذي يجمع الشعوب بدلاً من الديمقراطية ؟! نقول إنَّ هذا هو الابتلاء من الله ، **حيث بيَّن الحقَّ وفصَّله وجعلها مسؤوليَّة من ينتسب إلى الإسلام ومن يؤمن به أن ينهض ليبلغه إلى الناس كافَّة كما أنْزِلَ على محمد ﷺ ، ويتعهّدهم عليه !**

---

(١) المصدر السابق : رقم : (٥٨٥٧) .

وكلما صدق المسلمون ونهضوا لهذا الواجب بأمانة وصدق أعزَّهم الله ونصرهم ومكَّن لهم في الأرض . وإن قعدوا ولم ينهضوا وتوانَوا خذلهم الله وأذلَّهم وأذهب ريحهم .

فكيف ينطلق دعاة الديمقراطية وما يتبعها يبلّغونها ويدعون إليها ويحاولون فرضها بالقوة والقنابل والصواريخ والسلاح النووي ، ويبذلون من أجلها أعظم البذل ، والمسلمون قاعدون ، يغلب على أمرهم الشعارات وضجيجها ، دون نهج ولا خطة ولا وعي . وربما جهل الكثيرون دينهم وحقيقة دعوتهم ، وجوهرها وضرورتها ، وخطرها وحاجة البشرية لها ؟!

لقد هان حال المسلمين حتى رضوا بأن تحرّم عليهم أمريكا كلمة " الجهاد " في سبيل الله ، وتبيح لنفسها وأعوانها القتل والإبادة في سبيل الشيطان ، حتى أصبحت كلمة "الجهاد" تكاد تعني في أذهان المجرمين " الإرهاب " ، والجهاد في سبيل الله حق وفرض في دين الله ، والقتال الديمقراطي ظلم وعدوان وباطل وإرهاب!

هذا الدين العظيم يريد أمة عظيمة تحمله وهي تؤمن به وتدعو إليه ، وتجمع الناس في الأرض كلها على الحق لا على الباطل . إنها الأمانة التي وضعها الله في عنق المسلمين ، وجوهر العبادة ، ومعنى الخلافة ، وحقيقة عمارة الأرض بهذا الدين العظيم .

ألا يقف المسلمون لحظة واحدة ، ألا يقف كلّ مسلم لحظة واحدة ، ليسأل وليتساءل : مضى على الدعوة الإسلامية في العصر الحديث قرون ، فلماذا فشلت في تحقيق قاعدة واحدة أساسية في دين الله : ألا وهي أخوة الإيمان بين المسلمين كافة ؟!

لقد أقاموا أخوّة عائلية ، وأخوة قومية أو إقليمية ، وأخوة وطنية ، وأخوة حزبية ، كلها تمثل شكلاً من أشكال العصبيات الجاهلية التي حرَّمها الله لأنها

مفسدة في الأرض ، وعدوان وظلم ، ولكنهم لم يقيموا أخوة كما أمر الله بها بين المسلمين جميعاً ؟!

فهنالك خطأ كبير من المسلمين إذ قصَّروا كثيراً في التزام هذا الدين ، وفي تبليغ الرسالة الربانية على الناس كافة وتعهدهم عليها بصبر ومثابرة ، ونهج وتخطيط . ويجب أن تجتمع أولاً كلمة المسلمين على الإسلام ليكونوا أمة واحدة صفاً كالبنيان المرصوص ، كما أمرهم الله ، قبل أن يجمعوا البشرية كلها على دين الله . كيف يستطيعون أن يجمعوا البشرية كلها على دين الله ، وهذا واجب عليهم ، إذا لم يجمعوا أولاً أنفسهم :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .....﴾ [آل عمران: ١١٠]

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢]

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢]

إن اجتماع البشرية كلِّها على الحق هو ما يطلبه الإسلام ويدعو إليه . ولكن حتى يتمَّ هذا الأمر فلا بدَّ من " **أمة** " تدعو إليه وتحمله وتصدق الله في الدعوة والتبليغ والتعهد والبناء .

وحتى تستطيع هذه **الأمة** أن تقوم بهذا الأمر فيجب أن تكون هي نفسها ملتزمة بدين الله ، مجتمعة عليه ، قائمة به ، ثمَّ تدعو إليه وهي نفسها أمة واحدة صادقة في دعوتها : يسمع الناس منها النظرية والمبادئ ، ثمَّ يرونها عملياً مطبَّقة في واقعها !

أما إذا كان المسلمون أنفسهم لم يجتمعوا أمةً واحدة على دين الله ، ولم

يلتزموا به ، ولم يظهر تطبيقه حقيقة في واقعهم ، فأنى لهم أن يحققوا دعوة الناس والبشرية وجمعهم على هذا الدين .

إنَّ البشرية كلها لا يمكن أن تجتمع على باطل ، ولا على مصلحة فرد أو شعب واحد ، فالعولمة اليوم دعوة طبقة من المجرمين في الأرض ، يفرضون أهواءهم ومصالحهم بالإكراه والبطش والعدوان . وهذا يمثِّل مرحلة ثم تنتهي . وفي الوقت نفسه لا بدَّ للمسلمين أن ينظروا في أنفسهم وأسباب فشلهم ، وقد وعدهم الله بالنصر إن صدقوا .

وعالميَّة الإسلام " بدلاً من عولمته " تقوم على أكرم ما عرف الإنسان من قيم في تاريخه الطويل ، تجمع الناس على التعاون بعيداً عن التحاسد والتباغض والأحقاد ، ليكون التعاون عبادة لله . واستمع إلى هذا الحديث الجامع الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ :

(من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفَّس الله عنه كُرْبةً من كرب يوم القيامة . ومن يسَّر على مُعْسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة . والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنَّة . وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده . ومن بطَّأ به عمله لم يسرعْ به نسبه)
[أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي][(١)]

على هذه المبادئ يجب أن تلتقي الشعوب وتتعاون ، حتى يسود السلام حقَّاً، ويعمَّ الأمن ، وتقوم العدالة !

قارن بين هذه المبادئ الربانية وبين ما سبق أن عرضناه من مبادئ العولمة المادية

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : رقم : (٦٥٧٧) .

والديمقراطية الخادعة الكاذبة ، وأعجب بعد ذلك كلَّ العجب كيف يدعو بعض المسلمين أو حتى بعض الدعاة إلى الديمقراطية وعولمتها ؟!

إنَّ من أسوأ خصائص العولمة وما يتبعها من أفكار ومؤسسات هو الكذب ثمَّ الكذب والغدر والخداع . لا قيمة لعهد يعطى ولا لميثاق يُبْرَم ، تُنْقَضُ العهود والمواثيق حسب المصالح المتصارعة .

ويستغلُّون أجهزتهم الإعلامية ومؤسساتهم الاستخباراتية لنشر إشاعات الكذب والفتنة ، والشقاق والصراع ، ليتّجه ذلك إلى النهب وأسوأ أشكال اللصوصية والجرائم ، وينشرون الفساد في الأرض والشهوات ، حتى تكون خدراً يخدّر الأفراد والشعوب إلى حين !

الإسلام بعالميّته ، " لا عولمته " ، يدعو إلى إصلاح الأرض وعدم إفسادها، وعدم نشر الفساد ، فالله يقول :

﴿ .... وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٥]

وكذلك :

﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٦]

هذا هو النهج الرباني الذي يدعو إليه الإسلام بعالميته وامتداده في الزمن والأرض . فشتان بين هذه المبادئ ومبادئ العلمانيَّة والعولمة .

وأعجب كيف أنَّ رجال العولمة لا يفكِّرون ولا يتأملون ولا يتدبّرون ؟! ألا يذكرون الموت ولو لحظة في حياتهم ؟! ألا يفكرون ماذا بعد الموت ؟! ماذا يصنعون حين تفاجئهم الحقيقة والنار أمامهم وحساب الله يوقفهم :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٩]

نعم ! وإنهم لكاذبون ! فالله سبحانه وتعالى أعلم بهم وبنفوسهم وبكيدهم ! وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٠]

هذا موقف حق لا شكَّ أنه واقع ، ونسأل الله الثبات على الحق والهداية والمغفرة وحسن التوبة . لذلك أعجب كيف لا يفكر أهل العلمانية والعولمة والديمقراطية بذلك ؟! بماذا يجيبون ربهم يوم الحساب ؟!

العلمانيّة التي تعزل الدين عن الحياة ، وتعزل الآخرة عن الدنيا ، وتدفع الناس دفعاً إلى هذا البؤس والظلام . إنه نهج الدنيا وشهواتها !

أما الإسلام فهو نهج آخر مختلف كل الاختلاف ، مختلف بمسيرته ودربه ، وأهدافه ، ووسائله ، وأساليبه :

نهجان قد ميّز الرحمن بينهما ... نهج الضلال ونهج الحقّ والرشَد
لا يجمع الله نهج المؤمنين على ... نهج الفساد ولا حقّاً على فنَد(١)

إنَّ الفارق الرئيس بين النهجين أنَّ الإسلام نهج رباني ودين من عند الله نصّاً وصياغة ومعنى ، وليس صنع أحد من البشر ، وأما العلمانية والعولمة والديمقراطية وغيرها ، فهي مناهج بشريّة وصياغة بشرية ومعنى بشري . تُردُّ كلها إلى منهاج الله ـ قرآناً وسنَّة ولغة عربية ـ فيؤخذ ما يوافق منهاج الله ، وما يناسب واقعنا وحاجتنا ، ويترك ما عدا ذلك . هذا هو الإسلام ، الدين الحق ، دين الله الواحد .

هذه هي النقطة الأولى . وأما النقطة الثانية فهي أنَّ الإسلام صاغ جميع

(١) ملحمة الجهاد الأفغاني : د . عدنان النحوي ، ص : (١٣٣) .

العلاقات البشرية : كالعائلية والوطنية والإقليمية والقومية ، والصحبة ، والجوار ، صاغ الإسلام ذلك كله صياغة إيمانية جديدة تميّزت بأن طهَّرها من العصبيات الجاهلية والموالاة المعتدية والظالمة . فجعل العائلية رحماً وقربى لها حقوقها وواجباتها ، وجعل الوطنية أخوة في الله ، أخوة إيمانية تربط الوطن الواحد بأرض الإسلام كلها ليكون المسلمون أمة مسلمة واحدة ، في ظل أكرم رابطة وأوثق عروة ، إنها رابطة الإيمان والتوحيد ، حيث يكون الولاء الأول للمسلم لله وحده ، والعهد الأول للمسلم هو مع الله وحده ، والحبُّ الأكبر للمسلم هو لله ولرسوله ، وكل موالاة وعهد وحبٍّ في الدنيا يجب أن ينبع ويرتبط بالولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر . وتصبح الإقليمية ، والقومية ، والصحبة ، والجوار ، كلها تدخل في إطار رابطة الإيمان هذه ، نقيَّة بعيدة عن ظلم العصبيات الجاهلية وفسادها . فيلتقي الناس في ظلال نديَّة من الخير والتعاون .

ومن هنا يصبح الدين الإسلامي منهج حياة متكاملاً مترابطاً ، للبشرية كلها، ولكل زمان ومكان ، منهج حياة متكاملة ، لا تنفصل فيه الدولة والحكم عن الحياة، ويصبح لا معنى لقول بعضهم فصل الدين عن الدولة . ففي الإسلام الدولة والدين مترابطان لا ينفصل أحدهما عن الآخر . وما هذه الفكرة الضالة إلا من دعاية الغرب ونظرتهم للدين ، وثورتهم على الكنيسة لما قامت به من اضطهاد العلماء والاصطدام مع السلطة الزمنية ، مما أورثهم العلمانية والفلسفات المتناقضة المخالفة للإيمان .

الفصل الثاني

يحاربون الإسلام بالافتراء والمكر والدسائس

كان من أثر ظهور العلمانية في الغرب ، وفصلهم الدين عن الحياة وشؤونها العامة ، وحصرهم له في الكنيسة ، ومن أثر قيامهم بما سُمِّيَ بالاستعمار للعالم الإسلامي الذي وجدوا فيه المقاومة الكبيرة من الإسلام ، ليحاربوا الإسلام بكل طريقة ممكنة لهم ، بطرق يوحي لهم بها عجز الكنيسة عن معالجة الواقع .

فمن جملة ما أذاعوه ونشروه ، ووجدوا من المسلمين من فُتن به فتولَّى إذاعته ونشره كذلك ، أن قالوا إنَّ الغرب ارتقى وتقدَّم لما ألغى الدين وفصله عن الدولة وشؤونها . كأنهم يريدون أن يُقْنعوا المسلمين بأن يتخلَّوا عن دينهم حتى يرتقوا ويتقدّموا . ولقد سقط في هذه الخدْعة كثيرون ، وكتب بعضهم كتباً ومقالات يدعون إلى عزل الدين عن الدولةَ ، نسُوا دينهم ، ونسُوا الموت والدار الآخرة ، وغرتهم زخارف الغرب وما غرقوا فيه من وحول الفتن والفساد . ولا تبيَّن لهؤلاء وغيرهم حقيقة بارزة في التاريخ ، ما كان لهم أن يتناسوها أو يتجاهلوها . ذلك أنَّ التقدّم العلمي المادّي ظهر في جميع الأمم والشعوب مهما كانت عقائدها : فقد ظهر التقدم العلمي في اليابان وهم يعبدون الإمبراطور ، وظهر في الاتحاد السوفياتي وهم يعلنون الإلحاد والنظرية المادية الديالكتية والتاريخية ، والأمة الإسلامية امتدَّ تطورها العلمي والأدبي قروناً طويلة ، وكذلك العالم الغربي كان دوره في هذه المرحلة من التاريخ البشري ، على سنن لله ماضية ، وكما زالت أمم سابقة فستزول دول الغرب وخاصة أمريكا :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٤]

فدعوة الغرب وأتباعهم بفصل الدين عن الدولة قد تجد مسوّغاً لدى الغرب ، لشدَّة ما عانى من الكنيسة من خلال تاريخه ، حتى اضطرَّ إلى عزلها عن الحياة

العامة وشؤون الدولة . وكذلك لأنَّ رسالة عيسى عليه السلام جاءت إلى قومه خاصة وليست إلى الشعوب الأوروبية أو غيرها . فلمَّا جاءت إلى أوروبا اصطدمت بواقع وأحداث لا تحمل حلولاً لها . وكذلك سائر الرسالات ، فقد بُعث كلُّ نبيٍّ إلى قومه خاصة ، وبعث محمد ﷺ للعالمين ، كما بينَّا ذلك في صفحات سابقة . فَرُقيُّ المسلمين مرتبط كلَّ الارتباط بالدين الإسلامي والرسالة الخاتمة للدين الإسلامي ، رسالة محمد ﷺ التي دفعت الشعوب التي آمنت بها إلى الرقي والتقدّم لقرون كثيرة ، والتي جاءت رسالة للعالمين على مضيّ العصور والأزمان .

وفرْيةٌ أخرى أثاروها وجنَّدوا لها جنوداً يذيعونها ووسائل إعلام تنشرها. وهذه الفرية تدور حول إنَّ الدين جاء في زمن ماض ، فما عاد يصلح لواقع الناس اليوم . وسبق أن أوضحنا أنَّ الإسلام في رسالة محمد ﷺ ، الرسالة الخاتمة للدين الواحد، الدين الإسلام ، جاء للبشرية كلها في جميع عصورها إلى يوم القيامة ، وفي جميع أماكنها وتغيّر أوضاعها .

وقضية أخرى يثيرونها ليشوّهوا صورة الإسلام المشرقة هي قضية المرأة. ونحن لا ننكر أنَّ الإسلام عامل المرأة بأسلوب مختلف عما تفعله المجتمعات الأوروبية التي تدّعي أحياناً أنها نصرانية تتبع رسالة عيسى عليه السلام . فهم أولاً يخالفون رسالة عيسى عليه السلام التي كانت رسالة الإسلام ، أيضاً فعيسى كان يدعو قومه إلى الإسلام ، الدين الواحد لجميع الأنبياء والرسل . وكان يكرم المرأة ويضع لها حقوقاً وسلوكاً كما تفعل رسالة محمد ﷺ . فالغرب خالف رسالة عيسى ورسالة الأنبياء كلهم عليهم السلام بالنسبة للمرأة وغير ذلك . ولم تعرف المرأة في تاريخ البشرية إكراماً وتقديراً كما هو في الدين الإسلامي ، لأنَّ التكريم لم يأت من عند البشر ولكن من عند الله سبحانه وتعالى ، فأيّ تكريم لها أعظم من ذلك ! إنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الرجل وجعل له حقوقاً وواجبات مفصَّلة ، وخلق المرأة وجعل لها حقوقاً وواجبات مفصّلة أيضاً ، ليتعاون الرجل والمرأة من

خلال حقوق كلٍّ منهما ومسؤولياته، كما نصَّ عليها الإسلام، لتُبْنى حياة إنسانية نظيفة، لا تدفع الرجل ولا المرأة إلى الهبوط في وحول الفَساد والرجس والانحلال، والغرق في الشهوات التي تضيّع كلّ المسؤوليات والحقوق. فالمرأة في الإسلام عزيزة مكرمة أفضل إعزاز وتكريم.(1) وخارج الإسلام سلعة يُلقى بها في أسواق متعددة من الحياة العامة، في تجارة رخيصة. وإنَّ تجربة البشرية في هذا الصدد دفعت جورباتشوف الشيوعي إلى أن يعلن أن مكان المرأة الطبيعي تربية الأجيال وحماية البيت، أماً وأختاً وزوجة، ثمَّ بيَّن كم خسر المجتمع عندما دفع المرأة إلى المصانع وأعمال الرجال وتنظيف الشوارع وغير ذلك من الأعمال، حتى تفلّت البيت والأجيال وخسروا الرعاية الحقيقية التي يحتاجونها.

أما بالنسبة لتعدّد الزوجات، فخير للغرب أن يصمت ولا يثير هذه القضية، لأن هذه القضية هي التي تفضح فساد الغرب وظُلْمَهُ الواسع للمرأة. ذلك لأنه حين شرع الله لعباده المؤمنين تعدُّد الزوجات بشروطه المبيّنة في الإسلام، فإنَّ الغرب شرع عملياً تعدّد " العشيقات " حتى زكمت الأنوف من فضائح كثير من المسؤولين في أمريكا وإنكلترا وغيرها، فضائح متعددة متتالية، هذا خلاف ما يجري في مستوى الحياة العامة التي أبيح فيها الزنا واللواط والخمر وكثير غير ذلك!

وكذلك فإنَّ الإسلام يحرص كل الحرص على سلامة اللبنة الأولى في بناء مجتمعاته الإسلامية، ألا وهي الأسرة والحياة الزوجية. فإنَّ الأسرة تفلّتت في الغرب تفلّتاً عجيباً، وزاد في تفلّتها قوانينهم الوضعية التي ابتدعوها والتي تخالف ما شرع الله لعباده المؤمنين.

وموضوع الرق! يتهمون الإسلام به، وهم المتّهمون الظالمون ... إنّ الإسلام جاء والرق موجود، والخمر موجود، والزنا موجود، وغير ذلك من المفاسد. فجاء التشريع يعالج ذلك كله بدقة وعلى مراحل، ليعيد للإنسان كرامته التي كرَّمه

---

(1) يراجع كتابنا: المرأة بين نهجين: الإسلام أو العلمانيَّة! والمقالات المتعددة في هذا الموضوع المتوافرة في موقعنا على الشبكة الإلكترونية.

الله بها . ونجح نجاحاً عظيماً في معالجة هذه القضايا كلها ، كيف لا ؟! والتشريع من عند الله ربِّ الناس كلهم وخالقهم ، ويتمُّ العلاج والتطبيق للتشريع بقيادة النبيّ العظيم والرحمة المهداة ، حتى أصبح ممن يسمون " موالي " علماء من كبار العلماء والأتقياء الصالحين الذين خدموا الأمة والمجتمع والبشرية . ولم يعد المولى يطيق أن يترك صحبة مولاه الذي آخى الإسلام بينهما ، والذي يجد معه أعلى درجات التكريم والحريَّة والإحسان ، والذي عليه أن يعينه إن أراد الانفكاك . فذلك حقّ له ، نظمه الإسلام من خلال نظام " المكاتبة " ! ليست القضية قضية إطلاق الإنسان ليتيه في الحياة دون أن تنظّم أموره . من الناحية العملية فالإسلام رعى " المولى " وغير اسمه من عبد ورقيق إلى " مولى " ، ووفر له الاحترام والحقوق ليظلَّ في رعاية حانية قبل أن يطلق في المجتمع ليكون عالة على المجتمع . وترك له حق الانفكاك حين يعلم إن انفكاكه لن يضيّعه . ومن هنا نرى الفرق بين المنهج الرباني ورعاية الله لعباده وخلقه ، وبين المناهج البشرية التي يغلب عليها الشعارات .

ولا بدَّ أن نشير في هذه المناسبة كم من الناس وهم في العرف القانوني أحرار ، ولكنهم في الواقع عبيد لا حريّة لهم ، ويتمنّون لو يكونوا مثل الموالي في الإسلام .

وفرية أخرى يطلقونها على الإسلام من حيث قسوة بعض الحدود ، مثل قتل القاتل ، وقطع يد السارق ، وحد الزاني ، وغير ذلك . وإني لأعجب أشدّ العجب حين أرى أن الذين يطلقون هذه الفرية وأمثالهم هم المجرمون الذين يفنون مئات الألوف من البشر بصاروخ واحد أو قنبلة نووية ، وغير ذلك من الأسلحة المدمرة الفتاكة ، الذين يهدمون البيوت على سكانها ليُدْفنوا أحياء تحت ركامها ، والذين يغتصبون النساء قهراً وعدواناً وفساداً وفتنة ، والذين يرتكبون أوسع الجرائم في الأرض . أعجب كيف يرى قاتل الألوف من الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ أن إعدام المجرم القاتل قسوة وظلم . تناقض وخداع وافتراء . فليحاسبوا أنفسهم حول ما يرتكبون من جرائم هي في أعلى وأشد درجات القسوة . إنهم يستغلون

المسلمين حين يبثون مثل هذه الدعاوى الظالمة الباطلة . إن جرائم البشرية كلها لا تبلغ مستوى جرائم المجرمين في عصرنا الحالي ، المجرمين الذين يتهمون شرع الله الحق ، ليخفوا ظلمهم وضلالهم .

مهما رددنا على افتراءات المجرمين في الأرض على الإسلام لا نكاد ننتهي ، ففي كل يوم يبتدع شياطينهم افتراءات سخيفة ! فانظر كيف يتهمون الإسلام بأنه رأسمالي يبيح حريّة التجارة . الإسلام له نظام اقتصادي متكامل ، مرتبط بنظامه الاجتماعي والسياسي والفكري . يمنع الظلم في جميع أشكاله وأنواعه ، وأشدّ ما حرَّمه من المظالم أكل أموال الناس بالباطل ، وعدم جعل الثروة دولة بين الأغنياء من الناس أو حصرها بأيدي الرأسماليين . وأما " حريّة التجارة " فتعبير غير منضبط . إنه مصطلح متفلّت . إنَّ التجارة في الإسلام تضبطها قوانين وأسس تمنع الظلم بأي شكل كان ! ومن أجل ذلك حرَّم الربا تحريماً هو أشدُّ ما حرَّمه الإسلام ، وهو صورة من صور أكل أموال الناس بالباطل . ونعجب كيف أن لصوص الأرض الذين ينهبون ثروات الأمم ، ويسرقون من هنا وهناك بصورة ظالمة معتدية ، يعيبون على الإسلام بهذه الفرية الباطلة !

أما بالنسبة للقومية والإقليمية والوطنية ، كما يدعى لها في العصر الحديث وفي أحزابها ، فالإسلام لا يرفضها فقط ، ولا يقف عند الرفض ، بل يرفضها ويحرّمها على النحو الذي هي عليه ، ولكنه يقرّ بأنَّ هذه علاقات بشرية يعيد صياغتها صياغة إيمانية ربانية ، ليجرِّدها من العصبيات الجاهلية المفسدة كما ذكرنا في صفحات سابقة ، وينفيَ عنها مظالمها. ويحرص الإسلام على الروابط البشرية الطبيعية لتظلَّ نقيَّة من أشكال الظلم والعصبيات الجاهلية ، ولتكون كلها داخلة في الرابطة الكبرى والعروة الوثقى أخوة الإيمان ، لتكون هذه الأخوة هي أساس الانطلاق العالمي في الأرض ، ليصبح شرع الله الحق يسود كله في الأرض ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، وتمتد هذه العلاقات بخيرها لا بشرها ، لتجمع البشرية كلها على " عولمة " الحق وعالمية الإسلام . فدين الإسلام الذي يربط

الدنيا بالآخرة ، لا يمكن إلا أن يكون عالمياً ، ولا يمكن إلا أن ينظر إلى البشر كلهم نظرة إيمان وخير . فلا معنى لما شاع في وقتنا الحاضر من مصطلح " الآخر " حتى امتلأت الصحف به ، دون أن يبيّن أحد من " الآخر " ! ودون أن يبيّنوا لماذا يثار هذا الموضوع . وكيفما فهمت مصطلح الآخر فهو بالنسبة للإسلام إنقاذ الآخر من فتنة الدنيا ومن عذاب الآخرة. وتصبح هذه القضية من أهم قضايا الإسلام أو أهمها .

إنَّ الإسلام هو الدعوة الصادقة الوحيدة التي ترعى الآخر وغير الآخر ، ترعى الناس كلهم ، فكلهم عيال الله . ترعاهم بأن ترشدهم إلى الدرب الحق والدين الحق ، حتى ينجو الإنسان من فتنة الدنيا ومن عذاب الآخرة ! وحتى يجمع الناسَ على أعظم شريعة لديهم توفّر لهم العدالة الأمينة والحرية المنضبطة !

أما لماذا يرفض الإسلام الديمقراطية ؟!

نعم ! الإسلام يرفض الديمقراطية للأسباب التالية :

١ - لأن الإسلام يرفض الكذب والخداع والغش ، يرفضه ويحرّمه ، ويزداد تحريمه كلما امتدَّ على مستوى عالمي .

٢ - لأن الديمقراطية المعروضة هي في أساسها بنت الوثنية اليونانية ، نبتت في حضن الوثنية ، ثمَّ نشأت في حضن العلمانية ، وأخذت من هذه وتلك كل أسباب الكذب والفحش والخداع ، والفتنة والفساد، والظلم والعدوان .

٣ - لأننا ننظر إلى الديمقراطية بالزخارف التي يُعلن عنها ، ثمَّ ننظر في تطبيقها ، فنرى أن الديمقراطية ارتكبت أعظم الجرائم في الأرض دون حياء ، مع الظلم والكبر والإفساد بأوسع معاني ذلك . ومن هنا ينشأ السؤال الهام : أين نجد الديمقراطية التي يدعون إليها لتكون أساس العولمة ؟! أنجدها في المجازر والفواجع التي يرتكبها دعاتها في شتى أنحاء الأرض ؟! أين نجد الحريَّة ؟! أنجدها في حريّة الزنا واللواط والخمر وسائر الفواحش ؟! أين نجد عدالتها ؟!

أنجدها في إخراج شعب كامل من أرضه في فلسطين ، وإعطائها لشعب آخر لا علاقة له بالأرض لا من حيث التاريخ ولا من حيث سواه ، أناس نشؤوا في دول الغرب فعاثوا فيه فساداً ! أنجد العدالة في التدمير الوحشي في العراق ، أم في الإبادة الممتدة في العراق وأفغانستان ؟! أم في سلوك الدولة الديمقراطية اليهودية التي ترتكب كل يوم أبشع الجرائم ، وتقوم على أرض اغتصبتها بخديعة دولية ماكرة ؟!

٤ - نرفض الديمقراطية لأنها تحارب الإسلام وحقيقة الإيمان والتوحيد، وتدعو إلى شرع مخالف لدين الله مخالفة صريحة ، ولا تحترم الدين إلا حين تحتاجه لمصلحتها لتستخدم الحركات التنصيرية جزءاً من أجهزة عدوانها وظلمها وإفسادها ! ويريدون من الإسلام والمسلمين أن يلقوا سلاحهم ولا يدافعوا عن أوطانهم ولا أعراضهم، وأن يتنازلوا عن كثير من قواعد الإسلام الثابتة المحكمة حتى يصبحوا معتدلين مرضياً عنهم !

٥ - نرفض الديمقراطية لأنها قوة لنشر الفتنة في الأرض، ونشر الفاحشة بجميع أنواعها، وتمزيق الأمم والشعوب والأقطار، وإثارة الحروب الظالمة في الأرض بصورة وحشية إجرامية.

٦ - إنها شرٌّ كامل ، وما يبدو لبعضهم من محاسن مزخرفة وزينة كاذبة ، فإنه السمّ الذي يقتل . أين نجدها ؟! أفي أمريكا حيث يكون الشعب الأمريكي هو أول المظلومين المخدَّرين المكبلين بألف قيد وقيد ، إلا بالنسبة للتفلّت والإباحة الجنسية . بيته بالتقسيط ، وسيارته بالتقسيط ، وزوجته بالتقسيط ، وويله إن قصر بالسداد أو خالف !

الفصل الثالث

أهم نواحي الخلل في واقع المسلمين وأثر الديمقراطية في ذلك !

١- ربما لم يشعر المسلمون بادئ الأمر بخطر الديمقراطية وخطر فكرها وأساليبها، فلم يجابهوا فكراً بفكر إلا قليلاً، وربما سقط بعضهم في حبالها حتى تخلوا عن الدعوة إلى الإسلام، ونهضوا للدعوة إلى الديمقراطية. فعل ذلك دعاة مسلمون، فماذا جنوا ؟! لم ترحمهم الديمقراطية التي هبّوا لنصرتها، بل أذلتهم ورمتهم، وخسروا نصرة الإسلام وأجر ذلك وثوابه في الآخرة، والعزّة في الدنيا. ولقد كتبت عن ذلك في كتاب: " الشورى لا الديمقراطية " وغيره.

٢- خُدِع كثير من المسلمين بزخرف التقدّم العلمي والصناعي الذي رافق الديمقراطية، وبما فيه من متعة الدنيا ورفاهيتها، وغفلوا عما تحمل هذه الرفاهية من فكر مدمّر، فلم يبنوا هم علماً وصناعة وقوة كما أمرهم الله، وركنوا إلى الظالمين، ولم ينهضوا لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فتضاعف عليهم الإثم.

٣- يلجأ المجرمون في الأرض إلى وسائل مختلفة لنزع قوة المسلمين، حين يدعون أو يطالبون بإسلام معتدل، فيغرون كثيرين بهذا الشعار وزخرفه، فينساق الكثيرون إلى ما يحسبونه اعتدالاً، فيكونون قوة لأعداء الله وتوهيناً للمسلمين وتمزيقاً لصفوفهم، فتُمَرَّرُ جرائم هؤلاء تحت شعارات إسلامية. فيخسر المسلمون تأييد الملايين من المقهورين الذين كان أملهم بالمسلمين لينقذوهم !

٤- بعض رجال الفكر في الغرب يقولون هم أنفسهم إن حضارة الغرب لم تعد تصلح نموذجاً لبناء مستقبل الإنسان. ولقد وضح أن حضارة الغرب أفسدت

الإنسان، والبيئة، والهواء، الصناعة ومصانعها وما تطلقه من غازات، تمزيق طبقة الأوزون، ارتفاع درجة حرارة الأرض، تحويل بعض المناطق الزراعية إلى مبان، اليابان وكوريا وتايوان حولت ٤٠٪ من الأراضي الزراعية لأجل المصانع، وكذلك الصين وأندونسيا والهند في تنافس شديد على امتلاك القوّة على حساب حياة الإنسان، تلوّث الهواء، ندرة الماء حتى أصبح الماء مشكلة.

٥- من أخطر أمراض البشرية أكل أموال الناس بالباطل والربا، ذلك الذي يقوم عليه النظام الرأسمالي كله ليهدّد بذلك حياة البشرية كلها. والمصارف المركزية والمؤسسات المالية التي قامت على ذلك، والتجارة وأساليبها المنحرفة، والتجارة بالعملات، وغير ذلك مما كوّن عصابات من اللصوص والمجرمين الذين تجرَّدوا من أيّ رحمة أو قيم أو أخلاق.

٦- لعل الله أراد بذلك أن يكونَ هؤلاء عقاباً لآخرين ظلموا أنفسهم وما صدقوا الله. وهذه سنَّة من سنن الله في هذه الحياة الدنيا:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]

إن الأفكار والمبادئ التي ظهرت في أوروبا ثم انتقلت إلى أمريكا كانت ثمرة صراعات دارت في أوروبا، يمكن إيجازها بما يلي:

أ . صراع النصرانية الوافدة إلى أوروبا مع الوثنيَّة المتجذّرة فيها، حتى انحرفت النصرانية بعد تاريخ طويل من الصراع عن رسالة عيسى عليه السلام.

ب . صراع الكنيسة الكاثوليكية التي نشأت على أثر الصراع السابق، مع العلماء بما كشف الانحراف وجعل الكثيرين ينصرفون عن الدين وفكرته.

ج . صراع الكنيسة الكاثوليكية مع الملوك في أوروبا صراعاً على الدنيا والسلطة والنفوذ وليس على نشر رسالة ودين.

٨- نظام الانتخابات الحالي صورة من فساد النظام الديمقراطي . ومهما قيل عن انتخابات إنها نزيهة فهي ليست نزيهة ، لأن الانتخابات هذه تمثّل صراعاً على الدنيا والسلطة والنفوذ ، لتمثل نظاماً يحمي مصالح المجرمين والظالمين المفسدين . وهي انتخابات لا يمكن أن يدخلها إلا من ملك قوة ماليَّة أو عصبيّة جاهليَّة .

٩- الصراع بين أوروبا وأمريكا أو اختلاف المواقف أحياناً ، كان سببه الأول روح التنافس على الدنيا ، واختلاف المصالح واصطدامها . والسبب الثاني كِبْر أمريكا وعنجهيتها وما أصابها من غرور بسبب تقدّمها الصناعي والعلمي ، جعلها تتصرّف كأنها شرطي العالم ، وأمامها شعوب ضعيفة ودول ضعيفة .

١٠- جميع ما أحدثوه من وسائل ترفيه أو تعاون مثل الألعاب الأولمبية أو الحفلات الماجنة الصاخبة ، أو شعارات الديمقراطية والحريَّة المزعومة ، هذه كلها وكثير من أمثالها ، لم تقرّب الشعوب بعضها من بعض ، ولم توقف صراع الأطماع والمصالح الدنيوية ، بل على العكس زادت العدوان والظلم والتنافس المهلك ، وزادت الفتن والفساد ، وغذّت التمزق والتفرّق . وغذَّت ضمور الطبقة الوسطى ، وبروز المجرمين ، وازدياد التطرف والمتطرفين كردود فعل للظلم والفتنة والفساد . إن التطرُّف الأشدّ والأعتى هو عند المجرمين في أطماعهم وظلمهم ، فهم الذين يبتدعون الوسائل للتهرّب من الضرائب ليزيدوا في أموالهم .

١١- كلُّ النذر التي يبعثها الله للناس في سننه وآياته البيّنات لم توقظ الضمائر ، ولم توقف الظلم والفساد . وبقي المجرمون ماضين في ظلمهم يخدعون الفقراء ويكذبون عليهم ويحرمونهم من حقوقهم ، كأن الإنسان عدوٌّ للإنسان . وكأنَّ العالم فقد توازنه ، فنمت الأطماع وازداد الفقراء فقراً .

١٢- تكاد تكون النظم كلها دكتاتورية مهما اختلفت مسمياتها ، حتى لو حملت شعار الديمقراطية والانتخابات والبرلمانات ، فهي دكتاتورية إما معلنة أو متخفّية ، وكأن الإنسان يعيش في شريعة الغاب !

١٣- العولمة العادلة خرافة وخدعة كبيرة وكذبة واسعة ، لا عدالة مع العولمة إلا حين تقوم على شريعة ربَّانيَّة عادلة تلجم الأهواء وتبني الإنسان ، وتزن بميزان حق أمين .

١٤- وأخيراً ما هي حقيقة العولمة اليوم ؟!

- العولمة اليوم تعني أمركة العالم .

- العولمة اليوم حرب ضروس بين المجرمين في غابات المال والأطماع .

الباب السابع

سبيل الإصلاح والنجاة

سبيـل الإصـلاح والنجـاة

مع نهاية الفصل الثالث من الباب السادس بيّنّا أنَّ من أخطر ما يجابهه الواقع الإسلامي ، هو القوى الموجودة في داخله ، في قلب المجتمع ، تجهر بمبادئ محاربة للإسلام حرباً صريحة جريئة ، وتدعو إلى مبادئها علانية وبحُرِّيّة كاملة قد لا يملكها المسلمون .

وبيّنا أنَّ أخطر هذه المبادئ : العلمانية ، والرأسمالية ، والديمقراطية ، والعولمة ، وأنَّ هذه القضايا الأربع هي أخطرَ التحديات التي يجابهها الإسلام والمسلمون ، وأنَّ هذه القضايا الأربع تعود كلها واحدة واحدة بجذورها إلى الوثنية اليونانية والرومانية . وأنها كلها متكاتفة فيما بينها في حربها على الإسلام . ويغذِّي هذه الحرب قوى خارجية ودول كبيرة تضع كل إمكاناتها وأجهزتها لنشر هذه المبادئ ودعم رجالها .

والتحدي الآخر هو هوان المسلمين واستسلامهم ، وامتداد الفتنة فيهمٍ ، حتى أخذ بعضهم يظنّ واهماً أنَّ النجاة هي باللجوء إلى هذه القوى الظالمة ، وتبنى هذه المبادئ ، تاركين اللجوء الحقّ إلى الله سبحانه وتعالى . ذلك كله بالرغم من الآيات البينات في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، وبالرغم من النتائج المريعة التي نراها في الواقع من إخلاف الوعود وامتداد البطش والدسائس، واشتداد المكر والخداع من أولئك الذين لجأ إليهم المخدوعون !

فما هو المخرج ؟! وما هو سبيل النجاة ؟!

أمامنا في الواقع حقائق لا يمكن إنكارها إلا عن طريق الجدل العابث . ونوجز هذه الحقائق بنقاط :

١ - يتعذّر على فئة وحدها أن تحقّق النصر الحق لدين الله ! وقد تُحَقِّقُ الفئات الممزّقة نصراً جزئياً هنا أو هناك ، سرعان ما ينكشف عن هزيمة نكراء !

٢ - اللجوء إلى المجرمين في الأرض ومبادئهم لا يزيدنا إلا هواناً وذلاً ، وضعْفاً وفتناً ، وامتداداً للهو والعبث ، وتخديراً بزخارف الحياة الدنيا !

٣ - إنَّ بين أيدينا منهاج الله ، منهجاً متكاملاً من عند الله حقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ للعالمين ، للناس كافة لكلِّ زمانٍ وكلِّ مكان وواقع وحدث ! فيه وحده المخرج والنجاة وسبيل النصر !

٤ - بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً ، واستمع إلى حديثين شريفين لرسول الله ﷺ :

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول : (**إنَّ الإيمان بدأ غريباً وسيعود كما بدأ . فطوبى للغرباء إذا فسد الزمان . والذي نفس أبي القاسم بيده لَيَأْرِزَنَّ الإيمان بين هذين المسجدين كما تأرِزُ الحيَّة إلى جحرها**) [أخرجه أحمد ومسلم][1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :

(**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ غريباً . فطوبى للغرباء**)

[أخرجه مسلم][2]

٥ - **علاقة المسلمين بالآخرين كلهم ، بالناس جميعاً ، تنطلق من وجوب دعوتهم دعوة صريحة إلى الإسلام ، وتبليغهم رسالة الله ودينه كما أُنْزِل على محمد ﷺ وتعهّدهم عليه . وهذه الدعوة وهذا التبليغ يجب أن يمضي مع الدهر كله دون أي توقف .**

٦ - من يقومون بالدعوة والبلاغ والبيان والتعهد يجب أن يكونوا قد صدقوا الله سبحانه وتعالى : إيماناً وتوحيداً وولاءً وعهداً ، وعلماً صادقاً بمنهاج الله - قرآناً وسنَّة ولغة عربية - وعملاً صالحاً وممارسة إيمانية ! يجب أن يكونوا قد تزوَّدوا بالزاد اللازم الضروري لميدان الدعوة والبيان .

(١) أحمد : الفتح : ١/ ١١٤ ، رقم (٩٩) .
(٢) أحمد : الفتح : ١/ ١١٤، رقم (١٠١) ، مسلم : ١/ ٦٥/ ٢٣٢ .

٧ - إنَّ من ينزل ساحة الجهاد في سبيل الله عليه أن يتفقه بدين الله من الكتاب والسنَّة ، إنَّه نازل على ميدان الشهادة ، فعليه أن يعرف مسؤولياته والتكاليف الربّانيَّة بنصوصها ، كما أنَّ هذا واجب كل مسلم .

فإذا عرفنا أنه لا يمكن لفئة واحدة أن تحقق نصراً صادقاً لدين الله ، لأنَّ هذا مخالف لنصوص الكتاب والسنَّة ، ولحقيقة وعد الله لعباده المؤمنين بالنصر وهم أمة واحدة ، فإنَّ واجبنا أن ننهض لتحقيق هذا بأن نكون أمة واحدة وصفاً واحداً كالبنيان المرصوص . وإنَّ هذا التمزّق الذي نعاني منه يفتح ثغرات ونوافذ وأبواباً لأعداء الله يتسللون منها إلى قلب المسلمين ، ليزيدوهم فتنة وتمزيقاً وضلالاً ! وهذا التمزّق معصية لله يجلب غضبه وعذاباً عظيماً منه .

ولا يتمُّ لقاء المؤمنين صفّاً واحداً كما يريد الله سبحانه وتعالى إلا على أساس منهج حقٍّ يكون قاعدة اللقاء ، ويكون النهج عاملاً ضروريّاً مساعداً لمعالجة ما نجابهه من مشكلات ، وليوفر النهج بعض الحلول نموذجاً يتّبع في دراسة سائر القضايا والمشكلات بردّها إلى منهاج الله . وإننا نقدّم هذا النهج بتفصيلاته ودراساته . ونقدّم هنا موجزه .

إنَّ القضية ليست قضية اعتراف " **بالآخر** " أو عدم اعتراف ، ولا قضية مودة أو حرب وعداء . إنها قضية دعوة وبلاغ وبيان وتعهد أمرنا الله به ، لنبلّغ " **الآخر** " رسالة الله ودينه الحق بكل الوسائل التي شرعها الله ، فإننا محاسبون عن ذلك بين يدي الله .

ومن أجل ذلك ، فإنَّ هذه القضايا الأربع : (العلمانية ، والرأسمالية ، والديمقراطية ، والعولمة) تؤلف التحدي الرئيس للإسلام ، لدين الله ، لشرعه ، الذي جاء كله ليصلح حياة البشرية ، ويوفّر لها أعدل نظام وتشريع ، عدلاً مطلقاً من عند الله ، هو دين جميع الرسل والأنبياء: دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، ودين النبيّ الخاتم محمد ﷺ . وهو دينٌ جاء بصورته الخاتمة كاملاً

متكاملاً حقاً مطلقاً ليصلح حياة الناس الاقتصادية والتشريعية والقانونية، والاجتماعية، والسياسية، والفكرية، لتقوم كلها على **القاعدة الصلبة : قاعدة الإيمان والتوحيد**، وليكون الهدف الرباني الأول **هو دراسة هذا الدين وفهْمه، ثمَّ التزامه، ثمَّ تبليغ رسالة الله إلى الناس كافة كما أُنْزلتْ على محمد ﷺ وتعهُّدهم عليها، ثمَّ تتوالى الأهداف الربَّانيَّة الستة لتُخْتم بالهدف الأكبر والأسمى : الدار الآخرة والجنَّة ورضوان الله**.

وإذا عرفنا القاعدة الصلبة فلا بدَّ أن نشير إلى الركنين الرئيسين اللذين يقومان على هذه القاعدة الصلبة، وهما :

*** المنهاجُ الرباني - قرآناً وسنّة ولغة عربية -.**

*** الواقع الذي يُدْرَس ويفهم من خلال المنهاج الرباني.**

وعلى هذين الركنين الرئيسين تقوم سائر عناصر **النظرية العامة للدعوة الإسلامية**، والتي تمتدُّ بعناصرها كلها إلى الهدف الأكبر والأسمى : **الدار الآخرة والجنَّة ورضوان الله**، والتي تؤلف جزءاً من النهج الذي ندعو إليه.

وعلى ضوء ما يمرُّ به المسلمون من تمزّق وضياع وهوان، فقد عجزوا عن مجابهة الواقع المعاصر بالكتاب والسنَّة، وتقديم الحلول الإيمانية التي يحتاجها الواقع إلا من حيث إطلاق شعارات لا تسمع إلا ضجيجها وضجيج الفتن المتتالية. ولذلك تراهم يقفون حائرين أمام هجمة الوثنية والرأسمالية والديمقراطية والعلمانية والعولمة. وكلما شعروا بالعجز فزع بعضهم إلى واحد من هذه الفلسفات أو إليها كلها، ليتبنّوها سراً أو علناً، ويصبحوا من دعاتها، دون أن يشعروا أنهم بذلك يزيدون تيهاً وذلاً وهواناً، وخسراناً في الدنيا والآخرة، وليخفوا عجزهم وفشلهم في حمل رسالة الإسلام والدعوة إليها وتقديم الحلول لمشكلات العصر.

أما السبب الرئيس في عجز المسلمين اليوم عن مجابهة الواقع المعاصر بتقديم

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : رقم (٦٧٠٦).

حلول إيمانية لمشكلات العصر فهو جهل الملايين من المسلمين لدينهم، لمنهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ. وللتقصير الكبير في نشاط المسلمين العاملين في تبليغ دين الله كما أُنْزل على محمد ﷺ إلى الناس كافة وتعهّدهم عليه. وبدلاً من الوفاء بهذه الأمانة التي وضعها الله في أعناقهم والتي سيحاسَبون عليها بين يدي الله يوم القيامة، فقد شُغل الكثيرون بزخرف من زخارف الحياة الدنيا، زيّنها الشيطان لهم حتى انصرفوا بها عن مهمتهم الحقيقية وأمانتهم الرئيسة.

لقد جهل الكثيرون من المسلمين الإجابة على هذا السؤال الهام: **لماذا خلقهم الله وأنزلهم الأرض ؟!** والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

أو قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة: ٣٦]

لقد غاب عن الكثيرين من المسلمين أنَّ المهمة التي خلقهم الله لأجلها، والتي تتمثل في ميادين أربعة: **العبادة، الأمانة، والخلافة، والعمارة، هي تبليغ دين الله إلى الناس كافة كما أُنْزل على محمد ﷺ وتعهّدهم عليه حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها، وليكون شرعه هو الأعلى، وليكون المؤمنون في الأرض كلهم أمَّة مسلمة واحدة، صفاً واحداً، كالبنيان المرصوص، ولإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الشقاء والفتن إلى السلام الحق، ومن عذاب النار إلى نعيم الجنَّة !**

ولما نسي بعض المسلمين هذه المهمة الرئيسة وانصرفوا عنها إلى جزئيات وفتن شُغلوا بها، أصابهم الانحراف عن دين الله، وأخذ الانحراف يزداد فيهم وهم يرفعون شعار الإسلام، دون أن يقدّموا للبشرية حلولاً لمشكلاتها، حلولاً إيمانية، بل انجرف الكثيرون في فلسفات الرأسمالية والديمقراطية والعلمانية والعولمة، وليجدوا أنفسهم يغيبون في هوان بعد هوان، وذل بعد ذل، وهزائم بعد هزائم. وخسروا بذلك أمرين: خسروا احترام أعدائهم، وخسروا نصرة الله لهم. وكلما أوغلوا في الانحراف مع أعداء الله زادهم الله ذلاً وهواناً وعذاباً.

لو نظرت إلى واقع المسلمين اليوم ، وبحثت عن أوجه الانحراف لهالك الأمر ، ولوجدت أن هنالك مئات القضايا التي تحتاج إلى معالجة . ولكننا في النهج الذي ندعو إليه ، فإنَّ جميع هذه القضايا أو نواحي الخلل يمكن جمعها كلها في أربع نواحٍ ، إذا عولجت فتعالج بذلك جميع نواحي الخلل الأخرى . وهذه النواحي الأربع هي :

* **الخلل في التصور لقضية الإيمان والتوحيد والانحراف عن التصور الحق الذي جاء في الكتاب والسنّة تصوراً حقاً ميسّراً ، الخلل الذي يثير العصبيات الجاهلية وأمراضاً أخرى كثيرة .**

* **هجر منهاج الله ـ قرآناً وسنَّة ولغة عربية ـ وجهله جهلاً واسعاً ممتداً .**

* **الجهل في فهم الواقع من خلال منهاج الله .**

* **الخلل والاضطراب في الممارسة الإيمانية في الواقع نتيجة للقضايا الثلاث السابقة .**

إذا لم يعالج المسلمون هذه النواحي الأربع من الخلل في واقعهم ، فلن يفلحوا إذن في محاولة النهوض الإيماني وحمل رسالة الله وبناء الأمة المسلمة الواحدة القادرة على متابعة المسيرة والوفاء بأمانتها التي تحملها .

إذا لم يلجأ المسلمون إلى الله وحده حقَّ اللجوء ، ولم يعالجوا أمراضهم والخلل فيهم ، فستراهم ينجرف هذا الفريق ليلجأ إلى غير الله وإلى غير المؤمنين، ليطلبوا النصر من عندهم ! سيلجأ هذا راكضاً إلى روسيا وذاك إلى أوروبا ، وذاك إلى هذه الدولة أو تلك ، وكل دولة تقدّم من المغريات ما يجذب المفتونين والضعفاء .

ولكن معالجة الخلل والأمراض لا يتم بخطوات ارتجالية ، ولا بشعارات عاطفية ، ولا بضجيج تغيب فيه الحقائق وتطيش فيه الرؤوس . إن المعالجة يجب أن

تتم بنهج واضح جلي ، وعمل منهجي واعٍ ، وخطوات مدروسة ، لينبع ذلك النهج والمنهج من أصول ثلاثة :

*** قواعد الإيمان والتوحيد كما هي مفصلة في منهاج الله .**

*** منهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ .**

*** مدرسة النبي الخاتم محمد ﷺ ، وهو يمارس منهاج الله في بناء صحابته والجيل المؤمن الفريد برعاية الله له .**

ومن أجل ذلك نقدّم منهج مدرسة لقاء المؤمنين بكامل أجزائه وعناصره ، ليكون القاعدة المتينة للقاء المؤمنين ، للقاء القلوب والسواعد المؤمنة ، مبرّأة من العصبيات الجاهلية التي حرّمها الإسلام ، تحمل الخصائص الإيمانية التي يُنْزل الله بها نصره على عباده المؤمنين .

إننا نقدّم هذا النهج : لكل مسلم ومسلمة ، ولكل أسرة مسلمة ، ولكل حركة إسلامية ، ولكل مجتمع ، ولكل إنسان ، نهجاً ومنهجاً خالياً من التصوّرات الحزبية، خالياً من الأعمال السريَّة . إنه منهج جليٌّ واضح نابع من الأصول الثلاثة المذكورة أعلاه .

ويحرص هذا النهج على التزام الصراط المستقيم الذي بيّنه الله لنا وفصَّله ، الصراط المستقيم الذي جعله الله مستقيماً حتى لا يضلَّ عنه أحد ، وجعله واحداً حتى لا يُخْتَلفَ عليه :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١]

وتتوالى الآيات الكريمة لتؤكد هذا الصراط المستقيم ووجوب اتباعه ،

ونحاول أن نعرّف هذا النهج من خلال الأصول الثلاثة التي سبق ذكرها ، بما يلي.

١ - ماذا يضمُّ هذا النهج ؟!

فهذا النهج الذي ندعو إليه يضمّ :

* النظرية العامة للدعوة الإسلامية .
* الأهداف الربانية الثابتة الستة والأهداف المرحلية .
* الهدف الأكبر والأسمى .
* الوسائل والأساليب
* المناهج التطبيقية العمليّة ونماذجها .
* الدراسات التفصيلية لبنود النظرية العامة وعناصرها ، ولموجزها .
* الدراسات التفصيلية لأهم قواعد الفكر الإسلامي والفقه والتوحيد .
* الدراسات التفصيلية لأحداث الواقع من خلال منهاج الله لتكون مثلاً على ردّ الأمور إلى منهاج الله .
* الدراسات التفصيلية لأهم المذاهب والقضايا الفكرية في الواقع من خلال منهاج الله ، لتكون مثلاً على ردّ الأمور إلى منهاج الله .
* الدراسات التفصيلية لقضايا الأدب الملتزم بالإسلام وقضايا النصح الأدبي (النقد) .
* الدراسات التفصيلية للرد على المذاهب الأدبية الحديثة .
* الدراسات التفصيلية لعناصر وبنود النظرية العامة .
* أهمية اللغة العربية ووجوب استعمالها ونشرها وإتقانها .
* الدواوين الشعرية الملتزمة بالإسلام وبالنظرية الجديدة للملحمة المخالفة لملاحم اليونان الوثنية وأمثالها ، والمخالفة لكل شعرٍ انحرف عن الإسلام .

* النظام الإداري الإيماني .
* التدريب المنهجي بأنواعه الثلاثة : التدريب الفوري ، التدريب الدوري ، التدريب المستمر .
* الدعوة والبيان ، والتبليغ ومراحله ووسائله ، ليكون الثمرة العملية لجميع النقاط السابقة وقضايا أخرى .

٢ – النظرية العامة للدعوة الإسلامية : في الجدول المرفق .

٣ – الأهداف الربانية الستة الثابتة :

أ . تبليغ دين الله إلى الناس كافة كما أُنزل على محمد ﷺ وتعهّدهم عليه .

ب. التربية والبناء والتدريب والإعداد .

ج. بناء الجيل المؤمن الذي يحمل الخصائص الربانية التي بها ينزل الله نصره .

د. الجهاد في سبيل الله بخصائصه الربانية الإيمانية .

هـ . بناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض رابطتها أخوّة الإيمان.

و. عمارة الأرض بحضارة الإيمان والتوحيد .

وهذه أهداف ربَّانيَّة لأنَّها ثابتة كلها في الكتاب والسنَّة . وتمتدُّ هذه الأهداف على صراط مستقيم إلى الهدف الأكبر والأسمى : **الدار الآخرة ورضوان الله والجنَّة** (١).

وينضمُّ إلى هذه الأهداف الربانية الأهدافُ المرحلية التي تضعها الطاقة البشرية المؤمنة لتنتقل بها من هدف رباني ثابت إلى هدف رباني ثابت آخر .

٤ – ماذا نريد أن نحقق بهذا النهج وهذا المنهج ؟!

نهدف من هذا النهج والمنهج الذي يقوم عليه إلى إعداد الجيل المؤمن إعداداً يتميز بالنقاط التالية :

(١) يُراجع كتاب : لقاء المؤمنين : الجزء الثاني : الأهداف .

أ .تقديم التصور الحق للإيمان والتوحيد من خلال منهاج الله آيات وأحاديث، حتى يكون ولاء المسلم الأول لله وحده، وعهده الأول مع الله وحده، وحبه الأكبر لله ولرسوله، ومن هذا الولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر تنشأ كل موالاة وعهد وحب في الحياة الدنيا، وتنشأ بذلك أخوة الإيمان بصورة فطرية طبيعية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ [الحجرات: ١٠]، وتدريبه على إخلاص النيّة لله في عمله كلها.

ب. تدريبه على التزام دراسة منهاج الله ـ قرآناً وسنةً ولغة عربية ـ دراسة منهجيَّة، صحبة عمر وحياة.

ج. تدريب المسلم على التفكير الإيماني المتميز من تفكير المذاهب الأخرى ومن التفكير المتفلّت التائه بين الارتجال والعواطف والشعارات.

د. تدريبه على وجوب ردّ الأمور صغيرها وكبيرها إلى منهاج الله ردّاً أميناً، نابعاً من صفاء الإيمان والتوحيد، وصدق العلم بمنهاج الله.

هـ. تدريبه على استخدام ميزان المؤمن ليزن به الناس على أُسسٍ إيمانيّة.

و ـ تعريف المسلم بمسؤولياته الفرديَّة، والتكاليف الربانية التي وضعها الله في عنقه، والتي سيحاسَب عليها بين يدي الله سبحانه وتعالى.

ز. تدريبه على الاعتماد على نفسه للوفاء بمسؤولياته الفردية، والاستعانة بكافة الإمكانات المتوافرة في مجتمعه من علماء وكتب وتسجيلات، بحيث لا يستدرج إلى فتنة أو ضلالة أو انحراف، ما دام قد صَدَقَ إيمانه وعلمه بمنهاج الله وتدرّب على ردِّ الأمور إليه.

ح. تدريبه على العمل الجماعي، والتفاعل مع المجتمع، وهو حامل رسالة الله زاداً وعلماً، دون أن ينحرف أو يُفتتن.

ط. تدريبه على دراسة الواقع من خلال منهاج الله.

ي. تدريبه على محاسبة نفسه ومجاهدتها حتى تصدق نيّته خالصة لله ، وحتى تستقيم على أمر الله .

ك . تدريبه على آداب النصيحة ونشرها بين المسلمين .

ل . تدريبه على مجابهة المشكلات وعدم الهروب منها، وبذل الجهد لإيجاد أفضل وسائل المعالجة .

م. تدريبه على استخدام اللغة العربية الصحيحة في حياته كلها وإتقان ذلك، مع مداومة دراستها حتى إتقانها .

ن . تدريبه على تبليغ رسالة الله إلى الناس كافّة ، كما أُنْزلتْ على رسول الله ﷺ ، من خلال منهج مدرسة لقاء المؤمنين ، وتعهدهم عليه ، على طريق بناء الأمة المسلمة الواحدة .

س. أن يعي حقيقة مهمته في الحياة الدنيا ، ولماذا خلقه الله ، وماذا يريد الله منه في هذه الحياة الدنيا ، حيث تجتمع كلُّ التكاليف الربانية في قضية تبليغ رسالة الله إلى الناس كافة كما أُنزلت على رسول الله ﷺ ، من خلال منهج مدرسة لقاء المؤمنين .

بعد أن وضح السبيل : وهو وجوب تبليغ دين الله كما أُنْزِلَ على محمد ﷺ إلى الناس كافّة من خلال نهج مدرسة لقاء المؤمنين ، على طريقِ بناء الأمة المسلمة الواحدة .

بعد هذا لم يعد هناك مجال لأحد أن يسأل في حيرة ماذا نفعل ؟! أو إلى متى سنظل ندرس ؟!

لكن إذا غلب الهوى وحبُّ الدنيا ، والسعيُ في السلامة والاسترخاء ، ومجاملة هؤلاء وهؤلاء ، فذلك شيءٌ أخر . ولا حاجة إلى أن يسوّغ المسلم عجزه بأمور غير سليمة . يمكن أن يكذب المسلم على نفسه ، ولكن لا يستطيع أن يكذب على الله .

النظرية العامة للدعوة الإسلامية

الهدف الأكبر والأسمى : الدار الآخرة ورضوان الله والجنة بالنجاة من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة .

الهدف الأكبر والأسمى

النجاة من فتة الدنيا وعذاب الآخرة

↑

نمو الإتقان والإحسان في الجهد البشري المؤمن من خلال المضي على الصراط المستقيم وعلى أساس من الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ووعي الواقع من خلالهما ، الإتقان والإحسان الذي يرافق عمل المؤمن من بدايته

المضي على الصراط المستقيم

نمو الإتقان والإحسان

↑

٨ ـ التقويم الدوري .

٧ ـ المؤسسات الإيمانية .

٦ ـ ميزان المؤمن .

٥ ـ الإدارة والنظام : المسؤوليات والصلاحيات وحدودهما ، الإشراف ، المتابعة ، التنسيق ، التوجيه ..

٤ ـ النهج والتخطيط لكل ميدان تخوضه الدعوة :
أ ـ ميدان الدعوة والبلاغ والبيان .
ب ـ ميدان التربية والبناء والإعداد .
ج ـ ميدان التدريب على الممارسة الإيمانية .
د ـ ميدان الأدب ودوره في الدعوة الإسلامية .
هـ ـ ميدان الجهاد في سبيل الله .
و ـ كل ميدان جديد تخوضه الدعوة .

٣ ـ النهج والتخطيط العام للدعوة : إخلاص النية لله ، النظرية العامة ، أسس النهج والتخطيط ، الأهداف والمراحل والتدريب ، الوسائل والأساليب .

٢ ـ المنهج الإيماني للتفكير .

١ ـ الأسس الأربعة السابق ذكرها .

عناصر التنفيذ

سلامة الممارسة الإيمانية وتحقيق الأهداف الربانية الثابتة في الواقع البشري والأهداف المرحلية

↑

٤ ـ اضطراب الممارسة الإيمانية في الواقع البشري .

٣ ـ غياب دراسة الواقع وعدم وعيه من خلال منهاج الله .

٢ ـ هجر الكثير من الناس لمنهاج الله ـ قرآناً وسنة ولغة عربية .

١ ـ الخلل في التصوّر لقضية الإيمان والتوحيد والبذل لها .

القضايا والمشكلات الأربع الكبرى الرئيسية في الميدان

تتحول المشكلات الرئيسية إلى أسس أربعة بعد معالجتها في نفس الداعية

الركن الثاني الواقع دراسته من خلال منهاج الله

الركن الأول المنهاج الرباني تدبراً وممارسة قرآناً وسنةً ولغةً عربيةً .

الركنان الرئيسان

الزاد الرئيس للداعية المؤمن ومنطلقه

↑

قضية الإيمان والتوحيد هي القاعدة الصلبة للدعوة الإسلامية وجوهرها ، والقضية الكبرى في حياة كل إنسان ، والحقيقة الكبرى في الكون ، والهدف الثابت الأول في الدعوة ، والمنطلق والزاد الأول للداعية .

القاعدة الصلبة وجوهرها

↑

تعريف بنود النظرية العامة للدعوة الإسلامية

بنود النظرية العامة للدعوة الإسلامية

دور كل بند من بنود النظرية العامة للدعوة الإسلامية

المراجـع والمصـادر

أولاً : القرآن الكريم والحديث الشريف .

ثانياً : مراجع أخرى :

١ - «**فخ العولمة - الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية**» : هانس بيتر مارتين ، وهارولد شومان ، ترجمة د. عدنان عباس ، مراجعة وتقديم أ.د. رمزي زكي كتاب عالم المعرفة (٢٣٨) - جمادى الآخرة ١٤١٩هـ - تشرين الثاني ١٩٩٨م.

٢ - «**السيارة لكساس وشجرة الزيتون - محاولة لفهم العولمة**» : توماس ل. فريدمان ، ترجمة ليلى زيدان ، مراجعة فايزة حكيم ، الدار الدولية للنشر والتوزيع - القاهرة .

٣ -«**عولمة أم أمركة**» : حسن أحمد قطامش ، مكتب الطيب - القاهرة - ١٤٢٠هـ .

٤ - «**الثقافة والعولمة**» : د. سعيد حارب ، دار الكتاب الجامعي - العين ٢٠٠٠م .

٥ - «**ظاهرة العولمة - رؤية نقدية** » : د. بركات محمد مراد ، كتاب الأمة - العدد (٨٦) ذو القعدة ١٤٢٢هـ .

٦ - «**لماذا نرفض العلمانية ؟!** » : محمد محمد بدري ، دار ابن الجوزي ، ط١ : ١٤١٢هـ .

٧ - «**العولمة بين النظم التكنولوجية الحديثة والتفتيش عن طريق بديل**» مؤسسة الرسالة ، ط١ : ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٨ - « **العالم حسب بوش ، ميلاد نظام عالمي جديد في القانون الدولي وسياسة المكيالين** » ، باتريك هرمان ، تعريب أنور مغيث .

٩ - « **المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية** ، د. عدنان النحوي ، دار النحوي للنشر والتوزيع - الرياض ، ط١ : ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

١٠ - «**ملحمة الجهاد الأفغاني**» : د. عدنان النحوي ، دار النحوي للنشر والتوزيع ، ط٢ : ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١١ - «**المرأة بين نهجين : الإسلام أو العلمانيَّة**» : د. عدنان النحوي ، دار النحوي للنشر والتوزيع ، ط١ : ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

ثالثاً : الدوريات :

١ - «**مناضلات ضد العولمة والنيوليبرالية**» - مجلة منبر الداعيات .

٢ - «**المؤتمر الإسلامي الرابع يناقش العولمة**» - صحيفة الشرق الأوسط ، العدد (٨٥٣٠) ٦/ ٤/ ٢٠٠٢م ، والعدد (٨٥٣٣) ٩/ ٤/ ٢٠٠٢م.

٣ - «**البيان الختامي للمؤتمر الإسلامي عن العولمة**» - صحيفة الشرق الأوسط ، العدد (٨٥٣٥) ١١/ ٤/ ٢٠٠٢م

٤ - مقال : «**العالمية والعولمة**» - صحيفة الشرق الأوسط ، العدد (٧٠٨١) ١٨/ ٤/ ١٩٩٨م .

٥ - مقال : «**العولمة مثمرة على رغم العودة المحدودة لدور الدولة**» - صحيفة الحياة ، العدد (١٤١٠٠) ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠١م .

فهرس كتاب
العولمة والإسلام